اهداءات ٢٠٠٤
أسرة المخرج / إبراهيم الصحن
القاهرة

دار
أخبار اليوم
قطاع الثقافة

كتاب اليوم

يصدر
أول كل شهر

عدد فبراير ١٩٩٧

رئيس مجلس الإدارة :
إبراهيم سعده

رئيس التحرير :
نبيل أباظة

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

البلد	السعر	العملة
الجماهيرية العظمى	٢	دينار
المغرب	٢٠	درهما
لبنان	٤٠٠٠	ليرة
الاردن	٢٠٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	١,٢٥	دينار
السعودية	١٢	ريالات
السودان	٣٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما
سوريا	١٢٥	ل.س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١,٢٥٠	دينار
سلطنة عمان	١,٢٥٠	ريال
غزة	٢	دولار
ج. اليمنية	١٥٠	ريالاً
الصومال، نيجيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنك
الإمارات	١٢	دراهم
قطر	١٢	ريالات
انجلترا	٢	جك
فرنسا	١٠	فرنك
المانيا	١٠	مارك
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا - أمريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك - واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٤٨ جنيها مصريا

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى ٢٥ دولارا

اتحاد البريد الافريقى ٣٠ دولارا

أوربا وأمريكا ٣٥ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا

٤٥ دولارا أمريكيا أو ما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات

٣ (أ) ش الصحافة

القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠

● تلكس دولى : ٢٠٣٢١٠

● تلكس محلى : ٢٨٢

كتاب اليوم
قطاع الثقافة



هذه الدنيا



أحمد بهاء الدين



الغلاف والإخراج الفني :

مجدي حجازي

تقديم

هذه الدنيا

حاضرا أو غائبا ، يبقى أحمد بهاء الدين أكبرمن أى تقديم..

فليس فى مصر أو العالم العربى من لا يعرف الأستاذ أحمد بهاء الدين كاتبا من أصحاب الرسالات .. وواحدا من ألمع وأشهر كتاب الصحافة العربية والمصرية فى النصف الثانى من هذا القرن.

كان أحمد بهاء الدين طرازا فريدا من الكتاب ، فى حياته وسلوكه وآدائه.. فهو لم يعتمد فى نجاحه وصعوده ووصوله إلى تلك المكانة العالية على حزب أو حاكم أو صاحب نفوذ أو جهة لها سلطان ، وإنما اعتمد على نفسه وجهده ومواهبه وقدراته.

وطوال رحلته التى امتدت إلى ما يزيد على أربعين سنة ، بقى أحمد بهاء الدين صادقا وأمينا مغ نفسه ومع الناس.

فهو لم يتلون ، ولم يتزلف ، ولم يعرف المهادنة ، أو الاستسلام ، أو التنازل عن أفكاره ومبادئه ورسالته من أجل منصب أو تكون له حظوة أو تقرب من سلطان .. ولم يسقط أمام اغراءات عالم الصحافة الزاخر بالاغراءات من كل نوع .. اغراءات الشهرة ، واغراءات المال ، واغراءات العلاقات والمصالح والمجاملات .. وإنما بقى كأصحاب الرسالات ، شريفا ، عفيفا، شامخا ، مترفعا عن الصغائر ، موضع احترام الجميع ، من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، ولو اختلفوا معه فى الرأى.

بقى أحمد بهاء الدين على العهد به ، رغم كل ما تعرض له من محن ومواقف صعبة ، فارسا نبيلا تتجسد فيه كل خبرة وشجاعة وبصيرة وتراث وحضارة وطنه وأمته : مصر العروبة ..

بدأ أحمد بهاء الدين رحلته مع القلم سنة ١٩٤٦ ، ولم يتوقف عن الكتابة إلا يوم ٢٤ من فبراير ١٩٩٠ ، عندما وقعت الواقعة ، وداهمه نزيف المخ ولم يعد باستطاعته أن يمسك بالقلم أو يتذكر شيئا.

وهكذا بدأ الغياب ..

غياب الذاكرة القوية الجبارة القادرة على جمع المعرفة ، والقادرة على التحليل..

غياب الذكاء الخارق ، وغياب موهبته.. موهبة التعبير العالية ، وغياب صاحب المصداقية التى لقيت التقدير

والاحــترام من كافة مـدارس الفـكر والثقافة .

لقد آن للفارس النبيل أن يترجل ..

وعـاش السنـوات السبع الأخيرة مـن حيـاتـه فى فـراش المرض ، صـامتـا ، بعيدا عـن الحياة والنـاس.. وبعدهـا كان الرحيل ..

□□ تولى أحمد بهاء الـدين رئاسة تحريـر سبع جرائد ومجلات مصريـة من بينهـا أكبر جــريـدتين وهما الأخبـار والأهرام..

□□ فى حديثه عن أحمد بهاء الـدين قال مصطفى أمين: انه كان معجبا بما يكتبه أحمد بهاء الـدين فى بداية حياته فى روزاليـوسف ، ولهذا اختاره رئيسـا لتحـرير الأخبـار وهى أول مـرة يتـم تعيين رئيس تحريـر يختلف رأيــه عن رأى صاحب الجريـدة.. وقال مصطفى أمين انه لم يحذف حـرفا واحدا مما كان يكتبه أحمد بهاء الدين فى أخبار اليوم.

فى ١١ من سبتمبر ١٩٥٩ انضـم أحمد بهاء الـدين إلى دار أخبار اليوم وأصبح أحد رؤسـاء تحرير جريدة الأخبار.

□□ وفى الشهـر التـالى من انضمامـه إلى كتيبـة أخبـار اليوم.. فى شهـر أكتوبـر ١٩٥٩ بدأ أحمد بهاء الـدين يكتب صفحتـه الأسبوعيـة فى أخبـار اليوم تحت العنـوان الشهير «هذه الدنيا»..

واستمر يكتب عن «هــذه الدنيا» وما جرى فيهـا من سنة

١٩٥٩ إلى سنة ١٩٦٤.. أى قرابة السنوات الخمس.

وكان الذى جرى فى «هذه الدنيا» خلال تلك السنوات كثيرا جدا ، وخطيرا جدا..

□□ كانت الدنيا غير الدنيا التى نعرفها الآن ..

ولم تكن تلك السنوات الخمس عادية وإنما كانت سنوات الأحداث الكبرى فى تاريخ العالم ، وتاريخ مصر والأمة العربية.

□□ كل ما جرى فى «هذه الدنيا» فى تلك السنوات الخمس الصعبة ، قدمه لنا أحمد بهاء الدين بفكره الموسوعى، وتحليلاته العميقة ، ورؤيته المستقبلية الشاملة.. ورسم لنا صورته بكل ألوانها والظلال.

□□ لم تكن السياسة فقط هى شاغل أحمد بهاء الدين فى «هذه الدنيا» وإنما كانت هناك الثقافة والفن والتاريخ والاجتماع والعلاقات الانسانية.

وكان حريصا على أن يقدم هذا المزيج أسبوعيا ، إلا إذا كان هناك موضوع واحد يفرض نفسه..

وهذا الكتاب يقدم لنا شهادة أحمد بهاء الدين عن الذى جرى وكان فى «هذه الدنيا» فى تلك الأيام.. وهى شهادة للأجيال لتعرف أحداث الماضى التى صاغت الحاضر..

هل هناك مكان للحب ..؟

أخبار اليوم .. فى :

١١ / ٦ / ٦٠

هل هناك مكان للحب .. فى حياتنا الجديدة؟..

إننـا ننطلق فى الطـريق إلى بنـاء مجتمع اشتراكى.. ونحن نـريد أن نشحـذ كل همة من أجل زيـادة الانتاج ومضاعفة الدخل. وقد نحتاج إلى التقشف فى هـذا الفرع من فـروع الحياة أو ذاك.

فهل هناك مكان للحب.. فى حياتنا الجديدة؟..

هل مطـالبـة المجتمع بأن يحول فوضى حيـاته إلى خطـة مرسـومة.. معنـاهـا تحويل الإنسـان إلى مسمار فى آلـة، أو إلى كيان ميكـانيكى أصم؟ هل معناها تجريـد الفرد من انسـانيتـه.. التى تجعله يقع فى الحب، ويبحث عن المتعـة، ويرتكب الحماقـات، ويستلقى على ظهـره فى ليلة جميلة.. لا يفعل شيئا سوى أن يتأمل النجوم؟..

اننا محتاجـون إلى كل دقيقة من وقت كل مواطن ومـواطنة.. لأننـا نريـد أن نبنى فى سنـوات ما بنـاه غيرنـا فى عشرات من السنين.. فهل معنـى ذلك أن نلغى الدقائق التى تنفقها الفتاة أمام مرآتها، أو التى ينفقها الفتى فى ترتيب رحلة أو سهرة مرحة؟.

إننـا نـريـد أن نحمـى مجتمعنـا من الانحـراف

والضعف.. فهل الحب انحراف؟ وهل الوقوع فى هوى الطبيعة الجميلة ضعف..؟ ليس هذا صحيحا..! بل إن الذين يقولون هذا الكلام.. اما أنهم خصوم للمجتمع الجديد، يريدون تشويه صورته مقدما.. واما أنهم ناس لا يهمهم إلا أن يكونوا أكثر المتكلمين حماسة وتطرفا.. ولو على حساب المجتمع الجديد نفسه..!

ومن الممكن أن نقول ببساطة: إن المجتمع الذى يعمل وينتج، هو المجتمع الذى يعرف كيف يستمتع بحياته..! وان الكثيرين منا يقعون تحت وهم الصور الناقصة التى تنقل إليهم عن الخارج..! فالناس يقرأون ويشاهدون الأفلام عن لندن وباريس ونيويورك وغيرها. فيظنون أن لندن ليست سوى حدائق هايدبارك حيث يباح الهوى.. ونيويورك ليست سوى شارع برودواى حيث أكبر مسارح اللهو.. وباريس ليست سوى مونمارتر حيث يسهر الفنانون بلا عمل حتى الصباح..! ولكن هذه ليست انجلترا وفرنسا وأمريكا.. ان أهم ما فى هذه البلاد هو الجهد العنيف.. هو المناطق الصناعية الهائلة.. هو قاعات العلم ومعامل البحث وأفران الحديد المنصهر..! والذين تراهم فى الشوارع والحدائق والمسارح يلهون ويمرحون، هم أنفسهم الذين تراهم فى المعامل والمصانع والمدرجات يبحثون ويعملون ويتصببون عرقا.. إن ازدهار اللهو جاء نتيجة لازدهار العمل وليس العكس..!

وبالعكس.. يقرأ الناس عن موسكو مثلا فيحسبون أنها مجرد معسكرات هائلة للعمل الشاق العنيف.. وان الناس هناك لا يبتسمون.. وهذا أيضا غير صحيح ففى هذه البلاد التى قفز فيها الانتاج.. قفز أيضا عدد المسارح الهائلة.. وانتشرت الحدائق المضيئة طوال الليل والغاصة بأنواع التسلية والألعاب.. وبدأت الشوارع والحدائق تزدحم بالشباب الذين ينفقون، لأنهم يؤدون عملهم ويكسبون.

الحب .. والنظام الاجتماعى!

ولكن .. تعالوا نفكر فى الموضوع من زاوية أخرى..

إن الحب يتأثر إلى حد بعيد بنظام المجتمع، وبدرجة نموه الاجتماعى والاقتصادى.

ولو حاولنا أن نتتبع تطور الحياة فى أسرة واحدة، خلال عدة أجيال، لوجدنا الدليل على ذلك..

فى البدء، كان المجتمع ـ بوجه عام ــ اقطاعيا. وسيادة النظام الاقطاعى معناها أن تقاليد المجتمع وأخلاقه وعاداته كلها تنتسب إلى هذا النظام، فى ظل هذا النظام نجد الأب يتمتع بسلطة مطلقة على زوجته وعلى أولاده وأحفاده.. سلطة أشبه بحق الملكية الخاصة، بل إنها بالفعل ملكية خاصة، فالزوجة مملوكة لزوجها، اشتراها من أبيها بمهر ضخم، اشتراها دون اختيارها. وهى تعلم جيدا أن مهمتها هى أن تخدمه وتطيعه وتخلص له ولا تناقش رغباته.. فى حين أنه هو ليس مطالبا بالوفاء أو الإخلاص لها.. وكذلك الابن أو البنت بالنسبة له.. الابن اذا عمل فهو يعطى إيراده لأبيه... وإذا تزوج فأبوه هو الذى يختار له زوجته.. وهو على الأغلب.. يقيم بأسرته الجديدة مع أبيه. أما البنت فوضعها معروف، مثل وضع أمها تماما..!

وفى صفقات الزواج تلعب قيمة المهر وثمن الشبكة وكمية العقارات التى يملكها الزوج الدور الأكبر فى الاختيار. فالمال فى حد ذاته له قيمة خاصة مستقلة عن قيمة الرجل..

ولكن هذا الوضع تغير إلى حد بعيد.. ومازال يتغير باستمرار.. اكتسبت المرأة حق التعليم والعمل، وبهذا كسبت حق الاختيار وحق المساواة. وليس ضروريا أن تعمل كل النساء ليتمتعن بهذا الحق. ولكن ظهور هذا الحق يترك أثره بالنسبة لجميع النساء. وكذلك بالنسبة للأبناء والبنات. لقد زاد حقهم فى الاختيار والاستقلال والانفصال. أصبح الشاب أو الشابة يختار مستقبله ويختار شريك حياته ويستقل بمعيشته، وفى الزواج تراجعت أهمية الشبكة والمهر، وتراجعت دلالتهما على نوع «العريس»! فقد بدأ الاحساس ينمو بأن القيمة الأساسية هى قيمة العمل. والعمل صفة لاصقة بالشخص لا تنفصل عنه، وهى المعيار الذى يقاس به. ولذلك أصبح «العريس» الناجح أو المتعلم أو الذى «له مستقبل» أهم من عريس خامل استطاع أبوه أن يدفع له مبلغا ضخما فى المهر والشبكة، أو من عريس خامل يملك بضعة فدادين، فى نموذج هذه الأسرة.. نجد أن التطور

الاجتماعى، الذى يستند إلى تطور مادى واقتصادى، قد غير معالم الحب القديم تماما. لم يعد الحب هو الخضوع، ولكنه أصبح المساواة والاحترام. لم يعد الحب يطالب المرأة دون الرجل بالوفاء، بل أصبح يطالب الاثنين على السواء بهذا الوفاء.. لم يعد الحب قرارا يصدره الأب لابنته بأن تعيش لهذا الرجل أو ذاك.. ولكنه قرار تصدره الفتاة بنفسها، لأنها هى التى سترتبط به.

وليس هذا سوى مثل بسيط جدا، يصور لنا مدى الاندماج التام بين نوع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، وبين الحب.

ولنقارن مثلا بين فتاة لم تتعلم ولم تعمل وأبوها يعولها بصعوبة.. وبين نفس الفتاة لو أنها تعلمت، وأصبحت تعمل..! انها فى الحالة الثانية تستطيع أن تخرج.. أن تذهب إلى السينما. أن تبحث عن ثوب تشتريه وعن ذوق يناسبها.. أن تختار شريك حياتها أو توافق على اختياره لها.. أن تكون لها صديقات..! والفرق هو التغير المادى والاجتماعى الذى حدث لها نتيجة ثقافتها وعملها..!

كذلك البيئة الاجتماعية كلها .. !

مجتمع بلا حب !

إن الكاتب «كريستوفر كودويل» الكاتب الذى حارب الفاشية فى أسبانيا حتى سقط قتيلا وهو فى ريعان الشباب ـ هذا الكاتب كان له كلمة جميلة تقول: «إن المجتمع عبارة عن انتاج اقتصادى ممزوج بالحب! وكما أن الحب هو الذى يجعل الحياة تمضى، فإن الطريقة التى تمضى بها الحياة تؤثر فى صورة الحب..»!

والحب ليس حب الرجل والمرأة فقط. انه حب الآباء والأبناء.. حب الأزواج والزوجات.. حب الطلبة والأساتذة.. حب الرؤساء والمرءوسين.. حب الزملاء والرفاق.. وهو يتمثل فى صور أخرى كثيرة .. كحب الإنسان لوطنه. أو حب الناس جميعا ومشاركتهم لأى إنسان يمر بمحنة.. كل هذه ألوان من هذا الحب الذى يحرك الحياة.. وكلها ألوان من الحب تؤثر فى قرارات كل فرد وفى مواقفه ومشاعره.. وكلها ألوان مرتبطة ببعضها البعض.. فالشاب الذى يعجز عن حب فتاة وزوجة يعجز أغلب الأمر فى

النهايـة عن أن يحب أى شىء آخر فى المجتمع. كذلك فإن الرجل الحاقد الكاره للحياة والناس والمجتمع، يستحيل عليه فى الواقع أن يحب فتاة واحدة حبا حقيقيا سليما صادقا..!

وأغلب أنواع الانحراف ترجع فى الواقع إلى نقص فى الحب.. وأى شاب ينحرف يرجع انحرافه دائما إلى نقص فى حب أهله أو أساتذته أو زملائه.. أو إلى شعوره بأن «المجتمع» بوجه عام، ككيان واحد، لا يحبه..! وكلما انتشر الانحراف، كان هذا دليلا على اختفاء الحب من الحياة.

مجتمع الحب .. ومجتمع الاشتهاء !

والتخلف الاقتصادى من أكبر العوامل التى تطرد الحب من المجتمع..!

إن التخلف الاقتصادى، وعدم مجاراة المجتمع لمطالب الناس المتزايدة ولوعيهم الذى ينمو ، والفروق الهائلة بين الطبقات.. كل هذا يؤدى فى النهاية إلى ضيق الأرزاق، وضيق الصدور، وارتفاع موج العداوة على موج المحبة.. فى هذا الجو ستجد الابن ساخطا على أبيه. لأنه لا يفهمه ولا يعطيه ما يريد. وستجد الأستاذ ساخطا مهملا لتلاميذه لأن المجتمع لا يكافئه على جهده ولا يوفر له حياة معقولة مقابل هذا الجهد.. وستجد الشاب الناشىء ممزقا بين أحلام حياة رغدة وبين واقع حياة ضيقة مغبونة. انه على الأقل ييأس من أن يتزوج ويؤسس لنفسه بيتا.. فييأس بالتالى من العلاقات المشروعة. ويلجأ إلى الانحراف.. وهكذا..

وعندما يتقهقر الحب.. يحل محله شعور مزدوج من الحرمان والاشتهاء.. كل واحد يحس بالحرمان والاشتهاء معا.. اشتهاء الجنس أو اشتهاء المال، أو اشتهاء المركز والنفوذ..

والاشتهاء غير الحب. إن الاشتهاء هو اقتناص لذة عابرة أما الحب فهو إحساس بناء. تمتزج فيه العاطفة بالمسئولية، إن المجتمع فى هذه الحالة لا يتقدم ولا يتطور بنظام.. إنما تتقرر فيه أشياء كثيرة بناء على الحظ والفرصة.. وكل واحد عليه أن يمسك بفرصته الخاصة ولو على حساب الآخرين، وإلا اقتنصها الآخرون على حسابه..! الحل العام لمشكلة المجتمع غير موجود فلا مفر من الحلول الخاصة بكل فرد! وهى عادة حلول وقتية فردية ضيقة.. هى التربة الخصبة للانحراف.. وهى التربة الخصبة لكل

ما يغذى الانحراف.. مثل أدب الانحلال وأفلام الانحلال وفكر الانحلال.. وكل ما يهيىء للفرد فى الخيال حياة لن يحققها فى الواقع.. وكل ما يبرر للفرد انحرافه الخاص إذ يقول له: إن الجميع هكذا..! والدنيا كلها هكذا..!

وأعود مرة أخرى إلى كلمة جميلة قالها «كودويل»: «إن تحويل الحب إلى شذوذ وانحراف.. هو خيانة لقدرة الانسان على الحب..!».

كيف تعيش الأغلبية ؟

وبعد .. فهل هناك علاقة مباشرة بين هذه الرحلة الطويلة، وبين مجتمعنا الجديد..؟

نعم..

إن نقطة الارتكاز فى أى كلام عن مجتمع اشتراكى هى: أغلبية الشعب وليست فئة محدودة منه..! فحين نتكلم عن حق الإنسان فى كذا وكيت، نقصد بهذا «الإنسان» مجموع الشعب، وليس فئة قليلة طافية على السطح..!

وبنفس المنطق.. حين نتحدث عن الحب، ومكانه فى المجتمع الجديد، لا نتحدث عنه فى داخل الطبقة الاجتماعية الغنية اللامعة وغيرها.. إنما نتحدث عن مكانه ومستقبله بالنسبة لمجموع الشعب..

ومشكلة الشعب ـ بمجموعه ـ هى زيادة الانتاج..! هى تكريس كل شىء لرفع مستوى المعيشة. لتطوير المجتمع ماديا واقتصاديا واجتماعيا بما يسمح للحب أن يزدهر.. ويصبح عاطفة من عواطف الصحة لا المرض، ومن أسباب السلامة، لا الشذوذ..!

إننا لا نستطيع أن نقول: إن الناس فى بلادنا عندهم سيارات كاديلاك لمجرد أن هناك بضع مئات عندهم سيارات كاديلاك..! كذلك لا نستطيع أن نقول إن الناس فى بلادنا يتمتعون بعاطفة الحب. لمجرد أن هناك عددا محدودا نسبيا يتمتع بهذه العاطفة! لا نستطيع أن نقول إن كل شاب وشابة فى الثلاثين مليونا الذين يسكنون بلادنا، تسمح لهم ظروفهم المادية والاجتماعية والثقافية بالاستقلال والاختيار، وتذوق العواطف الجميلة والأشياء الجميلة!

كما أن الثراء فى بلادنا كان احتكارا للقليلين.. كذلك كان الحب، وكان

تـذوق الجمال..! هنـاك ملايين تنهكهـم الحاجة.. الحاجـة إلى الغـذاء و إلى الصـحة و إلى الكساء و إلى الراحة.. وهذه الحاجة تحرمهم من ممارسة شتى ألـوان الحب والاستمتاع بجمال النـاس والفن والطبيعة.. بينما تـوجد قلـة تحترف الحب احترافا. كما يحترف آخـرون فلاحـة الأرض مثلا..! وعنـدما تحول الحب عنـد هذه القلـة إلى حرفـة لم يعد الحب بـالنسبة لها حقيقـة تعيشـهـا بل أصبح أدوارا تمثيليـة تـؤديها وتبـدلها.. وتعطى بها للنـاس صورة مشوهة عن الحب..!

إننا نريـد فى مجتمعنا الجديد أن تتسع قاعـدة الحب.. الحب الذى ينبت كالزهـرة فى تربة من الشعور بالعدل وعـدم الغبن. والاطمئنان إلى التقدم، والقدرة الماديـة والمعنويـة على ممارسـة الاختيار والانتقـاء. إن الوردة إذا غرستهـا فى تربة فقيرة وأغلقت عليها هـواء فاسدا سرعان مـا تذبل وتتعفن وتجف.. وكذلك كل عـواطف الحب فى المجتمع.. حب الرجل للمـرأة، والآباء للأبناء، والأساتذة للطلبة.. وكل حب آخر يحرك الحياة.!

محاولة لفهم بيكاسو!

أخبار اليوم .. في:

١٣ / ٨ / ٦٠

أكبر حدث فني وأدبي تتحدث عنه لندن .. هو معرض صور الرسام بيكاسو.. المقام في «تيت جاليري»...

لقد قاموا بجمع كل أعمال الرسام بيكاسو في خلال ما يزيد على الخمسين سنة..جمعوها من كل أنحاء العالم.. فبعضها جاء من استراليا ونيوزيلندا وبعضها جاء من فرنسا وأمريكا، استعاروا ما يملكه الأفراد وما تملكه المتاحف، واستغرق الاعداد لهذا كله سنوات.

ويبلغ ثمن نقل هذه الصور إلى لندن ثمانية آلاف جنيه. ووصلت قيمة التأمين عليها ـ وهي ٢٦٩ لوحة ـ إلى مبلغ ستة ملايين جنيه، وليس معنى هذا أن القائمين على المتحف دفعوا ستة ملايين، ولكنهم دفعوا مبلغا ضخما وصل إلى بضع عشرات الآلاف من الجنيهات كقسط تأمين. فلوتصورنا جدلا أن كل صور المعرض ضاعت لدفعت شركات التأمين لأصحابها ستة ملايين جنيه!

ومن الجهات التي تملك هذه الصور ـ كمتحف نيويورك مثلا الذي يملك ٦ لوحات منها ـ اشترط أن لا تنقل لوحاتها الست عبر المحيط في باخرة

واحدة.. خشية أن يحدث للباخرة شيء..فأرسلت اللوحات الست في ثلاث بواخر مختلفة!

وفي مقابل هذا كله.. تستطيع أن تدخل المعرض وتقضي فيه يوما كاملا إذا أردت مقابل ثلاثة شلنات ونصف أي حوالي العشرين قرشا..

ولا أظن أن هناك رساما آخر قبل بيكاسو، تمتع بكل هذا المجد والتكريم والثراء والنجاح في حياته.. وليس بعدوفاته، كما هو المفروض أن يحدث.. بالنسبة للعباقرة!!..

ولاشك أن مئات أو آلافا من الرسامين ومن محبي الرسم يحسدونني على هذه الفرصة التي أتيحت لي أن أرى كل أعمال الرسام العالمي مجموعة في معرض واحد..وهو شيء نادر!..

ولاشك أنهم سيزدادون حسدا لي لو عرفوا أن هذه ثاني مرة يصادفني فيها هذا «الحظ»... فمنذ أربع سنوات تقريبا، كنت في باريس.. ووجدت أن باريس تقيم معرضا مماثلا لكل أعمال بيكاسو.. بمناسبة مرور ٥٠ سنة على وصول بيكاسو إلى باريس ليقيم فيها، يوم كان رساما شابا مغمورا، آتيا من بلاده، أسبانيا...

ولكنني، في الواقع، لا أحسد نفسي على هذا الحظ الكبير..

إن بيكاسو دائما يتحداني ويحيرني..

فأغلب لوحاته لا أفهمها.. وعندما أعجب بلوحة معينة له، يتصادف عادة أن تكون، في رأي الفنانين، عملا تافها!.

ولكني لا أستطيع أن أهز كتفي له وأقول: إذا كان لا يعجبني فخلاص، لابد أنه كلام فارغ. ولابد أنها حماقة أن أحاول فهم هذه الوجود المشوهة والألوان الملخبطة والموضوعات الشاذة الغريبة!

لا أستطيع أن أهز له كتفي... لأنني أقول لنفسي دائما: مستحيل أن يكون كل هؤلاء الناس.. والنقاد.. الذين يتجشمون كل هذا التعب.. مستحيل أن يكونوا كلهم حمقى أغبياء.. وأنت وحدك العاقل الذكي!

لابد إذن أن فهمي لفن الرسم قاصر.. لابد أن أحاول!

وفي المرة الأولى.. في باريس.. اشتريت كل الكتالوجات التي كانت تباع في المعرض.. ودخلت مسلحا بها في سيل من الشبان من ذوي اللحى المرسلة

والشابات من ذوات الثياب الغريبة... من المتعبدين فى محراب الفن. ووقفت مثلهم بالساعات أمام هذه اللوحة أو تلك.. وجلست إذا وجدت مقعدا، أمام لوحة.. بين آخرين جالسين.. يحدقون فى الصورة ساعات، لا يتحركون ! لم تكن النتيجة مشجعة كثيرا!..

وفى لندن تكرر نفسى الشىء... وأردت هذه المرة أن أستعين بكلمات الرسام نفسه.. وما أكثر ما ينشر عنه وينشر له فى لندن بمناسبة المعرض!

ماذا يقول بيكاسو؟..

يقول مثلا: « كل واحد يريد أن يفهم فن الرسم (صحيح !) . ولكن لماذا لا يحاول هؤلاء مثلا أن يفهموا تغريد الطيور؟. إن الناس يحبون الليل، والزهور. دون محاولة فهمها.. فلماذا يصرون على فهم الرسم بالذات؟»..

عظيم لست وحدى إذن الذى لا يفهم ولكننا نحب الطيور والزهور لأنها تبعث فينا احساسا مباشرا بالجمال. وهذا لا ينطبق بالضبط على كثير من هذه اللوحات! إن بعضها لا أستطيع مثلا أن أعلقه فى بيتى، لكى أرى فيه دائما، شكلا جميلا...

آه ولكن بيكاسو قال مرة «أتظنون الفنان مجرد إنسان غبى.. له عيون فقط إذا كان رساما، وله آذان إذا كان موسيقارا، وله عضلات إذا كان ملاكما؟!.. إن الفنان رجل سياسى. إن الصور أسلحة للدفاع أو للهجوم على الأعداء! إن الصور ليست للتعليق فى البيوت!».

كلام رائع! كدت أقتنع فعلا! فإذا كانت هناك صور للتعليق فى ا لبيوت، فلا يمكن أن تكون كل مهمة ا لفنان هى هذا. لابد أن يكون له رأى. وكفاح. وقضية ومعركة! وهذه لا يناسبها دائما أن توضع فى البيت كما توضع لوحة تمثل بطيخة ودورق مياه!

ولكن .. هذه الأشكال الغريبة التى تعرضها لنا صور بيكاسو.. النساء اللائى لسن بنساء.. الوجوه المقصوصة والمحطمة والتى سار عليها وابور الزلط؟

يقول بيكاسو.. أحيانا ترون فى إحدى لوحاتى أنفا محطما! لقد حطمته عمدا لكى أجعل الناس يتوقفون عنده ويرونه بدلا من مجرد المرور على

منظر أنف عادى جميل! وعندما يتـوقفون عنده، ويتأملونه، يجدون أنه غير محطم إطلاقا!!

ويقـول: الحقيقة هى مـا أفكر فيـه لا مـا أراه! الحقيقة أكثـر من مجرد الشىء نفسه كما نراه. إن العصفور الأخضر قد يكون سلطة خضراء.

وأخيرا يقول بيكاسو. عندما أرسم.. أغمض عينى، وأغنى! ما رأيك؟

هل ترى أننى بدأت أفهم؟.

في أقدم اللوحات، تلك التي ترجع إلى أكثر من أربعة آلاف سنة، كان الفنان المصري القديم يرسم حاكم مصر، في يده فأس، يضرب بها حافة النهر.. وكان اللقب الذي يحمله ويزهو به هو لقب «حافر القنوات!» وبعد أربعة آلاف سنة.. نجد هذه الفأس يحل مكانها «زرار» كهربائي صغير، تضغط عليه اليوم اصبع جمال عبد الناصر، فينفجر الجبل، وتتمزق صورة الطبيعة التي تبلغ من العمر مئات الآلاف من السنين، لتحل محلها صورة جديدة!

إن هذا النيل العظيم.. ليذكر في تاريخه منذ مئات الآلاف من السنين تغيرات قليلة حاسمة!

انه يذكر يوم كان ينتهي «كنهر» عند بلاد النوبة. يوم كان البحر المالح تتلاطم أمواجه عند أسوان، ثم كيف أخذ النهر يحمل طينه سنة بعد سنة، ألف سنة بعد ألف سنة حتى أقام هذا الوادي الخصب، وطارد المياه المالحة حتى شاطيء الاسكندرية ودمياط ورشيد!

وإنه ليذكر، هذا النهر، يوم تحول مجراه.. منذ أربعة آلاف سنة.

من الملك مينا.. إلى المستر دالاس!

أخبار اليوم.. في: ٦٠/١/٩

وإنه ليرى ــ هذا النهر ـ اليوم، ليذكر بعد ألف سنة، هذا الانفجار الهائل.. يبدد صمت آلاف السنين، ويحول الصخر الذى سيتطاير دهشة وعجبا. يحوله إلى بحيرة. ونهيرات، وتوربينات!

لا أذكر من هو المؤلف أو المؤرخ الذى قال: إن نهر النيل يفقد حريته بمجرد وصوله إلى النوبة! فهذا النهر الهائل الجبار، سليل الأمطار والبحيرات والجبال والمستنقعات.. والأب الذى أنجب التمساح والدرفيل.. والطاغية الذى يسكر أحيانا بخمر قوته فيعربد ويغرق ويفيض.. هذا المارد الجبار يفقد حريته عند حدود الإقليم المصرى! فسكان هذا الوادى يتجمعون حوله من قديم الزمان.. يقصون أطرافه ويهذبونه ويكبلونه بالجسور والسدود والسواقى.. فيتحول إلى خصب وخير.

جسد الوادى .. يختلج !!

إن النيل لا يفقد حريته فى بلادنا. إن سكان هذا الوادى لم يسجنوه ويكبلوه ويذلوه! انهم على العكس قد أقبلوا عليه فى شغف.. يدرسون أطواره، ويفهمون تقلباته، ويسجلون ارتفاعه وانخفاضه! وفى سبيل حبهم له، تعلموا دراسة النجوم والأفلاك ليعرفوا مواعيده.. وابتكروا المقاييس ليفهموا مزاجه الصاعد الهابط! إنهم لم يقتلوا حريته.. ولكنهم كانوا يقدمون المعرفة الإنسانية إلى ابن الطبيعة هذا، لكى يؤدى رسالته.

وإذا كانت أقدم حضارة فى الدنيا، وأقدم دولة عرفها البشر، قد قامت فى هذا الوادى.. فهذا النهر هو السبب! كان العالم المسكون كله قبائل موزعة.. ولكن هذا النهر هو الذى جعل القبائل التى تسكن الوادى تلتقى عنده، وتلتف حوله.. فالتفاهم مع النهر لا يمكن أن يتم فى بقعة واحدة.. انما يتم بمحاولة فهمه من النوبة إلى شاطىء البحر.. وكان هذا اللقاء هو الذى ربطهم.. وهو الذى علم القبائل لأول مرة أن تلتقى فى وطن.. وفى دولة!

من يستطيع أن يتخلص من هذه الخواطر الموغلة فى القدم، وهو يرى أو يسمع اليوم هذا الحدث الفذ؟.. يرى الإصبع السمراء تلمس هذا الزر لمسة سحرية يتكهرب لها جسد الوادى بأكمله.. فيختلج من قمة رأسه إلى أخمص القدم.. يختلج بالأذرع التى تعمل، والفئوس التى تهوى، والآلات التى تدور!

وقد جاء هذا الحدث.. والنهر لا ينتمى إلى سكان هذا الوادى فحسب..

ولكنه ينتمى إلى أمــة أكبر وأوسـع هـى الأمة العربيــة كلـها، فقوة هــذا الوادى قوة للعرب، وتجدد شبابه تجدد لشبــاب العرب.. والنيل لم يعد نهرا وحيدا بنفسه.. ولكنه أصبح يرتبط بأخوة وأبناء عمومة.. بدجلة والفرات والأردن والعاصى وغيرها.

انقــلاب ســياسى

ولكن السد العــالى ليس حدثا علميــا أو صناعيا أو قوميــا فحسـب.. انه أيضا حدث سياسى.. بل إنه أول حــدث له مغزى ضـخم فى حياة العالـم، فى هذا العصر الجديد الذى بدأ بسنة ١٩٦٠.

فالمعركة السياسيــة التى اقترنت بالسد العالى.. هى التى اكسبت السد شهرتــه العالميــة.. وهى التى جعلت له قيمــة أكبر من عدد أطنــان الصـخر الذى سيستخدم فيه وفدادين الأرض التى سيرويها!

لقد ولد مشروع السد العالى، والحرب العــالمية الباردة فى أحرج أوقاتها! ولد المشروع عنــدما كان المعسكــران الدوليان الكبيران ينظــران إلى الحياد الإيجابى وكأنــه مخلوق غير طبيعــى لا يمكن أن يعيش طويــلا، ويجب ألا يعيش طويلا.. وعنــدما كان الغرب بالــذات لا يقبل من أى دولة مستقلة الا أن تنضوى تحت لوائه.. بالأحلاف أو القواعد العسكرية أو غيرهـا.. والدولة التى لا تقبل التبعيــة السياسية والعسكـرية والاقتصــادية لا ينتظـرها إلا الجوع والاختناق.. وربما الاحتلال!

وبهذا المنطق سحب جون فوستر دالاس العــرض الأمريكى لبناء السـد، بعد مفــاوضات طويلــة مضنية انتهت إلى القبــول! وجلس دالاس ينتظر أن يخر سكان الوادى راكعين!

ولكن جمال عبــدالنــاصر، **بإدراك هــذا المغــزى الخطير، لسـحب السـد العــالى**، أعلن تأميم القناة! أعلن تمرد **الــدول الصـغيرة على وضـعها كأتبـاع!** وكــان لابد أن يشـن الكبــار حملة **تأديبيــة على هــذا الثائر الــذى بدأ يقلــده الآخــرون!** وتولى أنتــونى أيدن هــذه المهمة.. **والبــاقى معروف! ففى هــذا الأسبوع** ينشر انتونى أيدن مذكراتــه **ويعلن جمال عبدالناصر البدء فى بناء السد!** الأول ينشر الحســاب الختــامى لماضيه.. **والثانى يفتح حسابــا جديدا** للمستقبل!

ولم يكن الغرب يتصور أن رفضه المساهمة فى تمويل السد العالى.. سيجعلنا نقبل عرض الاتحاد السوفيتى لإقامة السد!

إن العالم كله يتحدث اليوم عن تغير الجو السياسى العالمى، وعن انتهاء سياسة خطر الحرب وحافة الحرب.. عن انتهاء سياسة الحصار والمقاطعة وعدم التفاهم بين المعسكرين...

ومن يتعقب التطورات التى أدت إلى هذا التغير، يجد أن أكثرها بدأ من معركة السويس.. التى كانت أيضا معركة السد العالى!

وعندما يذهب الإنسان إلى أصغر البلاد وأحدثها.. غينيا مثلا.. ويجد البعثات والخيرات تأتى إليها من الشرق والغرب على السواء.. دون ضجة ولا حرب ولا أزمات.. يذكر على الفور معركة السد العالى.. التى شقت هذا الطريق، وقررت هذا المبدأ..

وعندما يسمع الإنسان كل أقطاب العالم يقولون إن عصر ١٩٦٠ سيكون عصر التنافس السلمى فى البناء وفى مساعدة البلاد الناشئة.. يذكر على الفور معركة السد العالى.. فهى قمة المخاض الذى سبق ولادة هذا العصر.

ومن هنا كان تفجير جمال عبدالناصر لهذه التلال صباح اليوم.. طلقة انتصار وأمل لألف مليون رجل وامرأة وطفل.

كتاب جديد

الجزء السادس عشر من تاريخ الرافعى!

ظهر هذا الأسبوع الجزء السادس عشر من الكتاب العظيم الذى تتلمذنا جميعا على صفحاته!

انه كتاب استغرق تأليفه أكثر من عشرين سنة.. ووصلت صفحاته بهذا الجزء السادس عشر إلى ما يقرب من سبعة آلاف صفحة! أما موضوعه فهو تاريخنا القومى منذ سنة ١٧٩٠.. أى أنه يؤرخ لفترة من عمرنا طولها حوالى ١٧٠ سنة!

الكتاب هو تاريخ حركتنا القومية.. والمؤلف هو عبدالرحمن الرافعى.. والجزء الأخير الذى ظهر هذا الأسبوع عن الفترة من يوليو ١٩٥٢ إلى آخر سنة ١٩٥٩.

ولايوجد فى بلادنا شاب مثقف لم يقرأ مؤلفات عبدالرحمن الرافعي.. ولم يهتز وجدانه وهو يقرأ أجزاء هذا الكتاب تصدر على مر السنين.. عن ثورات القاهرة ضد نابليون.. وضد الأتراك.. وثورة عرابى.. وثورة ١٩١٩.. عن مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول.. عن دخول الانجليز وخروجهم مرة بعد مرة!

وقدعاش عبدالرحمن الرافعي حتى استطاع أن يؤرخ لثورتنا الحديثة المعاصرة، ثورة ٢٣ يوليو.. ولكى يختتم أسماء الأبطال فى تاريخه باسم جمال عبدالناصر!. ولاشك أن تاريخ هذه البلاد يعتز بمؤرخين وبتاريخين: تاريخ الجبرتي.. وتاريخ الرافعي!

وكتب الرافعي ـ بما فيه هذا الكتاب الجديد ـ ليست كتبا فى فلسفة التاريخ، ولكنها كتب تاريخ قومي.. تعمد إلى الموضوعية، ولكنه لا يقدم لنا موضوعية باردة، إنما يقدمها لنا مشتعلة بعاطفة وطنية صافية، لا تفتقدها فى سطر واحد من سطور هذه السبعة آلاف صفحة!

إن الكتاب يؤرخ لك أحداث ثورة ٢٣ يوليو.. منذ ليلة انفجار الثورة إلى يومنا هذا!

إن الخطب والأحداث والحروب والمؤامرات والأسماء التى تتردد فى هذا الكتاب، كلها معروفة لأبناء هذا الجيل.. لأنهم عاشوها، ولكن اجتماع كل هذه الأحداث فى كتاب واحد، مكتوب بروح موضوعية وقومية، يجعل القارىء يشعر بهزة جديدة إزاء هذه الأحداث.. ويكتشف لها مغزى جديدا.

إننا عادة نعيش الأحداث المعاصرة لنا «بالقطاعى». وكثيرا ما ننسى الربط بينها واستخلاص مغزاها.. والكتاب يكمل لنا هذا النقص..

فعندما يقرأ الإنسان المؤامرات التى قدمت إلى المحاكمات. واتصال بعض الهيئات والأحزاب بالانجليز.. وتوالى هجمات اسرائيل على العوجة، والصبحة وغيرهما وعقد حلف بغداد، ومحاولة عزل مصر والانجليز مازالوا فيها.. عندما يقرأ الإنسان هذه الأحداث مسلسلة محبوكة يكتشف أن بينها أكثر من صلة.

وإن الأمر ليس مجرد مصادفات.. ولكنها مخاطر اجتازتها الثورة، مخاطر ذات مغزى واحد وهدف واحد وتعبر عن مصالح متشابكة

متسانـدة.. مصالح عصر كان يمـوت وينقضـى.. عصر كامل بكل تقـاليده وأخلاقياته، وعلاقاته وأمواله وخفاياه!

ولا تمر صفحـات الا ويقف الـرافعى وقفة التعليق وإبـداء الملاحظـات الذكية.. فهو يلاحظ مثلا أن فاروق هو أول ملك من أسرة محمد على يعزله الشعب.. فى حين أن اسماعيل وعباس عزلتهما الدول الأجنبية..

وهـو يتحدث عـن أزمة مـارس سنـة ١٩٥٤ فيقـول فى قوة: إن قيـادة الثـورة لو تخلت فى تلك الأزمـة عن مسئوليـاتها وتركت الأمـور للأحـزاب القـديمة والقـادة الانتهـازيين والعناصر الـرجعيـة والاقطاعيـة ، لانهارت الثورة ودفنت! ثـم يعقد مقارنـة بين ما حـدث فى إيران ومـا كان يمكن أن يحدث فى مصر، ففى إيران أدى التخـاذل إلى سقوط مصدق واندثـار حركة تأميم البترول بل ومحاكمـة البطلين مصدق وحسين فـاطمى وسجن الأول وإعـدام الثانى «وعـادت الأمـور فى إيران إلى سيرتها الأولى من الخضـوع للرجعية والاستعمار».

ويؤكد الرافعى « إن قادة الثورات مسئـولون مسئولية كاملة عن الحكم حتى تتحقق أهداف الثورة .. أما ترك الأمور لفوضى الانتخابات وقتئذ وما كـان يتخللهـا من تضليل ومفـاسـد وشراء للذمم والأصـوات ومـؤامـرات استعمارية من الخارج تبـذل فيها الأمـوال عن سعة ، فهـو تخل عن مهمة الثورة .. ولـو تراجعـت ثورة ٢٣ يـوليو أمـام أحداث مـارس سنة ١٩٥٤ لعـادت البـلاد سيرتها الأولى من الفوضى والانقسـام ، ولضعفت الجبهـة الـداخليـة أمـام الاستعمار . ولكن تماسك الثـورة وتغلبهـا على العنـاصر الرجعيـة مكناهـا من أن تحقق أهدافها دون أن تطعن مـن الخلف .. وبذلك أمكنها أن تحقق الجلاء ، وتنهج سيـاسـة الحياد ، ثم تؤمم قنـاة السويس ، هـذا العمل القـوى الذى كـان يستحيل أن يتقـرر وينجح فى عهـد حكومـة رجعيـة ، ولو وجـدت هذه الثـورة المتماسكة فى مصر سنـة ١٨٨٢ لما احتل الانجليز مصر ، ولـو وجدت مثلها فى إيـران حين أمم مصدق البترول لنجح التأميم » .

وينتهى الكتاب بالحادث الضـخم الفذ .. وهو مـولد الجمهورية العربية المتحدة وبزوغ القومية العربية كعقيدة وهدف .

الكتاب الذى فى يدى ، يستحق أن يقرأه كل عربى! واننى لأتمنى أن تتوفر إحدى جامعاتنا أو هيئاتنا على نقله إلى اللغة العربية أو أن يتبرع أحد الأغنياء بألف جنيه مثلا لترجمة وطبع هذا الكتاب الضخم الذى يهم كل حكومة عربية .. وكل مواطن عربى .. وكل هيئة علمية عربية .. فإنه من المحزن حقا أن يوجد مثل هذا المرجع فى اللغة الانجليزية ولا يوجد فى اللغة العربية !

إننى اقرأه بمناسبة عودة العلاقات السياسية بين انجلترا والجمهورية العربية المتحدة ..! فالكتاب عبارة عن النص الكامل لكل المعاهدات والوثائق والتصريحات الرسمية .. السرية والعلنية .. التى تمس الشرق الأوسط..

منذ سنة ١٥٣٥ إلى سنة ١٩٥٦ .. أى خلال ٤٢١ سنة كاملة .. هى كل تاريخنا مع الاستعمار ، الظاهر والخفى . الضعيف والقوى !

إن عدد الوثائق التى فى هذا الكتاب ـ وهو يقع فى جزءين من حوالى ٧٠٠ صفحة ـ عبارة عن ٢٢٨ وثيقة .. ابتداء من الوثائق التى تعطى انجلترا حق استغلال قطر عربى استغلالا مؤبدا ، أو بلغة

من الأرشيف السرى للسفارة البريطانية

أخبار اليوم .. فى :

٥ / ١٢ / ٥٩

الوثائق القديمة «حتى يفنى التراب ، ويشيب الغراب!».. إلى وثائق المأسوف على شبابه حلف بغداد فى سنة ١٩٥٦.

إن قراءة هذه الوثائق ، طريقة لذيذة حقا لمطالعة التاريخ ! إنها خير طريقة للجلوس فى مدرسة هذا التاريخ العجيب !

والوثائق تضم كل ما صدر عن القوى الأجنبية والمحلية .. ولكننى وقفت بالذات عند الوثائق التى تتصل بسياسة الانجليز.

ولا مجال هنا طبعا ـ فى مناسبة عودة العلاقات السياسة ، والأزمات التى بدأت انجلترا تفتعلها ـ لاستعراض كل هذا التاريخ .. ولكن لا بأس من وقفات سريعة عند بعض هذه المواقف «الطريفة» !

فى حلب بدأت القصة !

إن أول امتياز ـ مثلا ـ حصل عليه الانجليز .. صدر من حلب !

انجليزى واحد.. اسمه انطونى جنكنسون .. ذهب إلى حلب سنة ١٥٥٣ حيث كان السلطان سليمان الأول ، الخليفة التركى ، يستعد لغزو إيران .. وهناك ، حصل الانجليزى جنكنسون على أول وثيقة تعطى الانجليز أول امتياز فى الشرق الأوسط : أمر من السلطان إلى رجاله «فى القسطنطينية» وفى الاسكندرية ، وفى طرابلس (لبنان) كما تقول مقدمة الوثيقة .. وإلى سائر رجاله فى كل أنحاء الامبراطورية التركية أن يسمحوا للانجليزى جنكنسون ووكلائه بالتجارة ونقل البضائع خلال هذه المنطقة كلها !

وتبقى ملاحظتان طريفتان حول هذه الوثيقة :

الأولى .. إن الفرنسيين كانوا قد سبقوا الانجليز .. لذلك فقد سمح للتاجر الانجليزى بأن يزاول نشاطه فى سفن انجليزية .. بشرط أن ترفع راية فرنسا !

والثانية .. أن جنكنسون هذا كان يمثل شركة تجارة كبيرة اسمها «الشركة الموسكوفية» .. إذ كان شركاؤه فيها تجارا من روسيا القيصرية ! وكانت الشركة تنقل تجارتها بين أوروبا والشرق الأقصى عبر روسيا ، ثم حصلت على هذه الوثيقة لكى تنقل تجارتها عبر الشرق الأوسط ، لأنه الطريق الأقصر.

ونحن نعرف بعد ذلك .. كيف استطاعت انجلترا ، سنة بعد سنة أن

تتخلص من روسيا القيصرية ، وان تجعل مصالح فرنسا ـ أحيانا ـ ترفع راية انجلترا !

ونقفز ٣٠٠ سنة ثلاثمائة سنة لم تضيعها انجلترا عبثا.. إنما مضت تنسج فيها سلسلة عجيبة من «المعاهدات» ، مع مناطق صحراوية نائية لم يفكر فيها أحد مطلقا فى ذلك الوقت .. عدن .. مسقط .. عمان .. البحرين!.. كان كل همها من هذه «المعاهدات» أن تضمن تموين بواخرها دون بواخر منافسيها ، وأن تحمى المحيط الذى يحمل سفنها إلى الهند !..

ولم تكن تعرف أن هذه الأرض ستنفجر بعد مئات السنين بماء الحياة ، بالبترول!..

نقفز هذه الـ ٣٠٠ رغم انها خطيرة حافلة ـ لنجد وثيقة ممتعة حقا .. هى المناقشة البرلمانية التى دارت يوم ٢١ فبراير سنة ١٨٧٦ فى مجلس العموم البريطانى بين رئيس الوزراء «دزرائيلى» وزعيم المعارضة جلادستون.. حول قناة السويس ! تماما كالمناقشات التى تدور الآن أحيانا بين المحافظين والعمال.

كان دزرائيلى قد عقد صفقة خطيرة ، اشترى فيها أسهم مصر فى شركة قناة السويس ، وكان جلادستون زعيم المعارضة يهاجم الصفقة قائلا : انك اشتريت الأسهم ، ولكن السلطة ليست لك (لأنها كانت للفرنسيين).. ولكن اليهودى الاريب رئيس حزب المحافظين ، دزرائيلى ، يقول «ان مصر أهميتها مقبلة!».. ويتدفق فى حديث ذكى عن افريقيا .. والقناة .. ومواصلات الامبراطورية.. ومغزى امتلاك هذه الأسهم!.. كأنى به واقف يعلم أعضاء البرلمان الانجليزى فن الاستعمار وهو يقول بالنص : «إذا امتلكت رأس المال فلابد أن نفوذك سيكون كبيرا ، مهما كانت القوانين والقيود الموضوعة ! ان الرأسمالى سيعرف دائما كيف يمارس سطوته!!».

التعليمات السرية !

على أن أطرف وثيقة فى هذه السلسلة كلها .. هى تلك الرسالة السرية ، التى كتبها وزير خارجية انجلترا سنة ١٨٧٦ لورد سالسبورى ، إلى قنصل انجلترا الذى عين لأول مرة فى مصر .. سير إدوارد ماليت .. انه يشرح له فيها خطوط سياسة انجلترا فى مصر قبل احتلالها بست سنوات!..

إن أول ما يطلبه وزير خارجية انجلترا من ممثله فى مصر هو : ألا يجعل أى دولة كبيرة أخرى تتمتع فى مصر بنفوذ أقوى من نفوذ انجلترا .. ثم يقول له : «إن هذا الوضع يمكن تحقيقه طبعا بأن تأتى قوات صاحبة الجلالة وتحتل مصر.. ولكن لا بأس من البدء بتجربة وسائل أخرى!».

وهو يبرر عدم رغبة انجلترا فى اللجوء إلى احتلال مصر بحجة وجيهة : ان الدول الكبرى كلها تنظر إلى مصر.. ولوتدخلت انجلترا فقد يتدخل معها الجميع.. وانجلترا تفضل ألا يتدخل أحد !

وهو لذلك ــ كما يقول ـ بفضل بقاء الحكم الوطنى . ولكنه ينصح بأن يدخل فى الحكم الوطنى عدد كبير من الموظفين الانجليز.. بشرط أن يبقوا فى الظل.. فلا يظهروا كثيرا.. حتى يبقى الناس متوهمين أن الحكم وطنى !.. «المهم هو السلطة الحقيقية التى يمارسها الموظف الأجنبى ، وليس اللقب أو الرتبة. أبحث للموظف الانجليزى عن المكان الذى يحقق له النفوذ، ولايثير الحسد !!

دور العمـــــلاء

لم يتحدث الوزير فى تعليماتــه السرية عن الموظفين والساسة المحليين.. فيقول انه « فى كل البلاد الشرقية، حيث توجد سفارات اجنبية قوية، نجد أن الاشخاص المحليين المتنافسين على المناصب يكونون عادة مستعدين لان يكونوا عملاء لهذه القوة أو تلك. ولكن عيب هؤلاء ان ولاءهم غير مضمون. فلا يجب الاعتماد عليهم تماما.. ولااهمالهم تماما !» .

وبعد ذلك يتحدث الوزير عن احتمال انهيار الدولة فى مصر.. فيقول انه يلاحظ أن هناك بوادر انهيار شامل فى كل البلاد «المحمدية»، أى الشرق الأوسط الخاضع للامبراطورية التركية. وهو لذلك يكرر أهمية وجود موظفين انجليز أو موالين فى الاماكن الحساسة ، حتى إذا حدث الانهيار، استطاع الانجليز أن يستفيدوا من ذلك.. قبل أن تستفيد أى دولة أجنبية أخرى !

عجبا ! كأنى به يتحدث عن العراق الآن !!

بل يذهب الوزير فى تعليماتــه إلى حد الاستعداد لكل الاحتمالات، حتى احتمال اشتداد الصراع على مصر إلى درجة تقسيمها إلى اجزاء منفصلة،

فينيه قنصله إلى أن الجزء الذى يهم انجلترا الاحتفاظ بـه فى هذه الحالة هو : «السواحل وطرق المواصلات بين البحـر الأبيض والبحر الأحمر.. ولا مانع بعد ذلك من أن تستولى على الاجزاء الداخلية أى قوة أخرى !!» .

تلك هى سيـاسة انجلترا فى عصر الاستعمار: تسلل بطىء.. أصـدقاء فى الظـاهـر وأصـدقـاء أخطـر منهم فى الخفـاء .. اهتمام بـالنفـوذ الحقيقى لا بمظاهره.. استعداد دائم لكل الاحتمالات ..

مــــأدبـة !

ولا يملك الانسان إلا أن يهز رأســه عجبا وهـو يقرأ وثيقـة أخرى.. هى المحضر السرى لاجتماع عقـد فى باريس يـوم ٢٠ مـارس ١٩١٩ بين لويـد جورج رئيس وزراء انجلترا وكليمنصـو رئيس وزراء فرنسا.. لـلاتفاق على تقسيم نهائى لمنطقـة الشرق الادنى ! لا يكاد الانسـان يصدق عينيـه وهو يقـرأ حـوارهما !.. كيف يتحـدثـان عمن يأخـذ حلب والموصل ومن يأخـذ دمشق وحمص.. وغيرها !.. كأنهما يتحـدثان عن اقتسـام كعكة صغيرة أو شىء خاص بهما!.. وببسـاطة شـديدة.. بكلمـة من هذا أو ذاك.. فى غـرفة هادئة بباريس. تتحرك مدينة عربية كحلب أو الموصل بين هذه اليد وتلك !..

وغير ذلك كثير.. وعجيب.. وأليم !

وليس عجبـا ـ أثنـاء قـراءة هـذه الوثـائق ـــ من متـابعة تغير معـانى الكلمات.. وكيف تكـون الكلمة الـواحـدة كالحربـاء لها ألف لـون !.. كيف يتحـول «الخبير» إلى «حاكم».. كيف تتحـول «التجارة» إلى «استغـلال»، و «الدفاع»، إلى «احتلال»! .

وها نحن فى سنة ١٩٥٩.. وها هو ممثل سياسى انجليزى اسمه كولين كرو.. يأتى الينا بعد انقطاع.. مـزودا بتعليمات من وزير خارجيته، سلوين لويد !..

ماذا فى هذه التعليمات يا ترى ؟..

أغلب الظن انها تختلف كثيرا عن التعليمات التى تلقـاها القنصل ادوارد ماليت من وزير الخارجية لورد سالسيورى ، منذ تسعين سنة !..

ولكن السـؤال هـو : هل يـاتـرى تختلف.. بما فيـه الكفايـة يـا تـرى سيستغنى الانجليز حقا، عن أى دروس جديدة ؟

ان الازمة التى افتعلوها منذ يومين حول متحف مورهاوس لا تبشر بخير!
على أى حال.. ليس المهم هو سياستهم. أن المهم هو سياستنا ! سياستنا التى اصبحت رمزا للاستقلال والكرامة الوطنية فى جميع انحاء العالم !..

لقد كان تولستوى يقول: ان الشعب الذى يلوم دولة أخرى لانها تستعمره.. كالسكير الذى يلوم أصحاب الخمارات لانهم يبيعون الخمور!! انه هو الذى يستطيع أن يمتنع عن شرب الخمر.. وبذلك يغلق الخمارات !.

ولا شك أن سياستنا اغلقت عددا هائلا من الخمارات فى الشرق العربى.. وسوف تغلق الباقى !!.

السفر إلى القدر

الأقمار الروسية بدأ صنعها سنة ١٩٢٤ !!

أعتقد أن هذه القصة جديرة بالقراءة والتأمل !

فلأول مرة ، نشرت الصحافة الروسية جانبا من قصة اختراع الصواريخ والأقمار التى بهرت العالم فى السنتين الاخيرتين.. وقد ظهر منها أن هذا العمل العلمى الصامت قد بدأ منذ سنة ١٩٢٤ »

ففى سنة ١٩٢٤ أنشأت الحكومة الروسية «معهد الدراسات العليا للاتصال بين الكواكب».

وفى سنة ١٩٢٨ أسست الحكومة ، فى مبنى قلعة «بيتر وبرل» القديمة ولنينجراد ، أول معمل للمواد الكيميائية ، التى تستخدم فى وقود الصواريخ .

وفى سنة ١٩٣١ ، أنشأت الحكومة أكثر من مركز دراسى للصواريخ فى أنحاء متفرقة ، بدأت باجراء بعض التجارب بالفعل ، ثم تم تجميع المراكز فى مركز واحد كبير فى موسكو.

وقد سردت مجلة «زناميا» الروسية ، التى نشرت هذه المعلومات .. أسماء عدد كبير من العلماء الذين كان لهم الفضل فى تجارب الصواريخ الأولى ، والمحركات النفاثة ، والصواريخ ذات المرحلتين .. ومنهم علماء ماتوا فى سنة ١٩٣٠ وسنة ١٩٣٣.. ومنهم علماء مازالوا يمارسون نشاطهم إلى الآن..

وقالت الجريدة إن العالم «ميركولوف» سجل نصرين علميين هامين فى

صنع الأقمار والصواريخ سنـة ١٩٤٥ ، وانه قام بأول تجربـة للصواريخ ذات المرحلتين فى مايو سنة ١٩٣٩ !.. وهذا العالم هو الرئيس الحالى لمجلس الأبحاث الصاروحية فى روسيا !..

ما هو مغزى هذه المعلومات ؟.

المغزى الأول ، هـو أن روسيا بدأت هـذه الأبحاث العلمية المترفـة ، منذ سنة ١٩٢٤ .. أى فى نفـس سنوات فقرهـا .. فى السنوات التى كـانت تبحث فيها عن لقمـة العيش الجافة لسكانها.. وهذا إيمان عظيم بـالعلم وبالبحث العلمى .. وبأنه هو المستقبل !

والمغزى الثانى ، هو الصمت الطويل ، وعدم التسرع بالدعاية حول هذه الدراسات العلمية الهامة.

قال اديناور : إن اليهود هم أول من يعرفون عواطفي نحوهم! لقد أفلست أسرتي خلال حكم هتلر وكان اثنان من اليهود هما اللذين مدا يد المساعدة لنا! إنني عقدت اتفاقية التعويضات الألمانية مع اسرائيل كي أعلن للعالم أن الألمان لم يعودوا يكرهون اليهود!

وقد سئل اديناور كيف سيقاوم موجة النازية الجديدة فقال: علاجها في يد الناس! إذا رأيتم شخصا يرسم شارة النازية فاضربوه! اضربوه «علقة» تجعله يتوب! لقد وضعتني النازية على قائمة الإعدام ثلاث مرات ولكنني نجوت بمعجزة!

لكن المسألة ليست بهذه البساطة!

إن اسرائيل تستغل هذه الظاهرة لحسابها. وقد قبض في نيويورك على شاب يرسم شارة الصليب المعقوف وإذا به طالب يهودي! فإذا كان بعض النازيين قد رسموها حقا في ألمانيا.. فعملاء الصهيونية ينشرونها في كل مكان.. لأسباب سياسية كثيرة..

وبريطانيا تستغلها ضد اديناور لأنها تختلف معه حول سياسته في السوق الأوروبية المشتركة وفي مشكلة برلين..

حكاية اضطهاد اليهود .. والنازية الجديدة

أخبار اليوم .. في :

٢٣ / ١ / ٦٠

واليمينيون يتهمون الشيوعيين بافتعالها لكى يسيئوا إلى سمعة ألمانيا الغربية. والشيوعيون يتهمون اليمين بأنهم يشجعون الحركات النازية الجديدة الخطيرة.

فما هى الحقيقة؟..

وأين نحن من هذه الحقيقة؟ مادام كل ما يتصل باليهود وباسرائيل له انعكاس علينا من قريب أو بعيد؟

وما علاقة هذا كله باليهود.. واليهودية.. واسرائيل؟

قتل المسيح !!

إن كراهية اليهود، فى العالم المسيحى قديمة، فى حين لم تكن هناك كراهية قديمة بين اليهود والمسلمين، ولا بين اليهود والعرب، لأن العرب أغلبهم مسلمون.

وسبب كراهية العالم المسيحى الغربى لليهود .. يرجع إلى الدين، فاليهود هم الذين قاوموا المسيح واضطهدوه وتآمروا عليه. وفى التاريخ المسيحى أن اليهود هم الذين قتلوه وصلبوه! وهذه قصة يقرأها كل تلميذ مسيحى فى كل مكان من العالم خصوصا إذا كان كاثوليكيا وتستطيع أن تحس هذا بوضوح فى روما بلد البابا.. وعاصمة الكاثوليكية! وتستطيع أن تحسه بوضوح أكثر إذا علمت بالجهود الجبارة التى تبذلها اسرائيل لكى تجعل الفاتيكان يعترف بها!

والمؤرخ اليهودى الفرنسى جول إيزاك» يقول: إنه من المألوف إذا طلب طفل يهودى فى المدرسة من طفل مسيحى أن يلعب معه أن يرد عليه الطفل المسيحى قائلا: كلا لأنكم قتلتم المسيح!

وقد روى لى شاب إيطالى أنه كان يسكن وهو طفل مع أهله فى عمارة كبيرة فى روما..وفى الدور الأول من العمارة كانت تسكن أسرة يهودية.. فكان أهله يقولون له: «إياك أن تعرف سكان الدور الأول اليهود أو تدخل شقتهم.. والا خطفوك وذبحوك كما فعلوا بالمسيح! وأنه عاش سنوات يسرع فى صعود السلم عندما يعبر الدور الذى تسكنه الأسرة اليهودية!

وبصرف النظر عن الأسباب التاريخية أو الاجتماعية. فمن المؤكد أن اليهود، على مر الزمن، أصبحوا مجتمعا عنصريا مغلقا على نفسه يقف

موقف العزلة، وأحيانا العداء، مع شعور بالتفوق. إزاء سائر أجناس الأرض وشعوبها..

وهذه النزعة العنصرية، تبلورت فى شكل سياسى عنصرى سافر بظهور الحركة الصهيونية..

إن الحركة الصهيونية لا تؤمن بأن الناس كلهم سواء. وبأن كل إنسان ينتمى إلى الشعب الذى ولد فيه ويعيش فيه. إنما تؤمن بأن هناك صفات خاصة تجمع بين اليهودية كعنصر واحد من دم واحد وعرق واحد وأصل واحد وأن الرابطة بين اليهود أسمى من رابطة الوطن أو أى رابطة أخرى.. ولذلك فهى تدعو إلى إقامة وطن قومى يكون سكانه يهودا وشعبه يهودا وجنسيته اسرائيلية!.. ومعنى ذلك أيضا أن اليهودى فى ألمانيا أو فرنسا أو أمريكا يشعر بولائه الأول لدولة اسرائيل. وليس لألمانيا أو فرنسا أو أمريكا!

ولا يجب أن ننسى أن الحركة الصهيونية ولدت فى أوروبا ولم تولد فى البلاد العربية. انها وجدت فى أوروبا بالولادة..ولكنها وجدت فى الوطن العربى بالغزو الخارجى والهجرة والسبب هو أن كراهية اليهود لم تكن موجودة بين العرب..فلم تنجم عندنا حركة صهيونية متعصبة، كما نجمت فى أوروبا.. ولكنها جاءت بالهجرة والغزو مع اليهود الذين عاشوا فى أوروبا وتربت عندهم عقدة الغذاء والكراهية والتعصب العنصرى هناك.. وبن جوريون وموشى ديان وكل أقطاب اسرائيل ليسوا من أبناء فلسطين ولكنهم مهاجرون من روسيا وبولندا وألمانيا وغيرها! إنما ولدت كراهية الصهيونية عندنا من حضورها إلى بلادنا واغتصابها فلسطين لاقامتها وطن عنصرى على أشلاء شعب عربى!

ومن الأشياء الطبيعية والمنطقية أن ظهور حركة عنصرية لابد أن يؤدى إلى اصطدامها بحركات عنصرية أخرى. لماذا كان هناك شعب يزعم أنه أرقى الشعوب وأنقاها.. فمن البديهى أن يصطدم مع أى شعب آخر يقول أنه أرقى الشعوب وانقاها!

ومن هنا.. كان اصطدام اليهود بالحركة العنصرية الألمانية، أى النازية أمرا طبيعيا بل وحتميا!..

إن النازية كانت تقوم على أساس أن الألمان عنصر ممتاز خلق لكى يسود ويقود سائر الشعوب والأجناس. والألمانى بناء على هذه الفكرة يجب أن يكون من سلالة ألمانية طاهرة لم تلوث بأى عنصر آخر. ولذلك كان أعضاء فرق الشباب الهتلرى مثلا.. إذا أراد واحد منهم أن يتزوج، فيجب أن يحصل على موافقة الحزب على زواجه. وكان الحزب يتحرى عن الزوجة ويتعقب أجدادها وسلالتها لكى يتأكد من أنها من سلالة ألمانية سليمة قبل أن يوافق على أن تتزوج أحد أعضاء فرق الشباب الهتلرى!

واليوم.. نرى اسرائيل تقرر أن الاسرائيلى يجب أن تكون أمه اسرائيلية. وأم أمه اسرائيلية.. لكى يثبت أن دمه يهودى خالص!

الاصطدام

هذه هى الصهيونية .. وهذه هى النازية!

دعوتان تقومان على نفس الأساس.. لذلك فهما تتصارعان وتتبادلان أبشع العداء!

والتاريخ يقول: إن الصهيونية ظهرت قبل ظهور النازية! وإذا كان النازيون قد ذبحوا اليهود وليس اليهود هم الذين ذبحوا النازيين.. فهذا لا يرجع إلى أن الصهيونيين طيبون والنازيين رديئون.. ولكن يرجع إلى أن النازيين الألمان كانوا أقوى وأكثر من اليهود ولو تصورنا أن وضع القوة كان عكسيا لقام الصهيونيون بنفس المذابح ضد النازيين.

هل هذا دفاع عن النازية؟

كلا بالطبع. فالنازية صفحة سوداء فى تاريخ الفكر العالمى والحضارات العالمية. ولكن الصهيونية أيضا صفحة سوداء وكل منهما تستند إلى نفس المنطق والفلسفة العنصرية المقيتة التى يجب محوها من الأرض. وهذه نقطة هامة جدا، علينا أن نوضحها لأنفسنا وللعالم جيدا.. حتى لا تحاول اسرائيل الاستفادة من سخط العالم على النازية وعدائه لها! وحتى لا تبدو أمام العالم كأنها نقيض النازية وعكسها.. والواقع أنها تقاتلها لأنها شبيهتها ومنافستها!!

وليس معنى هذا أن النازية ظهرت نتيجة لظهور الصهيونية والتعصب اليهودى العنصرى. ولكن النازية عندما وجدت وظهرت.. كان

طبيعيا أن تصطدم باليهود.. للأسباب التى سلف ذكرها..

ولكن ظهور النازية يرجع إلى أسباب كثيرة، بعضها خاص بألمانيا نفسها، وبعضها الآخر خاص بتطورات المجتمع العالمى بوجه عام..

فالألمان - باستثناء روسيا التى ظلت أوروبا تعتبرها دولة آسيوية إلى عهد قريب - وجدوا أنهم أكبر شعب فى القارة الأوروبية كلها.. وهو شعب غنى ونشيط منتج، قوى، ميال للانتظام.. ومع ذلك فقد تأخرت نهضة ألمانيا السياسية زمنا طويلا، بحكم تمزقها إلى ولايات كثيرة، وبحكم تحالف سائر دول أوروبا على منع وحدة ألمانيا خوفا منها. فبريطانيا والنمسا وفرنسا وروسيا تحالفت طويلا لمنع وحدة الدويلات الألمانية فى دولة واحدة. وكل هذا من شأنه أن يخلق حركة قومية متعصبة كرد فعل، وقد حققت ألمانيا وحدتها فعلا بالحرب على يد «بسمارك» حاربت امبراطورية النمسا ثم امبراطورية فرنسا قبل أن تحقق وحدتها كشعب، فظلت هذه الروح كامنة فى نفوس كل هذه الأطراف زمنا طويلا.

يضاف إلى ذلك أن الثورة الصناعية عندما اكتملت فى ألمانيا وأصبحت قوية قوة هائلة.. وجدت أن بلادا أخرى قد سبقتها فى مجال التطور الطبيعى للرأسمالية فى ذلك العصر، وهو الاستعمار.. فبينما كانت بريطانيا وفرنسا وروسيا وهولندا وبلجيكا تمرح فى مستعمرات شاسعة، كانت ألمانيا محرومة الا من القليل، فلهذا تفاقم العداء بينها وبين هذه الدول وانفجر هذا العداء فى الحرب العالمية الأولى.

والإذلال الذى أنزله الحلفاء بألمانيا بعد الحرب الأولى، هو الذى أعطى شهادة الميلاد لحركة عنصرية أقوى وأعتى، إذ ظهر هتلر على مسرح السياسة الألمانية برسالة أساسية هى استعادة الأراضى المفقودة من ألمانيا.. ثم ما تلا ذلك من نشر دعوة التفوق الألمانى ونقاء العنصر الألمانى والديكتاتورية السوداء التى ذبحت من الألمان أنفسهم مثلما ذبحت من سائر بلاد أوروبا.

جعل الوطن كبيرا.. والمواطنين صغارا !

لقد قال المؤرخون عن «بسمارك» الذى حقق وحدة ألمانيا: أنه جعل ألمانيا كبيرة.. والألمان صغارا!

وبنفس المنطق يمكن أن نقول عن هتلر والنازية: انه جعل ألمانيا مخيفة.. ولكنه جعل الألمان خائفين!!

وقد اندثر هتلر..

فما الذى بعث النازية اليوم؟..

عندما كنت فى فرانكفورت ـ المدينة الألمانية الوحيدة التى زرتها ـ كانت المكتبات وكانت أكشاك الصحف مليئة بالكتب التى تهاجم النازية والهتلرية وتصور فظائعها وجرائمها! لا توجد واجهة مكتبة أو كشك صحف تخلو من كتاب عليه رسم جماجم وخرائب ونيران وفوقها عنوان عن النازية أو الهتلرية!

ومع ذلك فالمراقبون الأجانب يقولون أن النازية تبعث فى ألمانية الغربية اليوم

إن ألمانياالغربية تنتشر فيها جمعيات ومنظمات للشباب وللطلبة.. منظمات تظهر عليها بوادر النازية.. فأعضاؤها يلبسون الأحذية الطويلة وقمصانا عسكرية وأحيانا خناجر كخناجر الكشافة! والألمانى يقبل بطبيعته على من ينظمه فى طوابير واستعراضات وفرق ترفع الرايات وتلبس الخوذات وبعض هذه الجمعيات تنظم مواكب بالمشاعل على الطريقة النازية! وفى حانات البيرة ظهر من يسكرفيصيح: « عاش هتلر » ولو حكم عليه بالحبس سنة!..

وبعض هذه المنظمات يحمل أسماء قادة الحرب الأخيرة من الجانب الألمانى مثل «جودريان» و«دونيتز».. ومنذ بضعة شهور فوجىء الناس برجال وشباب يملأون بعض الحانات يغنون ويشربون ويتبادلون التحية.. ثم ظهر أن اليوم هو ٢٠ ابريل.. عيد ميلاد هتلر!!

وبعض زعماء هذه المنظمات بدأوا يصبحون فى مصاف الزعماء البارزين الذين لهم أتباع وعابدون! كل واحد منهم يرشح نفسه لأن يكون هتلر آخر.. ولأن يكون نجما عالميا خلال سنوات قليلة مثل: جنترهيلز وألفريد زيتزمان.. وبيتر برناو وكل منهم كان من أعضاء فرق العاصفة الهتلرية القديمة!..وفى نفس الوقت تقول التقارير الألمانية أن بين كل عشرة مدرسين يوجد ثلاثة على الأقل يؤمنون بالنازية لأنهم من تلاميذها

القدامى.. ودروسهم للصبيان والشبان مشحونة بالدعاية الظاهرة والخفية للنازية وهتلر..

فكيف يعتنق عدد كبير من شباب ألمانيا مثل هذه الفكرة النازية العنصرية المتعفنة، رغم الدعاية المركزة ضدها؟

هل الشعب .. كله مجرم !

ربما بسبب هذه الدعاية المركزة ذاتها!..

فبعد الحرب الأخيرة، وقف كل الحلفاء من الشعب الألمانى موقف الأساتذة الذين يريدون تأديب الشعب الألمانى وتهذيبه. وكان هناك اتجاهان،اتجاه يحاول تصوير المأساة كلها لألمانيا على أنها جريمة حزب معين وزعيم معين هو الذى جر شعب ألمانيا إلى هذا الموقف. واتجاه آخر يحاول أن يجعل الجريمة جريمة الشعب الألمانى كله.

ولا يوجد شعب على وجه الأرض يمكن أن يقبل فكرة دمغه ـ كشعب ـ بالاجرام، ولو فترة قصيرة جدا من حياته!.. وهذا الأسلوب لا يؤدى إلا إلى الاستفزاز، واستثارة كوامن الكبرياء خصوصا فى شعب متقدم ممتاز فخور كالشعب الألمانى.. لا يمكن أن يقبل طويلا أن يقف بين الأخرين موقف المذنب الخاطىء الذى يجب أن يؤكد توبته كل يوم.

ونجد أن صحافة بريطانيا عادت تتجه هذا الاتجاه، أى اتجاه إدانة الشعب الألمانى كله، لأن بريطانيا مختلفة مع ألمانيا اختلافا شديدا فى الاتجاه السياسى والاتجاه الاقتصادى فى أوروبا... فسياسة ألمانيا تحول دون إلغاء خطر الحرب بالتفاهم مع روسيا فى أوروبا وألمانيا عن حجر الأساس فى السوق الأوروبية المشتركة التى تهدد بطرد الاقتصاد الانجليزى من القارة الأوربية!

وقد أشارت الصحف الانجليزية من جديد إلى قصة معهد الوثائق الأمريكى الذى يشغل بيتا فى ضواحى برلين. ان هذا القصر فيه كل أوراق وأرشيف الحزب النازى، وقد سقطت فى يد الجيش الأمريكى قبل أن تحرق.. وهذه الوثائق تضم أسماء عشرة ملايين ألمانى وألمانية كانوا أعضاء فى الحزب النازى. وتضم كل أوراق المحاكمات الجائرة التى أعدم فيها ٦٤ ألف مواطن خلال حكم هتلر! وهذه الوثائق توضع عليها حراسة

مسلحة قوية، ولا يسمح لأى مخلوق بـالاطلاع عليها إلا بإذن من حكومة أمريكا أو من حكومة ألمانيا!

إن الصحف الانجليزية تطالب بنبش هذه الوثائق... وبكشف كل ر جل أو امرأة أو شـاب أو فتاة كـان عضوا فى حـزب هتلر.. وكل قـاض حكم فى قضيـة من قضايـا هتلر السيـاسية.. إلى آخـره! ومعنى هذا إدانـة الشعب الألمانى كله! لأن الشعب كله كـان خاضعا بطريقـة أو بأخرى لحكم هتلر، وكـان مضـطرا أن يعيش فى مـوكبـه شبـان وجنـود وضبـاط وقضـاة ومحامون.

ثم أن الشعب الألمانى يرى أن هؤلاء الحلفاء الـذين يهاجمونه ويدمغونه بـالجريمـة، ليسوا مـلائكـة وأن أيـديهم جميعـا ملـوثة بـدمـاء شعـوب المستعمـرات! انهم يحمـون الحرب الاستعماريـة فى الجزائر والتفـرقـة العنصرية فى أفـريقيا ثم أنه إذا كـان الألمان قد دمروا وقتلـوا فى البلاد التى احتلوهـا، فإن الحلفاء قد دمـروا ألمانيا تدميرا وشردوا أهلها تشريـدا. وهذا كاف لكى ينتهى الحسـاب! وإلقاء كل المسئـولية فى الحرب على ألمانيـا فيه تجاهل للحقيقة الانسـانية وهى أن الحرب كانت حربـا استعمارية إلى حد ما مـن الطرفين.. حـرب نظامين رأسماليين يتنـافسان على سيـادة العالم، فماكان يخطـر ببال انجلترا وفـرنسا، أن تنتهى الحرب بتشـديد قبضتهما على المستعمرات واحتكارهما للأسواق.

ولاشك فى أنه يضاف إلى هذه الأسباب النفسية سبب آخر أساسى. هو أن تقسيم ألمانيـا يشعـر الشعب الألمانـى بهوان عميق! فبرغم كل النجـاح الـذى أحـرزتـه ألمانيـا بعـد الحرب من جـديـد فإن استمـرار تقسيمهـا وتوزيعهـا وتبعيتها يجعل الألمانى يشعر أنه مـازال يعيش فى مستوى أى مواطن من أى وطن آخر.

وهـو نفس الموقف النفسى للألمانى فى الفترة التى ظهـر فيها هتلـر لأن هذه الظروف كلهـا تؤدى إلى رد فعل حتمى فى نزعات قومية متطـرفة تقوم على العدوان ومقابلة الاحتقار بالاحتقار والاستعلاء بالاستعلاء!

كل هذه الأسباب.. النفسية والسياسية.. توجد تربة خصبة لكى تزدهر فيهـا بعض بذور النـازية فى نفـوس الشباب الألمانى! إن شبـاب أى شعب

يحب مجد بلاده ويأبى إذلالها! وإذا اتجه حب المجد وجهة خاطئة.. كانت الكارثة!

والحل العميق لهذه المشاكل ليس فى تطهير المدارس من المدرسين ولا فى اعتقال هؤلاء الشبان كما بدأت حكومة ألمانيا تصنع..

وانما الحل هو الحل السياسى الكبير، هو إنهاء وضع ألمانيا الشاذ والعمل على توحيدها. ونشر منطق من السلام على أوروبا.. يجعل أى نزعة عدوانية غير ذات موضوع!

وأنه لمن المهم استكمالا للصورة أن نذكر أن هذه النزعات النازية اليمينية، قد تكون اشتدت فى ألمانيا نتيجة أيضا لظهورها فى بلد مجاور ملاصق، هو فرنسا! فالعصابات السرية الإرهابية فى فرنسا.. والجمعيات الفرنسية التى تتعقب الجزائريين وتقتلهم فى ألمانيا نفسها.. وخطر استيلاء فرق الباراشوت على الحكم..وظهور نعرة عظمة فرنسا وقيادتها لأوروبا ورسالتها الخالدة.. كل هذه أشياء سوف تحرك ولاشك عوامل المنافسة التقليدية بين البلدين. وان كان القادة الرسميون مثل ديجول واديناور على وفاق!..

عواطف .. وتبرعات !

ونعود إلى اليهودية والصهيونية!

إن اليهودية فى ألمانيا بالذات لم تعد مشكلة!

ففى أيام هتلر كان اليهود فى ألمانيا يحسبون بالملايين..وكان عدد اليهود فى ألمانيا الغربية ٤٣ ألفا فقط فى شعب تعداده أكثر من خمسين مليونا!

وعلى العكس .. فقد زاد عدد اليهود زيادة كبيرة فى أماكن أخرى.. ففى الولايات المتحدة خمسة ملايين وفى الاتحاد السوفيتى ثلاثة ملايين وفى بريطانيا نصف مليون وفى فرنسا ٢٢٠ ألفا وفى رومانيا ١٨٠ ألفا وفى المجر ٨٠ ألفا وفى استراليا ٤٣ ألفا!

فعدد اليهود فى ألمانيا الغربية حين ذاك أقل عددا وأقل نسبة إلى عدد السكان! ومركز الثقل اليهودى لم يعد فى ألمانيا..

ولكن الصهيونية العالمية.. اقتنصت هذه البادرة الصغيرة فى ألمانيا..

بادرة ظهور بعض منظمات نازية الطابع.. لكى تعيد استثمار القصة القديمة فانطلقت القوى الصهيونية إلى البلاد الأخرى تثير الخواطر، وتزيف العلاقات كمحاولة لاستعادة عطف الرأى العام العالمى.. وهذا يفيدها فى خلق نوع من الالتفاف العاطفى والمعنوى حول اسرائيل من جهة ورفع سيل التبرعات والمساعدات لها من جهة أخرى.

ونحن الآن فى «سنة اللاجئين» التى نظمتها الأمم المتحدة: ولعل اسرائيل تريد أن تجر اهتمام العالم بعيدا عن اللاجئين العرب.. بقصص وأوهام جديدة عن اضطهاد اليهود الذى يجعلهم ـ فى كل مكان من العالم ـ بمثابة اللاجئين!

ولابد أن نرد على هذا بدعاية ضخمة لقضية اللاجئين الذين شردتهم اسرائيل والحركة الصهيونية. لكى تظهر الحركة الصهيونية أمام العالم على حقيقتها.. قاتلة، وليست شهيدة.

أعجب كتاب فى العالم !! المخابرات الروسية والأمريكية تشتركان معاً فى تأليفه !

أخبار اليوم .. فى : ٦/٢/٦٠

«لويس أراجون» هو أكبر أديب شيوعى فى فرنسا. وهو أعظم شعراء فرنسا فى ذلك العصر ومن أبرز الأسماء الادبية فى أوروبا بوجه عام ..

و «أندريه موروا» هو أكبر أديب فرنسى يؤمن بأمريكا وبالحضارة الأمريكية . وهو عضو فى الاكاديمية الفرنسية .. ومؤلف عدد من أعظم كتب التاريخ عن دزرائيلى وفولتير وفلمنج وغيرهم .. أراجون عمره ٦٢ سنة .. وأندريه موروا عمره ٧٢ ..

وقد عقد الاثنان أعجب وأهم اتفاق ثقافى فى هذا العصر .. وكانت من ورائهما الحكومتان السوفيتية والأمريكية ...

لقد اتفق هذان النقيضان على أن يؤلفا كتابا واحدا ضخما عن تاريخ أمريكا وتاريخ الاتحاد السوفيتى منذ سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٦٠ ...

سيطير أراجون إلى موسكو ليطلع على كل الوثائق الممكنة، ويقابل كل الشخصيات السوفيتية القديمة والشابة، وليكتب خروشوف مقدمة الكتاب .. وسيطير أندريه موروا إلى أمريكا لنفس الشىء ، وليكتب رئيس الجمهورية الأمريكية المقبل مقدمة ثانية للكتاب، لان الكتاب لن يظهر قبل سنة !.

وكل من الاديبين الكبيرين يعرف تاريخ البلد الذى يؤمن به جيدا .. وزاره أكثر من مرة ، ويعرف عن عقليته ونفسيته وفلسفته أكثر من سواه !

وكل ماسيكتبه موروا عن أمريكا سيراجعه ويوافق عليه اراجون الشيوعى ، وكل ماسيكتبه اراجون الشيوعى عن الاتحاد السوفيتى سيراجعه ويقره اندريه موروا !..

وسوف يكون الكاتبان على اتصال دائم، بحيث يكتب الجزءان وكأنهما خطان متوازيان ..

إن المقصود من هذا المؤلف الضخم الذى سيصل إلى ألف صفحة، هو المساهمة فى جو التعايش السلمى الذى بدأ العالم يتجه إليه ! ان رجال السياسة يبذلون جهدهم ، ورجال العلم يبذلون جهدهم .. ولابد أن يبذل رجال الأدب والفكر والفن جهدهم أيضا ..

إن خطة الكتاب هى إبراز الجانب الايجابى من تاريخ الاتحاد السوفيتى وأمريكا على السواء .. ومساهمتهما معا فى تغيير حياة العالم ودفعها إلى الأمام .. فى ميدان السياسة والعلم والفلسفة وفى كل ميادين الفن من رسم ورقص وموسيقى وشعر وأدب !

وقد اتفق الطرفان على أن يتجنبا الاتهامات التقليدية التى توجهها كل منهما إلى الأخرى .. وأن يهتما بإبراز كل ماهو إيجابى من وجهة نظر الفريقين !

وقد تم الاتفاق بالفعل على نشر الكتاب باللغات الفرنسية والإنجليزية والروسية فى وقت واحد . ثم على ترجمته إلى ١٧ لغة أخرى بعد شهور قليلة من صدور الطبعة الأولى . وأعلن هذا الاتفاق فى صحف موسكو وواشنطون وباريس !

وقد نشر الخطاب الذى أرسله اندريه موروا إلى «آلن دلاس» مدير المخابرات الأمريكية للإتفاق معه على المساعدة فى هذا الكتاب ، وقد جاء فيه: «ان هذا العمل سوف يساعد على خلق جو من السلام .. إذ سوف يثبت انه بالرغم من الخلافات العميقة بين الحضارتين ، فان بينهما أشياء مشتركة كثيرة ، وانهما تسلكان طرقا متشابهة .. ومن الممكن جدا أن تجدا أرضا مشتركة !!»..

والمخابرات الأمريكية والمخابرات السوفيتية على السواء .. سوف تزودان المؤلفين بكل المعلومات الممكنة عن كل المراحل التاريخية للأحداث الهامة !!

إن هذا الكتاب الذى يمكن أن يوصف بأنه «مؤتمر اقطاب أدبى» سيكون ولاشك حدثا فكريا عظيما .. بل وحدثا سياسيا أيضا !

لقد انعقد مؤتمر دولى للمدرسين مرة ، وانتهى المؤتمر إلى حكمة تقول : اننا لو درسنا فى كل مدارس العالم كتابا واحدا للتاريخ ، لما قامت الحروب !

وهذا صحيح إلى حد بعيد !

ان كل دولة تدرس لتلاميذ مدارسها تاريخا ينظر إلى الدنيا من وجهة نظر واحدة .. تاريخا يثبت للتلاميذ ان بلادهم أعظم البلاد ، وانها على صواب دائما ، وان ما عداها من البلاد لا تساوى شيئا ! فالتلميذ الهندى مثلا يدرس ان الإنجليز احتلوا بلاده وأخروها واضطهدوها .. فى حين ان التلميذ الانجليزى يعلمونه إن انجلترا كانت فى الهند لمجرد تمدين شعب الهند وترقيته .. وان الدماء التى أريقت فى الهند كانت فى سبيل نشر الحضارة !

ولو أن التلميذ الإنجليزى تعلم الحقيقة .. لو انه تعلم ما قدمته انجلترا للعالم حقا وماأخذته من العالم .. لو انه درس حسنات انجلترا وسيئاتها .. فانه بالتأكيد يشب بعقلية ونفسية مختلفتين تماما ! وهكذا فى كل القضايا التاريخية بالنسبة لكل البلاد!!

ولكن هل يمكن تأليف هذا الكتاب يوما ؟.

ليس قبل قرن كامل على الأقل ! ولكن كتاب «موروا وأراجون» المنتظر على أى حال بداية رائعة !!

أفـــريقيــا

زعماء أفريقيا قادمون إلى القاهرة !

المؤتمر المقبل للشعوب الافريقية ، سوف ينعقد فى القاهرة ..

هذا هو القرار الذى اتخذه المؤتمر الذى انعقد أخيرا فى تونس . وقد اتخذه المؤتمر بالاجماع . واتخذه دون اقتراح من وفد الجمهورية العربية المتحدة . بل ان الوفود الأخرى هى التى طلبت ذلك .. إذا وجهت إليها دعوة من القاهرة . وقال محمد فؤاد جلال رئيس وفد الجمهورية العربية : ان

القاهرة لا تفرض نفسها .. ولكن أبوابها كانت وستظل دائما مفتوحة لافريقيا !

وهذا القرار يضع خاتمة حاسمة ، لكل المناورات والمؤتمرات التى تعرضت لها الجمهورية العربية فى مؤتمرات الشعوب الافريقية ..

إشـــــاعات !

فمنذ ظهرت فكرة مؤتمر الشعوب الافريقية ، بدأت القوى الاستعمارية تهرش رأسها وتفكر : كيف تبعد الجمهورية العربية عنه ؟ .. هذا الذى يظهر لهم فى البلاد العربية وفى آسيا .. كيف يمكن إبعاده عن أفريقيا السوداء ؟..

ومع كل مؤتمر ، كانت تنطلق حرب اشاعات وحرب أعصاب.

وكان القصد بهذا الكلام اثارة الموجدة فى قارة حافلة بالزعامات الطموحة الجديدة . واثارة الشك فى نفوس الافريقيين، النفوس التى علمها الاستغلال البشع القديم أن تشك وترتاب قبل أن تثق وتطمئن !..

وفى أروقة كل مؤتمر ، كنا نجد على الدوام وجوها غريبة ، تبث دعوات غريبة .. تبثها همسا ، وتنشرها تسللا ، وفى الظلام ..

القومية العربية .. والقومية الافريقية !

ظهرت دعوة تقول : ان العرب ليسوا أفريقيين ! انهم شعب من الغزاة جاءوا إلى أفريقيا كما جاء الفرنسيون والإنجليز بعد ذلك !

ودعوة تقول ان القومية العربية تتعارض مع القومية الافريقية .. وعلى العرب ان يختاروا لهم إحدى القوميتين !

ودعوة تقول : ان أفريقيا الحقيقية هى أفريقيا السوداء .. أفريقيا التى تقع جنوب الصحراوات الكبرى .. أما شمال أفريقيا ، فهو أقرب إلى سائر بلاد حوض البحر المتوسط !

ولكن هذه الدعوات المسمومة اندثرت كلها الواحدة بعد الأخرى . وفى هذا المؤتمر الأخير قضى عليها القضاء المبرم.

إن الافريقيين هم كل من يسكنون أفريقيا كوطن دائم أصيل لهم .. مهما كان لونهم أو أصلهم.

والقومية العربية هى إحدى القوميات التى تسكن أفريقيا .. كالقومية

الاثيوبيــة والقوميــة الصــومالية مثــلا .

أما الصـحراء .. فإنها لم تفصل أفريقي أبدا . ففى هذه الصـحراء عاشت حضــارات وتنقلت ثقافــات وتجارات . وفى الســودان الفرنسى والسنغــال يتكلم النــاس اللغــة العــربيــة ، ويرتبطــون فى نفس الـوقت ببـلاد جنـوب الصـحراء مثل غينيا وغانا ..

وقد جاءت فـرنسا وتكفلت بأن تجعل هذه الصحــراء رابطة بين شعوب أفريقيا ، لا فاصلا بينهم .. أو كما قال الأستاذ فؤاد جلال فى المؤتمر الأخير إن فرنسا بمحاولتها تفجير قنبلة ذرية فى الصـحراء الكبرى .. قد جعلت هذه الصـحراء رابطــة بين شعوبها ، فشعــوب تونــس والجزائر والمغرب وغــانا وغينيــا وكل الشعوب المحيطــة بــالصـحــراء تحتج بصوت واحـد ، وتحس بخطر واحد . وتعتبر تلويث هذه الصحراء تلويثا لها جميعا !

بقى شــىء واحد : هل صـحيح ان شعــوب أفريقيا التى مازالت بـدائية ، يجب أن تخاف وجود دولة قوية بينها ، كالجمهورية العربية المتحدة ؟

أبدا ! ان الجمهورية العربية بالعكس ، هى نموذج أفريقى يبعث شعوب أفريقيا على التفاؤل بمستقبلهــا ، انها مثل لما يستطيع أى شعب أن يقوم به إذا سلك سيــاســة التحــرر والتقـدم واستثمار مــوارده بعيــدا عن النفــوذ الأجنبى .

ولهذا .. كان قرار عقد المؤتمر المقبل فى القــاهرة .. بناء على طلب المؤتمر نفسه لا بناء على طلب القاهرة . كان هذا القرار قضاء على كل هذه الدعايات الســابقة ..

وليس هذا هو كل شــىء ..

إن أعداء أفريقيا وأذناب الاستعمار لـديهم أشياء أخرى كثيرة يحاولون بها تمزيق القارة .. مثلا إن أعداء افريقيــا وأذنــاب الاستعمار انجليزية وأما مستعمــرات فــرنسيــة وبلجيكية . وكـل دولة استعماريــة تفـرض لغتهــا وثقافتها .. ولـذلك فاننا نجد ان أفريقيا الســوداء تنقسم إلى فريقين : فريق يتكلم اللغة الفــرنسية وفريق يتكلــم اللغة الانجليزيــة .. والبعض يحاولون تحويل هذا الفارق إلى جدار ضخم يفصل بين الفريقين . مثل آخر ..

إن شرق أفريقيا الـذى يضـم كينيا وتنجانيقا وأوغنــدا وغيرها .. يختلف

فى بعض النواحى عن غرب أفريقيا الذى يضم غانا وغينيا ونيجيريا وغيرها وهنا أيضا يحاول البعض إقامة جدار ضخم يحول دون تعاون الحركات التحررية فى هاتين البقعتين ..

وقد لا يعرف البعض ان أفريقيا ــ بحدودها الحالية التى رسمها الاستعمار ــ تتكون من ٥٦ قطرا ، كل قطر له اسم ونظام ! من نيجيريا التى تضم ٣٥مليون نسمة .. إلى جزيرة سانت هيلانة التى تضم خمسة آلاف ساكن ! وكل الدول ذات المستعمرات تصر على بقاء كل قطر منفصل قائم بذاته .. مهما كان عدد سكانه ومهما كان انفصاله عن جيرانه مصطنعا ..

إن «أفنى» الاسبانية مثلا سكانها ٤٠ ألفا والمفروض أن تكون جزءا من المغرب . و«جامبيا» مستعمرة انجلترا سكانها ٢٧٠ ألفا تقع فى قلب السنغال وسكانها من نفس جنس سكان السنغال ومسلمون مثلهم . وإلى جانب جمهورية غينيا المستقلة توجد «غينيا البرتغالية» وسكانها نصف مليون وغينيا الاسبانية وسكانها ٢٠٠ ألف . والصومال التى ستستقل هذه السنة والتى يقل سكانها عن مليونين إلى جانبها «صومال فرنسى» سكانه ٧٠ألفا و «صومال انجليزى» سكانه ٦٠٠ألف .. ثم هناك مثلا باسو تولاند سكانها ٦٠٠ ألف وبتشوانالاند سكانها ٣٠٠ ألف وسوازيلاند سكانها ٢٣٠ ألفا !..

ومن هذا الوضع الغريب .. انبثقت إلى جانب الدعوات الوطنية المحلية لتحرير كل قطر من هذه الاقطار ، انطلقت دعوات أخرى للوحدة بينها .. أو لتحقيق تضامنها .

فهناك الجامعة العربية .. وهناك مؤتمر الدول الافريقية المستقلة .. وهناك مؤتمر كل الشعوب الافريقية . هناك حركة فى الصومال تدعو إلى توحيد الصوماليات الثلاث . وحركة لتوحيد غانا وغينيا وليبيريا . وحركة لتوحيد السودان الفرنسى والسنغال (وهما مشتركتان فى اتحاد «مالى»).. وهكذا ..

بنك أفريقى !

وليس معنى هذا ان عمليات الوحدة ستتم بسهولة . فالاستعمار ما زال موجودا . والبلاد التى خرج منها الاستعمار ترك فيها أثارا موضوعية

كثيرة يحتاج محوهـا إلى وقت .. والنظم القبلية والعصبيـات المحلية كثيرة . ولكن إذا كـانت مـؤتمرات الشعـوب الافـريقيـة تعبر عن الشبـاب المثقف الصاعد في القارة كلها .. فـان المستقبل ولا شك لحركات الوحدة هذه .. لان شعارات الـوحدة الافـريقية كـانت هي التي تنتـزع في هذه المؤتمرات أكبر كمية من الحماسة والهتاف !

وقد اتخذ مؤتمر الشعوب الافريقيـة عددا من القرارات الخطيرة ، وكلها متأثرة بمنطق توحيد الجهود الافريقية وتنظيمها .

قرار .. بتكـوين اتحاد عام لنقـابات العمال الافـريقية .. وسينعقـد هذا المؤتمر لأول مرة في المغرب في مايو المقبل ..

قرار .. بالتوصية بانشاء بنك أفريقي للتنمية والتعمير (وقد اقترحه وفد المغرب).

قـرار .. بتكوين هيئـة أفريقيـة تتولى دراسـة موارد أفـريقيا الطبيعيـة وطرق استثمارها ..

على أن أروع لحظات المؤتمر كانت دائما عندما يجيء ذكر الجزائر .. أو يقف مندوب الجزائر ليتكلم ..

وقـد وقف مندوب الجزائر مـرة وقـال : إن فرنسـا تحضر ضباطهـا في المستعمرات إلى الجزائر ليتدربـوا على طرق مقاومة الثـورة .. ثم يعودوا إلى سائر المستعمرات الأفريقية مـرة أخرى .. وجيش التحرير الجزائري يعلن أنه مستعد ليستقبل شباب أفريقيا في مـراكز التدريب الخاصة !.. ليتدربوا على طرق مقاومة الاستعمار الفرنسي !.

وهب المؤتمر كله واقفا يهتف ، والدموع في العيون !.

الحكومة الفرنسية تبحث فى القبض على سارتر!

أخبار اليوم .. فى :
٣٠/٤/٦٠

قال لى رئيس تحرير مجلة فرنسية كبرى، طلب عدم ذكر اسمه مقرونا بهذا الكلام: لقد ناقش مجلس الوزراء الفرنسى اقتراحا بإلقاء القبض على الكاتب الكبير بول سارتر. ولكن المجلس عدل مؤقتا عن اتخاذ هذا القرار، خوفا من الضجة الكبرى التى يمكن أن يؤدى إليها مثل هذا الحادث، بسبب شهرة سارتر العالمية، وما يتمتع به من تقدير ضخم فى داخل فرنسا. حتى أنه ليعد أحد المعالم الأساسية لفرنسا المعاصرة!..

أما السبب المباشر الذى جعل مجلس الوزراء الفرنسى يناقش هذه المسألة فهو: أن المجلة السرية التى يصدرها بعض الفرنسيين لتأييد شعب الجزائر نشرت حديثا مع سارتر! كما قيل أن زوجته سيمون دى بوفار، الكاتبة المعروفة، تركت سيارتها عندما سافرت إلى كوبا فى يد بعض الذين يشتبه فى أنهم يساعدون ثوار الجزائر!

وأطلعنى رئيس التحرير على هذه المجلة

السرية التى تؤرق ديجول وحكومة فرنسا وجيش فرنسا.

إن اسم المجلة هو: ..verites pour أى «حقائق لـ...»وهى تطبع فى السر. وامعانا فى الاحتياط، فهى لا تصدر بانتظام..

فقد تصدر مرتين فى أسبوع واحد، وقد تصدر مرة كل شهر.. وهى توزع بالبريد، وتوزع كل مرة من مكان مختلف.. مرة من باريس ومرة من مارسيليا، وهكذا...

والبوليس الفرنسى ومخابرات الجيش الفرنسى تطارد هذه المجلة عبثا. وتحاول أن تقبض على أحد المتصلين بها بأى شكل.. ولما حدث أن نشر فيها حديث صريح لسارتر، طلب البوليس القبض على الكاتب الكبير.. ولكن مجلس الوزراء الفرنسى ارتعشت يداه.. لأن مثل هذا التصرف سيكون بمثابة تفجير قنبلة ذرية أخرى.. فى فرنسا نفسها هذه المرة وأجل اتخاذ هذا القرار! ولكن يظهر أن حكومة فرنسا قد تضطر إلى المضى فى هذا الطريق الشائك. فبعد هذا الحديث بيومين فقط، ألقى البوليس الحربى الفرنسى القبض على الكاتب الفرنسى الكبير جورج أرنو.!

إن جورج أرنو من الكتاب الروائيين الفرنسيين المعروفين. وقد اشتهر منذ سنوات برواية رائعة اسمها «ثمن الخوف»... لم أقرأها ولكننى شاهدتها على شاشة السينما فى القاهرة منذ سنوات، وقد هزتنى يومها فكتبت عنها مقالا طويلا.!

والقصة فيما أذكر تدور فى إحدى المستعمرات الفرنسية فى أفريقيا ... عن اثنين كان عليهما أن يقودا سيارة لورى تحمل مادة متفجرة خلال طريق طويل وعر.. كانت السيارة عرضة للانفجار فى أى لحظة. لو اهتزت أكثر مما يجب أو التهبت تحت حرارة الشمس فوق درجة معينة.. وكان على السائقين أن يواصلا الرحلة بهذا الرعب القاتل ليقبضا أجرهما.. ليقبضا ثمن الخوف!

مؤتمر صحفى سرى!

أما سبب القبض على الكاتب الكبير جورج أرنو، فهو يقودنا إلى سر آخر خطير...

ففى فرنسا الآن جمعية سرية مهمتها مساعدة الشبان الفرنسيين على

الهرب من الجيش الفرنسى، حتى لا يقاتلوا فى حرب الجزائر... بوصفها حربا غير شريفة!

وأحد المسئولين عن هذه الجمعية السرية أستاذ فرنسى للفلسفة، هارب من البوليس، اسمه فرنسيس جينسن..

وقبل أن أصل إلى باريس بيومين، عقد فرنسيس جينسن مؤتمرا صحفيا سريا فى مكان ما من قلب باريس.. أعلن فيه أن الجمعية تواصل نشاطها رغم حملات البوليس والمخابرات الفرنسية. وأنها استطاعت أن تهرب ثلاثة آلاف شاب فرنسى إلى الآن.. وأنها ترجو أن يصل هذا العدد إلى عشرة آلاف فى نهاية هذه السنة!. وأعلن جينسن أخيرا: أن جمعيته تتكون من صحفيين وممثلات وفنانين وكتاب وقسس .. وكلهم ناس يؤمنون بضرورة استقلال الجزائر وإنهاء الحرب فيها. كما أعلن أن جمعيته تجمع من داخل فرنسا مبالغ ضخمة من التبرعات ترسلها إلى جيش التحرير الجزائرى!

ونشر هذا الكلام فى الصحف! وجن جنون البوليس الفرنسى... إذ كيف يعقد جينسن ـــ وهو مختلف عن البوليس هذا المؤتمر فى قلب باريس.. وكيف يصل هذا الكلام إلى الصحف.. دون أن يتمكن من العثور عليه أو على أى واحد ممن شهدوا هذا المؤتمر الصحفى.. أغرب مؤتمر صحفى!

وفجأة، كتب الكاتب الكبير جورج أرنو رسالة إلى جريدة (فرانس بريس) يقول فيها أنه حضر مؤتمر جينسن الصحفى السرى! قال هذا متحديا السلطة، مؤكدا الاتهامات التى كانت تحوم حوله وحول اشتراكه مع هذه الجمعيات السرية...

الهاربون من أزمة الضمير!

كان هذا يوم الثلاثاء الأسبق...

وفى يوم الخميس كان المفروض أن تصدر مجلة (الاكسبريس) ومجلة (فرانس أوبزرفاتير)، وهما المجلتان اليساريتان اللتان تعارضان ديجول وحرب الجزائر بشدة. وفى ليلة الأربعاء احصل الصديق اللبنانى جبران مجدلانى على نسخة من مجلة (الأوبزرفاتير) التى تصدر فى اليوم التالى.. وفيها وجدت مقالا جريئا عنيفا للكاتب (جيل مارتينيه) السكرتير العام

المساعد للحزب الاشتراكى الموحد (وهو حزب جديد يسارى، يقف بين حزب جى موليه والحزب الشيوعى).. وفيه يتحدث الكاتب عن هؤلاء (الهاربين) من الجيش الفرنسى...

وقال (جيل مارتينيه) ما معناه: أن (الهارب) حقا هو ذلك الذى يهرب من الجيش خوفا وجبنا.. أما هؤلاء الشبان فهم ليسوا جبناء، ولكنهم يقاسون من أزمة ضمير قاتلة. انهم يؤمنون بأن حرب فرنسا ضد الجزائر حرب قذرة، حرب غير شريفة، حرب ضد مصلحة فرنسا نفسها... فماذا يصنعون، عندما يبلغون سن التجنيد، وتستدعيهم الدولة للخدمة العسكرية، فى الجزائر هل يذهبون إلى هناك أم يخربون المجهود الحربى؟ هل ينضمون هناك إلى جيش التحرير الجزائرى. انهم يختارون ما هو أخف من ذلك: يتسللون إلى خارج فرنسا.. حيث يعملون أو يواصلون دراستهم أو يعيشون كما اتفق، إلى أن تمر السنوات التى يمكن أن يجندوا فيها... ثم يعودوا! وهذه الجمعية السرية التى يبحث عنها البوليس.. تساعدهم وتسهل لهم ذلك.

وفى صباح الخميس.. ذهبت إلى بائعة الصحف أشترى منها الصحف والمجلات، فعلمت أن البوليس قد صادر مجلتى الاكسبريس والأوبزرفاتير بسبب هذا الكلام!. وبعد مدة عرفت أن بوليس الجيش قد قبض على جورج أرنو!.

وتهمة جورج أرنو، أنه لم يبلغ عن جمعية تقوم بنشاط معاد للدولة، كما ينص القانون! وتهمة مجلتى الاكسبريس والأوبزرفاتير أنهما تحرضان الجنود على الفرار من الخدمة العسكرية! وقد قالت المجلتان: أنهما تنشران معلومات حقيقية فقط، ولا تحرضان على أى شىء!

شهادة لوجه الحق

ان من يرى هؤلاء الرجال، الذين يقومون بهذه الأعمال الانتحارية، لا يملك الا أن ينحنى لهم اعجابا وتقديرا.

فليس سهلا أن يقف حفنة من الناس فى وجه روح وطنية متعصبة تأخذ طابع الغزو والعدوان.

وليس سهلا أن يعمل ناس من أجل هزيمة بلادهم عسكريا.. اقتناعا

منهم بأن هذه الهزيمة أشرف من النصر. وبأن مصلحة الشعب الفرنسى الحقيقية تتطلب انسحابه من القتال.

وليس سهلا أن يقوم فرنسيون بجمع تبرعات للجيش الذى يحارب جيش فرنسا.. وهو جيش التحرير الجزائرى.

انهم بهذا يتحدون كثيرا من القيم التقليدية التى يرتعد الناس عادة خوفا من معارضتها ويقفون فى وجه فاشية عسكرية تزداد كل يوم ضراوة وخطرا..

إن مهمتهم لا تقل صعوبة عن الذين يقاتلون فى قمم الجبال.

وكفاحهم لا يقل شرفا عن القيم الشريفة التى يناضلون من أجلها!

متناقضات باريس

باريس ؟؟

فى اليوم الذى قبض البوليس الحربى فيه على الكاتب جورج أرنو.. كان البوليس الجنائى يبحث عبثا عن العصابة التى خطفت ابن المليونير بيجو واعادته بعد أن دفع ابوه ٥٠ ألف جنيه... وكان الحزب الشيوعى الفرنسى يحتفل بذكرى مرور ٩٠ سنة على ميلاد لينين.. وكانت الصحف تعلن أن موضة الموسم بين الذوات هى اقامة حفلات ساهرة بملابس النوم، بالبيجامات وقمصان النوم، وتنشر صورا كثيرة لهذه الحفلات... وكان مسرح الأوديون يعرض رواية (أرواح ميتة) لجوجول... وكان ديجول فى أمريكا يخطب قائلا: ان مستقبل العالم يتوقف على غرب أوروبا!

كيف تعيش كل هذه الأشياء فى مدينة واحدة؟

هذا هو العجب!

لقد كان سر فتنة باريس دائما هو (التعدد).. اذ يجد فيها الإنسان أقصى ما يريد، مهما كان نوع هذا الذى يريد.. سواء كان يريد علما أو لهوا أو فنا أو فلسفة... ولكن هذا التعدد يصل أحيانا إلى درجة التناقض الحاد، الذى يصنع الأزمة.

إن باريس فى حالة رخاء اقتصادى لم يسبق لها مثيل. قال لى بعض العرب المقيمين هناك انهم يعرفون عمالا يصل أجر الواحد منهم إلى مائة جنيه فى الشهر. وفى إحدى الليالى وقفت أتعشى فى محل صغير رخيص

للسندويتشات وفى مدخل المحل كانت تقف سيدة بدينة شقراء تقشر البطاطس وتقليها. وخرجت من المحل واستندت إلى سيارة «رينو» أنيقة واقفة أمام المحل. انتظر خروج من كانوا معى.. وإذا بالسيدة التى تقشر البطاطس وتقليها تقول لى باسمة: لا تتكىء بشدة على السيارة.. لأنها سيارتى!

العصابات ترتع فى قلب باريس!

هذا الرخاء الذى يخطف اللب، ويذيب مقاومة القيم الشريفة فى نفوس الذين يحرمون منه، خلق حالة من الاجرام، الذى ينتشر على نطاق واسع رهيب...

ففى اليوم الذى وصلت فيه إلى باريس، كانت الدنيا مقلوبة لأن عصابة خطفت طفلا عمره أربع سنوات، هو ابن المليونير بيجو صاحب مصانع السيارات المعروفة بهذا الاسم، وطلبت من الأب أن يدفع لها ٥٠ ألف جنيه مقابل إعادته إليه، وعجز البوليس تماما عن العثور على العصابة. ووقف المليونير أمام التليفزيون يدعو العصابة إلى إعادة ابنه ويتعهد لها بأن ينفذ شروطها ولا يدل البوليس عليها. وبالفعل رسمت له العصابة الطريقة التى يسلم بها النقود. كان عليه فقط أن يقف عند مدخل إحدى العمارات فى قلب باريس وسيأتى من خلفه رجل يقول له كلمة السر، فيعطيه حقيبة فيها نقود، دون أن يلتفت إلى الوراء أو ينظر إلى مندوب العصابة.

ونفذ المليونير الشروط كلها.. بعد أن تعمد تضليل البوليس حتى لا يتابعه فيشك فيه أفراد العصابة. ودفع المبلغ. وبعد ساعات عثروا على الطفل فى الطريق.. تركته سيدة شابة تلبس معطفا رماديا واختفت.

وبالرغم من أن الجريمة تمت بدقة مذهلة، فإن البوليس يرجح أنها من ارتكاب بعض الهواة، وهذا أخطر فإنه يدل على أن الانحراف ليس مقصورا على المجرمين المحترفين وحدهم.

وثارت مناقشة عنيفة فى فرنسا كلها: ان المليونير بيجو مازال يخفى أسرارا من العصابة، وقد رفض أن يعطى أرقام أوراق البنكنوت للبوليس، تماما كما تعهد للعصابة، خشية أن تنتقم منه.. وبعض الكتاب يقولون: إن هذا موقف غير أخلاقى منه.. فهو بسبب خوفه من الانتقام يسهل فرار

عصابة خطيرة تهدد أمن ملايين الأطفال!

وقالت جريدة لومانيتيه لسان حال الحزب الشيوعى: ان المليونير بيجو يستخدم فى مصانعه أكثر من عشرين ألف عامل.. وأنه قد قاسى عذاب الخوف من فقد طفله، يجب أن يكون أكثر شعورا بالظلم الواقع على عمال مصانعه.. الذين يتعرضون كثيرا لهذا العذاب، عندما يمرض أطفالهم ولا يجدون لهم ثمن العلاج والدواء.

وفى اليوم الذى تركت فيه باريس، أى بعد أربعة أيام فقط، صدرت الصحف تروى قصة ثلاثة حوادث وقعت فى عصر يوم واحد. كلها هجوم عصابات مسلحة على صيارفة يحملون مبالغ ضخمة من النقود فى السيارات! وقد تمت الحوادث كلها فى قلب باريس وضواحيها.. وسرق فى الحوادث الثلاثة ما يقرب من ٢٠٠ ألف جنيه.

ولاذت العصابات الثلاث بالفرار.

والحملات على البوليس عنيفة! وفى حادث خطف الطفل، أرادت إحدى الصحف أن تثبت عجز البوليس فأحضرت سيارة سوداء تنطبق عليها أوصاف سيارة العصابة. وأركبت فيها رجلين وامرأة تنطبق عليهم أوصاف الجناة.. وألبستهم نفس الثياب.. وانطلقوا بالسيارة فى جميع أنحاء باريس، التى يبحث فيها ٢٠ ألف جندى بوليس عن سيارة وأشخاص بهذا الوصف، دون أن يتعرض لهم جندى واحد! فالمدينة الكبيرة تبتلع كل شىء!

والموضوع المفضل للقصص والأفلام المحلية هو الشبان والشابات الذين ينزلقون إلى الجريمة، جريا وراء الثراء السريع.. ليقتنوا السيارات ويمارسوا المغامرات والأسفار ويرتادوا الأماكن التى يتدفق منها النور...

وفى نفس هذه الأيام الأربعة التى قضيتها فى باريس، وقع حادث من نوع آخر.. هاجم ثلاثة شبان جزائريين كونستابل بوليس فرنسى وأطلقوا عليه النار فى الساعة الخامسة مساء.. واشتبك رجال البوليس الموجودون فى المنطقة مع الجزائريين الثلاثة فى معركة بالمسدسات.. فقتلوا واحدا منهم.. واختفى الاثنان الآخران..

وقع الحادث فى الساعة الخامسة والنصف عصرا... أى فى ضوء النهار

وقمة الزحام! وانطلقت الصحف الفرنسية تصف كونستابل البوليس بأنه حارس الأمن ورجل السلام! كان الآلاف الذين تراق دماؤهم فى الجزائر من الرجال والنساء والأطفال ليسوا من طلاب الأمن والسلام كأن الحرب فى أرض فرنسا عمل وحشى ولكنها فى أرض الجزائر عمل متمدن.

إفلاس ديجول ؟

والرأى العام الفرنسى بدأ يشير إلى أن حكم ديجول قد أخذ فى الإفلاس! لأن التأييد الذى حمل ديجول إلى الحكم كان مرجعه إلى الأمل فى أنه هو الرجل الذى سينهى حرب الجزائر. ولكن تراجع ديجول الأخير، وتمسكه بضم الجزائر إلى فرنسا.. جعله يبدو أمام الفرنسيين عاجزا هزيلا إزاء المتمردين فى الجيش الفرنسى.. أى نفس الموقف العاجز الهزيل الذى وقفه رجال الجمهورية الرابعة البائدة من قبل!

وقد كتبت منذ بضعة شهور بعد عودتى من تونس، أن ديجول سيلجأ إذا فشلت الحرب إلى تقسيم الجزائر! وبدا هذا الخبر يومها غريبا. ولكن ميشيل ديبريه رئيس وزراء فرنسا تحدث فى الراديو أخيرا وقال: ليعلم الجزائريون أن الاستقلال معناه التقسيم.

والتقسيم ــ فى الواقع ــ معناه أن يستوطن الفرنسيون فى المدن الساحلية الكبرى وفى منطقة البترول، وأن يترك للعرب المناطق الجرداء القاحلة، التى لا تستطيع أن تعيش اقتصاديا بمفردها... كالأردن مثلا!

الهجرة الكبيرة !

وفى هذه الزيارة لباريس تأكد لى مرة أخرى هذا الاتجاه. ومن الدلائل الهامة أن فرنسا تسرع فى استثمار بترول الجزائر إلى أقصى حد. وفى خلال اقامتى فى باريس، أعلن أن الحكومة قد اشترت محطات بنزين شركة كالتكس فى أنحاء فرنسا لكى تحولها إلى محطات تبيع بترول الجزائر، وقد أحدث هذا أزمة شديدة فى دوائر شركات البترول الأخرى التى تستأثر بالسوق، والتى تخشى دخول الدولة كمنافسة لها...

على أننى علمت من بعض الساسة المعارضين لديجول، أن الأحزاب الاشتراكية تؤمن بأنه حتى هذا الحل - حل التقسيم ــ لن ينهى الصراع. كما أنها تؤمن بأن المليون فرنسى فى الجزائر لن يقبلوا مطلقا أن يعيشوا

رعايا فى دولة عربية وبين مواطنين عرب.. بعد أن تعود هؤلاء الفرنسيون أن يكونوا سادة، وأن يكونوا متفوقين.

لذلك.. فقد بدأت بعض الأحزاب الاشتراكية ـ سرا ـ تدرس بدقة كل التفاصيل اللازمة لحل آخر هو: نقل المليون فرنسى من الجزائر وإعادة توطينهم فى فرنسا... أو نقل الذين يرغبون فى الانتقال منهم!

انهم يؤمنون بأن هذا أمر لا مفر منه.. وإن كانوا لا يستطيعون إعلان ذلك للرأى العام فى هذه الظروف!

وهى عملية تحتاج إلى دراسات واسعة من النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية!

وبعد..

فهذه هى باريس، كما وجدتها، خلال أربعة أيام..

نفسية حائرة معقدة. ومتناقضات عنيفة.. وشعب ذكى يعرف أن ذكاءه قد خانه منذ عشرين سنة على الأقل..

وإحساس التفوق على الآخرين يصطدم بالواقع الذى يقول إن الآخرين بدأوا يتفوقون!. وحفنة قليلة من المناضلين البواسل الشجعان.. يحاولون إنقاذ اسم فرنسا وسمعتها فى وجه ظلام كثيف!

رئيس الجمهورية .. وزعيم المعارضة .. والأرملة الطروب !

أخبار اليوم .. فى :
١٨ / ٦ / ٦٠

أعلن أخيرا فى أمريكا، أن «جائزة بوليترز» قد منحت هذه السنة للرواية الضخمة Advise and consent وترجمتها الحرفية (النصيحة والموافقة) .

وهذه الرواية الفائزة... موضوعها : الحياة السياسية فى واشنطون. حوادثها تدور فى واشنطون بعد سنتين ، أى فى سنة ١٩٦٢ ، أبطالها هم رئيس جمهورية الولايات المتحدة ووزير خارجيتها ، وزعيم الاغلبية فى الكونجرس الامريكى، وأقطاب الحزب المعارض .. وسفراء الاتحاد السوفيتى وبريطانيا والهند وفرنسا فى أمريكا.. وبعض نساء المجتمع الامريكى .

إننا نقرأ كل يوم فى الصحف عن مناقشات الكونجرس الأمريكى وخلافات الكونجرس مع رئيس الجمهورية .. ولجان التحقيق التى يشكلها الكونجرس للبحث فى نشاط الحكومة ..كاللجنه التى شكلها أخيرا لبحث تفاصيل حادث طائرة التجسس الامريكية... وفى هذا الجو كله تدور هذه الروايه التى تقع فى ٦٠٠ صفحه من الحجم الكبير .. والتى ينتحر فيها أحد أعضاء الكونجرس البارزين !

إن المشكلة التى تثير أحداث القصة هى : أن رئيس جمهورية الولايات المتحدة قد أصدر قرارا بترشيح مستر «لفنجويل» ليكون وزيرا للخارجية ، والدستور الامريكى يقضى بأن رئيس الجمهورية يرشح الوزراء وأن الكونجرس يجب أن يوافق على التعيين .. ولذلك فقد أرسل رئيس الجمهورية اسم المرشح إلى الكونجرس لاقراره ...

ولكن اختيار (لفنجويل) لمنصب وزير الخارجية يثير ضجه هائلة ! انه شخصية من تلك الشخصيات التى تثير الجدل العنيف، والتى يختلف الناس فى شأنها.. فبعض الناس يرونه كفؤا وماكرا يستطيع أن يوَاجه السوفيت فى المباحثات الدولية وفى مؤتمرات الأقطاب المتوقعة .. وبعض الناس يعتقدون أنه انتهازى عريق.. لا رأى له ولا ولاء لأى شىء ولا لأى مبدأ .. ومن هنا تثور العواطف .. ويدور الصراع العنيف، فى أفق واشنطون السياسى ... فالمعارضة فى الكونجرس عنيفة ضد أختيار لفنجويل .. ولكن رئيس الجمهورية ، وقد أعلن اختياره ، أصبح من كرامته أن يحصل على موافقة الكونجرس بأى شكل ... ومهما كان السلاح !

وحوادث القصة تروى على لسان أربعة أشخاص من أبطالها ...

الأول ، هو «مونسون» زعيم الأغلبية فى الكونجرس ، فهو زعيم الحزب الموالى لرئيس الجمهورية والذى يتمتع بالاغلبية فى المجلس ، ومعنى ذلك أن مهمته هى العمل على إقرار هذا الترشيح من الكونجرس بأى ثمن .. أن «مونسون» رجل جذاب، ، له تجربة طويلة فى الكونجرس . وهو فى نفس الوقت صديق حميم للسيدة (دوللى).. تلك الأرملة المليونيرة .. التى وجدت نفسها بعد وفاة زوجها ، بملايينها الكثيرة ، تحيا حياة راكدة فى إحدى الولايات .. فقررت أن تنتقل إلى واشنطون حيث تستطيع أن تمارس حياة إجتماعية حافلة .. وقد نجحت دوللى فى ذلك إلى حد بعيد.. فأصبحت حفلاتها تضم أبرز الشخصيات وأهمها .. ولما كانت دوللى تحب (مونسون) زعيم الاغلبية ، وتريد أن تتزوجه ، فهى تساعدة فى حياته السياسية،بأن تقيم فى بيتها الحفلات التى تضم أكبر الشخصيات، حيث يتاح لمونسون أن يلتقى بهم وينشىء علاقات صداقة معهم ومع سفراء الدول الأجنبية، وكبار الشخصيات التى تزور العاصمة.

البطل الثانى، هو «سيب كولى»، وهو واحد من أقوى أعضاء الكونجرس وأشدهم مراسا وأكثرهم عنادا، وهو فى نفس الوقت يكره (لفنجويل) المرشح لوزارة الخارجية، كراهية شديدة.. لأن لفنجويل قال له مرة، فى وجهه، انه كذاب.. وقد جاءت الفرصة لكى ينتقم فيها «سيب» من لفنجويل.. ولذلك فهو يتزعم الحملة لرفض هذا الترشيح..

البطل الثالث هو (أندرسون).. رجل مثالى حقا! شريف ونزيه إلى أقصى حد.. وهو متزوج من سيدة جذابة اسمها «مابل».. تحبه كثيرا ولكنها تشعر دائما أن هناك شيئا خفيا يفصل بينهما.. وكثيرا ما توهمت أنه لا يحبها !

والبطل الرابع هو (نوكس)، وقد كان مرشحا لرئاسة الجمهورية ضد رئيس الجمهورية، ولكنه سقط فى الانتخابات.. انه رجل كفء وذكى ومثقف ولكنه ينطوى على مرارة نحو رئيس الجمهورية منذ تلك المعركة الانتخابية.

وقد تفاقم الخلاف فى الكونجرس حول هذا الترشيح.. فتقرر تكوين لجنة تحقيق لبحث الموضوع، تقوم باختبار المرشح، وتقدم تقريرها بناء على هذا الأساس، ولما كان موضوع دراسة اللجنة دقيقا، فقد اختاروا لرئاستها «أندرسون»، الرجل الشريف المثالى، لأن سمعته ونزاهته وتجرده فوق مستوى الشبهات.. وهو الوحيد الذى لن يتهم بالتحيز.. أما أعضاء اللجنة فكلهم من الأعضاء البارزين فى الكونجرس.. ومناقشات اللجنة وجلساتها سرية .

ولكن اللجنة تفاجأ بظهور شاهد يقول أمامها: ان لفنجويل كان فى شبابه شيوعيا.. وانه عندما كان أستاذا فى الجامعة أسس مع اثنين آخرين خلية شيوعية .

المرشح لمنصب وزير خارجية أمريكا.. كانت له ميول شيوعية؟ إن المسألة جد.. ولذلك يجب التريث والتدقيق فيها.. ومن هنا قالت اللجنة انها لا تستطيع ادانة المرشح بناء على شهادة شاهد واحد فقط .

ولكن المتحمس لاثبات هذا الاتهام هو « سيب كولى» خصم لفنجويل القديم، وهو لذلك مصمم على احضار الاثنين اللذين قيل انهما اشتركا معه

فى تأسيس هذه الخلية.. ان احد الاثنين قد مات، ولكن الثانى موجود. يعثر عليه سيب، ويجعله يتصل برئيس اللجنة، اندرسون، ويروى له كل شىء .

ويجد اندرسون أن الموقف قد أصبح خطيرا. ان أحسن تصرف هو ألا يذيع هذه الانباء.. على أن يذهب إلى رئيس الجمهورية ليروى له كل شىء وينصح له أن يسحب مرشحه فى هدوء .

وكان رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت فى أشد حالات الغضب والثورة. ان تأخير الموافقة على مرشحه كل هذا الوقت فيه اهانة له ! خصوصا أمام الدول الاجنبية التى عبر له سفراؤها عن اغتباطهم بترشيح لفنجويل..

ولفنجويل أيضا له أصدقاء كثيرون.. ولذلك بدأت الصحف تهاجم اللجنة وتهاجم رئيسها اندرسون.. هاجمته (واشنطون بوست) و (هيرالد تريبيون) و (تايم) و (نيوزويك).. ومحطتان من محطات الإذاعة..

وذهب اندرسون ليقابل رئيس الجمهورية، وروى له كل شىء !

وفى البداية ، حاول رئيس الجمهورية ان يشترى اندرسون رئيس اللجنة ! لمح له بالمناصب، ولمح له برشوة غير مباشرة، فى صورة اعتمادات يستطيع الرئيس أن ينفقها فى الولاية التى ينوب عنها اندرسون فترتفع اسهمه فيها. ولكن اندرسون لم يتزحزح عن موقفه فى مواجهة الحقيقة. وقال أصدقاء رئيس الجمهورية له: ان اندرسون لا يمكن شراؤه.. فرد رئيس الجمهورية قائلا: اذن لابد من تحطيمه !

وتظاهر رئيس الجمهورية بأنه يوافق على سحب ترشيح لفنجويل.. ولكنه طلب من اندرسون مهله يومين، يتعهد اندرسون بألا يذيع خلالها أى شىء عن الموضوع.. ويوافق اندرسون وهو سعيد لأن الرئيس سيجنب الكونجرس أزمه كبيرة .

والواقع أن رئيس الجمهورية لم يتراجع، ولكنه تظاهر بذلك فقط حتى يكسب وقتا يجد خلاله طريقة لتحطيم أندرسون، وتقع سلسلة من المصادفات السيئة، تنتهى بتزويد رئيس الجمهورية بالسلاح الذى كان يبحث عنه لتحطيم اندرسون.. وكان سلاحا رهيبا .

لقد عثروا على صورة لأندرسون فى شبابه.. عندما كان مجندا خلال

الحرب العالمية الأخيرة كانت الصورة له فى هونولولو مع شاب آخر وخلف الصورة اهداء عاطفي غريب من أندرسون إلى زميله فى الصورة.. إهداء يثير الشبهة فى أن الاثنين كانت بينهما علاقة شاذة.. ويسرع انصار رئيس الجمهورية إلى البحث حتى يكملوا القصة ويتأكد لهم أن هذه العلاقة القديمة حقيقية .

ان السلاح الذى وقع فى ايديهم رهيب، وقد بدأوا يهددون به أندرسون فماذا يفعل الرجل ؟

انه رجل شريف ونزيه. هذه العلاقة القصيرة وقعت له فعلا فى ذلك التاريخ البعيد، تحت تأثير ظروف الحرب وغيرها، وقد انتهت بسرعة كغلطة لم تتكرر. ومن وقتها وأندرسون نموذج للسياسى النزيه الشريف المتجرد عن الهوى.. فماذا يصنع ؟

هل يخضع للتهديد؟.. ولكنه بذلك سيكذب على الأمه. وسيوافق على ترشيح وزير خارجية يضر بمصالح أمريكا.. فى رايه !

هل يتركهم يذيعون القصة؟.. ان فى هذا تدميرا كاملا له.. ولزوجته.. ولأولاده..

وفى تلك اللحظة الحرجة.. دس خصومه من اتصل بزوجته وروى لها القصة تليفونيا.. وانهارت الزوجة، وفهمت خطأ أن زوجها ما زال يمارس الشذوذ. ووجدت فى هذا تفسيرا لهذا الحاجز الغامض بينهما.. وعبثا حاول أندورسون أن يشرح لها أن هذا شىء قديم جدا.. ولكنها تركت البيت .

كان هذا التخلى من زوجته هو نقطة التحول الحاسمة فى نفسه. فقد قرر أن ينتحر لكى يتخلص من هذا المأزق. وجلس يكتب رسالة لصديقه وزميله (نوكس) يشرح له كل شىء بصراحة تامة.. ثم انتحر.

وقد تأثر «نوكس» تأثيرا عميقا بهذا الحادث ووجد أن الخصوم السياسيين قد استخدموا سلاحا حسيسا. وقرر أن يكرس نشاطه لرفض ترشيح لفنجويل.. وكانت العواطف قد اتجهت ضده بشدة.. حتى نجح فى ذلك. وقرر الكونجرس رفض ترشيح لفنجويل..

وفى أثناء هذا كله كان الاتحاد السوفيتى قد نجح فى إرسال أول رجل إلى القمر وكان الرأى العام العالمى يضغط من أجل عقد مؤتمر عاجل

للاقطاب.. ولكن رئيس الجمهورية المريض.. كان يقاسى من أثر رفض الكونجرس لمرشحه.. فمات فجأة ذات ليلة .

وتولى نائب رئيس الجمهورية المكان الذى خلا. وكان نائب رئيس الجمهورية رجلا ضعيفا محدود المواهب، فأثر أن يختار «نوكس» وزيرا للخارجية حتى يستطيع أن يقف إلى جواره، فى مؤتمر الاقطاب القادم.. وتنتهى الرواية .

هذه هى الرواية الضخمة التى فازت بجائزة بوليتزر.. والتى الفها صحفى أمريكى من الذين عاشوا الحياة السياسية فى واشنطون زمنا طويلا وهوالن درورى .

أخطر أسرار الحياة بدأ العلم اكتشافها !

أخبار اليوم .. في :

٢ / ٧ / ٦٠

من زمن طويل ، لم أقرأ أخبارا هامة، مثيرة، كهذه الاخبار..

إن أخطر أحداث حياتنا لاتقع في مؤتمرات الأقطاب، ولا في ساحات القتال، ولكنها تقع في المعامل الصامتة.. وفي أدمغة العلماء .

صحيح أن الصحف لاتنشر هذه الاخبار الهامة في صفحاتها الأولى وبعناوين مثيرة، ولكن الصحف - أيضا - لم تنشر عناوين مثيرة يوم قال العلماء إنهم نجحوا في تفجير الذرة أو بلغة أدق : تفجير النواة . هذا الحدث الخطير لم يظفر بالاهتمام العالمي إلا يوم تحول الاكتشاف العلمي إلى قنابل ومتفجرات وصواريخ . عند ذلك فقط أصبح حديث الدنيا ومحور الصراع السياسي، وأدرك الناس أي انقلاب حدث في حياتهم .

يقول العلماء الواقفون في معاملهم شيئا آخر.. أكثر خطورة من تفجير الذرة . لأن المسألة هذه المرة تتصل بالانسان نفسه.. أي بالمادة الحية، لابالمادة الميتة ..

ان نجاح العلم في «تحطيم الذرة» معناه أنه نجح في تحليل وتفكيك المادة الصماء . واليوم يعلن العلم

أنه يقف على أبواب النجاح فى تحليل «المادة الحية».. أى الخلية الحية.. والسيطرة على ذراتها !

ومعنى ذلك ببساطة : أنه فى خلال عشر سنوات أو عشرين سنة، سوف يستطيع العلم أن يستخدم المواد الكيميائية فى صنع وتركيب «خلايا حية» لها بعض وظائف الحياة. وأنه سيمكن بعد ذلك التحكم فى الوراثة الانسانية أى يمكن التحكم فى الجنين بحيث يأتى ـ مثلا ـ أسود الشعر، أخضر العينين يتمتع بذكاء نادر، وبصحة غير قابلة للمرض.. بل سيمكن التحكم فى تحديد ميوله وطباعه ومزاجه الشخصى .

وأعلنت جامعة اكسفورد البريطانية لأول مرة انشاء وظيفة أستاذ متفرغ لهذا العلم الجديد.. وعينت لها الدكتورة دوروثى هودجين...

وقد عرف أن هذا البحث تتفرغ له مجموعات من العلماء فى أماكن كثيرة. وقد سجلت ثلاث مجموعات على الأقل نجاحا كبيرا فيه.. وذلك فى بريطانيا وفى أمريكا وفى ألمانيا الغربية ومن المؤكد أن الاتحاد السوفيتى أيضا فيه أبحاث متقدمة فى هذا الموضوع.

وفهم الموضوع يحتاج إلى تفاصيل علمية عويصة. ولكن خطورة الموضوع وجديته تمليان علينا أن نحاول فهمه .

ان أى جسد حى سواء كان جسم انسان أو حيوان، يتكون من «خلايا» حية. هذه الخلايا الحية تقابل الذرات فى الجسد الميت، أى فى الحديد أو اليورانيوم مثلا . الخلية هى الوحدة التى يتكون من التحامها الجسم الحى والخلية فى الجسم الحى لايزيد حجمها على ثلاثة من ألف من المليمتر فهى لايمكن رؤيتها بالعين المجردة، ولا بالمكروسكوب العادى.. ولكن بميكروسكوبات خاصة !

وكل خلية تتكون من مادة سائلة يسمونها «بروتوبلازم» فى وسطها نواة أصغر منها ! وهذه النواة فى حالة حركة مستمرة. وفى هذه النواة تكمن صفات الوراثة والتكاثر .

والعلم يحاول أن يكتشف أسرار تركيب هذه النواة. وذلك عن طريق تحليلها وتفكيكها.. وبعد ذلك يحاول أن يعيد تركيبها.. وهذا أصعب !

وقد نجح العلماء أخيرا فى تفكيك النواة الحية وتحليلها، وفى معرفة

العناصر التى تتكون منها، وطريق بنائها !.

وقد توصل العلماء فى دراستهم للعناصر الكيمائية التى تتكون منها الخلية الحية، إلى أن يفصلوا عنصرا معينا، أطلقوا عليه اسم «د . ن . أ». هذا العنصر من أهم العناصر التى تتكون منها الخلية الحية. وهو العنصر الذى يصنع الصفات الوراثية. أى الصفات الجسمية للانسان... فهذا العنصر فى الخلية الحية (والانسان عبارة عن مجموعة من الخلايا الحية) هو الذى يجعله انسانا أسمر أو أشقر.. عيونه خضراء أوعسلية.. ذكيا أو غبيا.. وهكذا !.

يقول العالم البريطانى «جون ديفى» فى محاولة مضنية لتبسيط الأمر: ان هندسة وبناء الخلية الحية قد تم اكتشافهما، وقد أمكن معرفة أهم عناصرها الكيميائية وقد أطلق عليها اسم «د . ن . أ» ان هذه المادة هى عنصر الوراثة الحقيقى، أى الاساس المادى لعوامل الوراثة. ان هذه المادة تعمل داخل الخلية الحية وكأنها دستور مكتوب. انها مكمن القوانين والعادات بالنسبة للخلية الحية. ان إدارة الخلية تسير على أساس لامركزى موزع فى أنحاء البروتينات التى تتكون منها الخلية الحية. ولكن مادة « د . ن . أ» تقيم مستقلة داخل نواة الخلية، رغم أن هناك رسائل كيمائية تخرج وتدخل باستمرار إلى الخلية الحية.. ان قواعد الحياة فى الخلية الحية لاتسير إلا بالرجوع إلى هذه المادة التى هى بمثابة مكتبة نووية. البحث الآن يدور حول محاولة اكتشاف طريقة ترتيب هذه المكتبة. فإذا نجح العلم فى فهم لغة مادة الـ «د . ن . أ» فقد نستطيع بعد ذلك أن نقرأ ما فى هذه المكتبة، بل وان نتدخل فى محتوياتها !» .

ان محتويات هذه المادة عبارة عن ذرات من مواد كيميائية، مرتبة فى نظام أشبه بالسلالم الحلزونية التى تدور حول عمود فقرى من ذرات أخرى من الهيدروجين والكربون والاكسجين والفوسفور. هذه الذرات تتكون كل منها من مادة كيميائية معينة.. تتتابع فى تسلسل معين تسلسلا يختلف فى كل جسم حى، وكل صفة وراثية ناشئة عن تسلسل معين لهذه الذرات الكيميائية، فلون العين مثلا نتيجة تسلسل معين للذرات الكيميائية، وهكذا والمحاولة التى بدأت تبذل، بعد الانتصار الأول، هى محاولة فهم

لغة هذا التسلسل! لأنه إذا أمكن معرفة أن هذا التسلسل يؤدى إلى صفات معينة، فإنه يمكن تغيير التسلسل بحيث يؤدى إلى صفات أخرى فى الوراثة.

وأول أثر لنجاح هذه الأبحاث، حين يتم، خاص بعلاج الأمراض التى لاعلاج لها، كشلل الأطفال والسرطان مثلا، ان السرطان هو نمو الخلايا وتكاثرها بطريقة لايتحملها الجسم. ويقال فى وصفه أنه «جنون يصيب الخلايا الحية». ومعنى ذلك أن خللا ما قد حدث فى التسلسل النووى داخل الخلية الحية، أدى إلى هذا الخلل فى عمل الخلايا وفى تكاثرها وانقسامها.

ما رأيكم؟

أليست هذه الأخبار أهم بكثير من أخبار مناورات الصواريخ التى يجريها الاتحاد السوفيتى وأمريكا؟!

الفن: لا مكان له!

أخبار اليوم.. في: ٢٠ / ٧ / ٦٠

لأول مرة، كتب آرثر ميلر، الكاتب المسرحي الامريكي الكبير، رواية سينمائية لتمثلها زوجته مارلين مونرو الرواية اسمها (الذين لامكان لهم!)..

وقد سئل آرثر ميلر لماذا يكتب للسينما مباشرة، بعد أن نذر طول حياته للكتابة المسرحية، فقال: إننى أستطيع أن تكون لى سيطرة على رواية السينما مثل سيطرتى على أى رواية أكتبها للمسرح. فقبل أن يظهر المنتجون الفرديون للأفلام، كان كاتب الرواية السينمائية مجرد يد تستأجرها الشركات السينمائية الكبرى. كما اننى أستطع أن أقول على شاشة السينما أشياء لم أكن أستطيع أن أقولها من قبل، لأن الرقابة أصبحت أخف!

ورواية ميلر السينمائية الجديدة تدور فى مدينة (رينو) التى يذهب إليها الناس للحصول على الطلاق. نظرا للسهولة الشديدة التى يتم بها الحكم بالطلاق هناك. وقد سئل آرثر ميلر عن سبب اختياره مدينة رينو مكانا لقصته فقال (لأنها عاصمة الطلاق فى العالم.. وأكبر مصنع للشقاء والانفصال فى العالم).

وآرثر ميلر لم يكتب حرفا واحدا فى أى مسرحية جديدة منذ سبع سنوات. وهو يقول إنه يكافح طيلة هذه السنوات ليكتب مسرحية معينة دون أن ينجح فى كتابتها.. لماذا؟

قال ميلر: إن أغلب القصص والمسرحيات التى يؤلفها الكتاب تصور الحياة على أنها كارثة ومأساة. وأنا أريد أن أكتب رواية أقول فيها إن كل شىء لم يضع بعد! رواية تتصارع فيها قوى النور والظلام لذلك فأنا أبحث عن عناصر ترجح كفة النور ولابد أن هذه العناصر موجودة فعلا. ولكن المشكلة هى فى العثور عليها. ان البحث عنها ماجعلنى ألتزم الصمت كل هذه المدة الطويلة.

والذى يجعل البحث عن عناصر النور أكثر صعوبة، هو أن الكاتب عليه أن يزرعها وينميها.. فليس هناك الآن فلسفات أخرى تعطى الكاتب أى تأييد خارجى. لذلك فأنا مضطر إلى الاعتماد على نفسى فقط.

وقال ميلر إنه بوجه عام أكثر تفاؤلا الآن منه فى أى وقت مضى..

ولما سئل لماذا؟ قال إن روح النقد، وعدم قبول الأوضاع القديمة ينمو مرة أخرى فى بلاده (أمريكا). ان الناس الآن بدأوا يعترفون بما كان خطأ. منذ عشر سنوات كان مستحيلا أن تطالب بالتغيير. أما الآن فلم يعد من غير اللائق أن تنتقد.

وقال آرثر ميلر: إن من الأشياء التى تسعده، انهيار التفرقة العنصرية ضد الزنوج فى أمريكا. وأنه يرى فيما حدث فى اليابان وأمريكا اللاتينية دليلا على إفلاس نظرة أمريكا القديمة إلى العالم..

وانتقد ميلر المسرح الأمريكى. وقال إنه بعيد جدا عن الواقع. إن رواياته إما أن تقول إننا قد خسرنا كل شىء.. وإما أنه لاتوجد مشاكل على الإطلاق. وكلا الأمرين خطأ!

وقال ميلر إنه حين بدأ يكتب للمسرح كان إخراج المسرحية لايكلف أكثر من ٥٠ ألف دولار. فقد ارتفعت التكاليف إلى ثلاثة أمثال هذا الرقم. وقد ارتفعت أسعار تذاكر الدخول بالتالى إرتفاعا مخيفا. والروايات لاهم لها إلا أن ترفه عن الذين قضوا يوما شاقا فى العمل. أو أن تثيرهم أوتصدمهم، وليس هذا هو رأيى فى المسرح!

كتب جـــديدة

السياسة الأمريكية بنت ١٣ سنة

عيب السياســة الأمريكيــة أنها مراهقــة! فإن عمرهــا لايزيـد على ثلاث عشرة سنة فقط !

هذا ما يقوله مؤلف أمــريكى، اسمه لويس هال، اشتغل موظفا فى وزارة الخارجية لمدة ثـلاث عشرة سنة أيضا ! وذلك فى كتـاب جديد عن «سيـاسة أمريكا الخارجية» .

لماذا ثلاث عشرة سنة بالذات ؟

يقول المؤلف أن سيـاسة أمريكا الخارجيـة ولدت فى ليلة عـاصفة، هى ليلة ٢١فبراير سنـة١٩٤٧ . ففى تلك الليلة اتصل مستر آتلى ـ رئيس وزراء بريطـانيا فى ذلك الوقت. بمستر تـرومان، الرئيس الأمـريكى فى ذلك الوقت أيضا وقـال له : إن بـريطانيـا قررت أن تنسحب من اليـونان! ان مشـاكل بريطـانيا الداخليـة، واقتصادها المضعضع من أثـر الحرب لايسمحان لها بأن تتحمل أى أعبـاء أخرى ثقيلـة.. ولذلك فهى تـدعو أمـريكا إلى أن تحل محلها، فى أعبـاء الدفاع عن مصالــح الغرب،فى هذه المنطقة ووافق تـرومان على الفـور .. من تلك الليلـة فى رأى المؤلف تسلمت أمـريكـا رسميـا قيـادة المعسكر الغربى وحملت كل أعباء الغـرب وبناء على ذلك : بدأت أمريكا تجد نفسـها أزاء مواقف تضطرها إلى اتخاذ قرارات متـوالية، من مجموعها بدأت تتبلور سياسة أمريكا الخارجية، على النطاق العالمى، لأول مرة..

بعكس بريطـانيا مثلا، التى تعـودت أن تكون لها سياسة خـارجية على النطاق العالمى، منذ مئات السنين

ويقول المؤلف : ان أكبر نجـاح لسياسة أمريكـا الخارجية فى تلك الفترة كان مشروع مـارشـال فى غـرب أوروبا.. ولكن إزاء هـذا النجاح كـان هناك عشرات من أمثلة الفشل والخطأ، وأن طفولة السيـاسة الأمريكية الخارجية، وهى فى الثالثة عشرة من عمرها فقط . هى سر كثير من التصرفات التى تثير سخط حتى الساسة الغـربيين فى البلاد العريقة الحليفـة لأمريكا، كما تثير دهشتهم .

نحن لن نقلد الماضى القديم.. كما أننا لا نقلد الآخرين!

أخبار اليوم.. فى:
٢٣ / ٧ / ٦٠

التقدم فى أى بلد.. سواء أكان تقدما فنيا أم أدبيا أم سياسيا.. يمر دائما بمرحلتين:

المرحلة الأولى هى مرحلة «الترجمة».. والمرحلة الثانية هى مرحلة «التأليف».. فى الأدب مثلا.. من السهل أن نلاحظ أن الحركة الأدبية الحديثة عندنا بدأت بترجمة الفلسفة الأوروبية والمسرحيات الفرنسية والروايات الروسية.. قبل أن تظهر الرواية العربية والمسرحية العربية والبحث الأدبى العربى الأصيل..

عرفنا المنفلوطى الذى كان يترجم لنا «ماجدولين» قبل أن نعرف توفيق الحكيم الذى ألف لنا «عودة الروح» أو نجيب محفوظ الذى ألف لنا «بين القصرين». وعرفنا مؤلفات طه حسين والعقاد والمازنى عن الأدب الانجليزى والفرنسى، قبل أن يقدم لنا طه حسين نفسه «الأيام» و«الفتنة الكبرى» أو يقدم لنا العقاد سلسلة «العبقريات»..

وفى الصناعة.. ننظر إلى دولة مثل اليابان.. بوصفها الدولة الوحيدة خارج أوروبا وأمريكا التى حققت ثورتها الصناعية كاملة رغم أنها دخلت

الصناعة فى وقت متأخر.. لقد كانت تأخذ السلعة الأوروبية وتصنع مثلها بالضبط. أقل جودة طبعا. ثم تبيعها فى الأسواق.. حتى اشتهرت فى إحدى الفترات بهذا النوع من المحاكاة الصناعية.. قبل أن تبدأ فى تصميم إنتاجها الخاص بها وتتفوق فى صناعات معينة.

دائما هكذا. مرحلة «الترجمة» أولا. ثم مرحلة التأليف والإبداع.

هذا التدرج الطبيعى له «أولا» سبب عملى واقعى. هو أن الانسان يذهب إلى المدرسة حيث يتعلم، قبل أن يباشر حياته العملية بعد ذلك. وكل شعب ناشىء يذهب أولا إلى الغير ليتعلم ما عنده، قبل أن يبدأ فى رسم حياته بنفسه، مراعيا ظروفه الخاصة..

المغلوب يقلد الغالب!

وهذا التدرج من الترجمة إلى التأليف.. له سبب ثان، هو سبب نفسى! هذا السبب النفسى لخصه مؤرخنا العربى القديم «ابن خلدون» فى كلمة بليغة هى «المغلوب مولع أبدا بتقليد الغالب!!»

والمغلوب هنا هو كل من أرغمته الظروف على التخلف فى عصر من العصور.. والغالب هو كل من أتاحت له ظروفه أن يتفوق ويتقدم على غيره فى هذا العصر. فالمغلوب هو المتخلف والغالب هو المتقدم!

ومن الظواهر النفسية التى تشيع فى كل عصر، أن الشعب المغلوب يعمد ـ بغير وعى أحيانا ـ إلى تقليد الشعب الغالب حتى فى مظاهر حياته وطرق تفكيره وسلوكه.. متوهما أن هذه المظاهر هى سبب قوته وتفوقه.

وهذه الظاهرة التى تحدث عنها المؤرخ العربى القديم ابن خلدون.. تحدث عنها فيلسوف أوروبى حديث هو شبنجلر، وأطلق عليها اسم «التشكل الكاذب».. وقال: «ان هذا التشكل الكاذب يحدث عندما تضغط حضارة كبيرة قوية قديمة على حضارة جديدة ناشئة فتصبها فى قالبها، وتعطيها أحيانا شكلا كاذبا لا يمت إلى شخصيتها الحقيقية العميقة بصلة.. أو كما قال «إننا نجد أن كل ما ينبثق من أعماق هذه الروح الغضة، لا يلبث أن يصب فى القوالب الفارغة التى تركتها هذه الحياة الأجنبية عنها!»

وقد روى غاندى فى كتابه عن قصة حياته، حكاية طريفة تجسد لنا هذه الحالة التى تدفع إلى الترجمة قبل التأليف. وإلى التقليد قبل الإبداع.. فقال

انه كان شابا من عائلة نباتية، لم تذق معدته طعم اللحم مطلقا. وكان فى نفس الوقت شابا يتأجج وطنية غامضة مبهمة لا تعرف طريقها. ثم عرف يوما أن الانجليز يأكلون اللحم دائما، بعكس النباتيين الهنود! وقال لنفسه: لابد أن هذا هو سر تفوق الانجليز على الهنود! لابد أن أكل اللحم ثلاث مرات فى اليوم هو الذى يجعل الانجليزى قويا ذكيا يملك العلم والسلاح والحضارة.. وقرر غاندى أن يبدأ بنفسه فى الرسالة الوطنية وأن يأكل اللحم! وفى غفلة من أهله ذهب يوما إلى أحد المطاعم، حيث افترس كمية هائلة من اللحم.. وعاد مسرعا إلى البيت ينتظر النتائج!! وإذا بمعدته التى لم تتعود هذا اللحم تمرض مرضا شديدا.. ويهزل غاندى هزالا كاد يورده موارد الموت! وكانت آخر مرة أكل فيها غاندى اللحم .

ساق غاندى هذه القصة ليقول انه لا يجب مطلقا أن ينصب التقليد على المظاهر وحدها.. أو أن تضللنا بعض الاعتبارات عن الحقائق الجوهرية.

نقلنا سباق الخيل قبل المصانع!

وكلنا نعرف نموذج الشاب الذى يذهب إلى انجلترا مثلا فيعود وهو يشرب «البايب» مثل الانجليز لأنه يظن هذا دليلا على الحضارة؟ أو الذى يرى نجوم السينما الأمريكان فيتصرف مثلهم لأن هذا هو أسلوب حياة المتمدنين!!!

وكلنا نعرف أن بلادنا فى هذا القرن نقلت عن الانجليز سباق الخيل وسائر مظاهر حياة الانجليز، قبل أن تنقل عنهم الصناعة مثلا أو التقدم العلمى.

والنظم السياسية والاجتماعية أيضا تمر بمرحلة الترجمة.. ثم بمرحلة التأليف.

ولا داعى للاسهاب فى سرد الشواهد التاريخية. ولكننا نعرف من تاريخنا السياسى القريب، فى الثلاثين أو الأربعين سنة الأخيرة.. أن هذه المرحلة كانت على الأغلب فى حياة كل البلاد العربية مرحلة ترجمة فى السياسة والاجتماع. كان كل فريق من المثقفين أو الواعين قد أعجبه النظام السياسى أو الاجتماعى فى بلد من البلاد المتفوقة، هو على الأغلب الذى سافر إليه وتعلم فيه، فى بريطانيا أو فرنسا أو أمريكا أو روسيا.. فمضى

يترجم عنه.. ويدعو إلى تطبيق هذه الترجمة عندنا! وقد ترجمت وطبقت عندنا بالفعل نظم سياسية كانت صورا حرفية من نظم فرنسا وبريطانيا وغيرها..

إن الذين ينقلون شكليات الحياة ومظاهر النظم، لا يعرفون أن هذه الشكليات والصور سبقها تطور وتقدم أهم وأعمق. فالترف فى أى مجتمع جاء بعد جهاد شاق لإنجاز الثورة الصناعية وبعد إقامة الأساس المادى القوى لهذه الحياة..

شىء آخر.. هو أن مرحلة الترجمة، وحالتها النفسية الخاصة بها، تصاحبها حالة نفسية أخرى من الرجوع إلى الماضى..

والرجوع إلى الماضى لاستلهامه والتأثر به ليس عيبا. بل انه أيضا ضرورى. فالماضى هو ماضينا، موجود فى نفوسنا شئنا أم لم نشأ. ونحن لا نستطيع أن ننقطع عنه. ولو انقطعنا عنه لخسرنا شيئا كثيرا.

ولكن الذى أقصده هنا هو نوع آخر من الترجمة أيضا. فكما أن هناك ترجمة عن المجتمعات الأخرى.. فهناك أحيانا «ترجمة حرفية» للمجتمعات الماضية والقرون الغابرة..

الترجمة عن الماضى

وأضرب لذلك بعض الأمثلة:

● فى الترجمة عن الماضى مثلا.. نجد أن بعض الناس يريدون قطع صلتنا بالماضى قطعا ولا يدخلونه فى حسابهم مطلقا. وهذا خطأ. لأن جزءا كبيرا فى أساس وحدتنا العربية مثلا يرجع إلى الماضى ولا شك. ولكننا نجد فى الطرف المضاد لهؤلاء الناس، ناسا آخرين، يروعهم ما كان عليه العرب من مجد ونجاح منذ اثنى عشر قرنا، فيحسبون أن كل ما نحتاج إليه هو أن نرى ماذا كان يصنع العرب منذ ١٢٠٠ سنة ثم نصنع مثلهم. وهذا أيضا خطأ فاحش وانحراف خطير. فهذه الـ ١٢٠٠ سنة لم تمر هدرا وعبثا. وقد تطور فيها العالم وأضيف خلالها إلى التراث العلمى والفكرى والمعنوى إضافات هائلة خطيرة. وتقليد ما كان من ١٢٠٠ سنة مضت معناه الموت. معناه ألا نعيش فى سنة ١٩٦٠.

● وفى الترجمة عن الحاضر.. أضرب مثلا بالنظرية الماركسية. فهناك

من الناس من يأخذونها وكأنها دين منزل من السماء، تأخذه كله أو تتركه كله، ويجب أن تأخذه كله، وهم يريدون تطبيقها على بلادنا كما حدث أن طبقت فى هذا البلد أو ذاك، وهذه ترجمة جامدة حمقاء.. والذين ينادون بها هم ضحايا المراهقة السياسية والكسل العقلى والتبعية النفسية. إنهم ينعزلون عن الواقع. لأن إيمانهم الجامد بالنصوص جعلهم يصرفون جهدهم إلى محاولة إرغام الواقع ـــ فى مخيلتهم طبعا؟ ـــ على أن يناسب النظرية المجردة.. بدلا من أن يعملوا على تطوير النظرية المجردة بما يناسب الواقع.

وفى الطرف المقابل لهؤلاء نجد ناسا إذا ذكرت الماركسية أمامهم أزاحوها كلها جانبا، دون أن يجدوا الشجاعة على درسها وهضمها وأخذ ما ثبت صحته منها. وهذا خطأ آخر فاحش. لأن من يصنع هذا إنما يعزل نفسه عزلا عميقا عن أفكار أساسية أضيفت إلى التراث العالمى وأصبحت جزءا منه، بما فيه من صواب وخطأ.

لابد إذن أن نجتاز مرحلة الترجمة إلى مرحلة التكيف.. ونجتازها فى الوقت المناسب.. لابد أن نضيف إلى «العلم» الذى قرأناه.. «الواقع» الذى نحياه! خصوصا فيما يتعلق بالنظم السياسية والاجتماعية. إن النظم السياسية والاجتماعية مادتها الأولى هى الانسان والانسان معدن خاص يختلف عن معادن الحديد والنحاس وغيرهما! إن الحديد مثلا يمكن إذابته وطرقه وثنيه بطرق واحدة وبدرجات حرارة واحدة فى أى مكان من العالم. لأن الحديد هو الحديد فى أى زمان ومكان. أما الانسان فهو معدن آخر. خصائص الانسان الأساسية وغرائزه وحاجاته واحدة فى كل مكان.. ولكن هذه الخصائص الأساسية يدخل عليها كثير جدا من عوامل البيئة والتراث والظروف والثقافة ومستوى الحياة والموقف الجغرافى والمرحلة التاريخية التى يمر بها..

هذه الحقيقة تقتضى منا أن ننظر إلى تجارب الآخرين، وعيوننا على بلادنا.. وعلى ظروفنا الخاصة بنا..

لقد آن لنا أن نجتاز مرحلة المراهقة السياسية فى حياتنا! لقد اجتازت بلادنا معارك صعبة أنضجت وعيها وأرهفت حسها، وأحرزت انتصارات

دعمت ثقتها بنفسها.. ونحن فى هذه المرحلة يجب ألا نتعالى مطلقا على الترجمة والاستفادة من كل التجارب الانسانية.. مادمنا لا نفقد القدرة ولا الشجاعة على الاضافة والتجاوب مع ظروفنا الحقيقية.

وبعد...

هذا بعض تفسير، لقول جمال عبدالناصر فى مجلس الأمة أول أمس «إننا لم ننهمك فى النظريات بحثا عن حياتنا إنما انهمكنا فى حياتنا بحثا عن النظريات.. فلم نترك أى عقائد نفترض وجودها على غير واقع، توجه سير أحداثنا وتصنع تاريخنا».

كيف قامت كندا بدور «السمسار الشريف» فى النزاع بين أمريكا وبريطانيا أثناء حرب السويس؟

أخبار اليوم.. فى:
٢٧ / ٨ / ٦٠

قضيت عشرة أيام فى كندا...

ست ليال منها نمت خلالها فى الفنادق.. وأربع ليال نمت خلالها فى القطارات! فهذه البلاد الشاسعة، لابد أن تقضى فيها أغلب الوقت متحركا، على عجل، حتى تستطيع أن ترى جانبا بسيطا منها!

ومع ذلك.. فهذه البلاد الهائلة.. التى تزيد مساحتها على أوروبا كلها.. وتزيد على مساحة الولايات المتحدة كلها.. لا يسكنها سوى سبعة عشر مليونا من البشر! ومنطقة مثل الدلتا فى الجمهورية العربية المتحدة.. التى يسكنها حوالى ثمانية ملايين من البشر.. أى حوالى نصف سكان كندا كلها.. هذه الدلتا لا تزيد مساحتها على أى بحيرة مثلا من مئات الآلاف من البحيرات التى تطرز أرض كندا!

نعم.. مئات الآلاف من البحيرات! والشخص الميسور الحال فى كندا يستطيع بما يساوى ١٠٠٠ جنيه أن يشترى بحيرة، وقطعة أرض تحيط بها! وفى البحيرة يستطيع أن يصطاد، وأن يسبح، وأن يضع قاربا بخاريا أو شراعيا»! وفى عطلة الأسبوع لا نرى إلا سيارات تجرى فى الطرق وكل سيارة تجر

وراءها قاربا بخاريا على عجلات صغيرة.. مسرعة إلى البحيرات! والطبيعة الجميلة الغنية الهائلة هنا جعلت السكان القليلين يحبونها، ويهرعون إليها فى كل لحظة تسنح لهم... يلقون بأنفسهم فى أحضان الجبال والغابات والبحيرات.. شىء آخر يخيل لى أنه جعل الناس هنا يحبون الطبيعة إلى هذا الحد، هو: الشتاء الرهيب الطويل.. الذى تتجمد فيه الشواطىء والأنهار والبحيرات.. ويغمر الثلج فيه الطرقات والبيوت ويدفن الأزهار.. شهورا طويلة بيضاء جرداء. تخنق الألوان وتسجن نبض الحياة..

إن الحرمان من الشىء هو الذى يشعر الانسان بقيمة هذا الشىء.. والحرمان الذى يفرضه الشتاء الطويل هو الذى يجعلهم فيما أعتقد، حين يطلق الربيع سراحا لحياة، يتلهفون هذه اللهفة على الاندماج فى مهرجان الطبيعة الهائل!

وكندا فيها رخاء ضخم. وهى من هذه الناحية جديرة بسمعتها لدى الكثيرين الذين يفكرون فيها كأنها أرض المن والسلوى. مستوى المعيشة مرتفع والأسعار غالية. والعمل والكسب ميسور. ومرتب الخادم والطباخ عند أى سفير يصل إلى ٨٠ جنيها فى الشهر لأن الخدم والطباخين لا يوجدون فى البيوت مطلقا إلا عند أصحاب الملايين وكبار الأغنياء والسفراء ومن إليهم. كنت جالسا فى كافيتريا فندق «لورنشيان» فى مدينة مونتريال ساعة الفطور. وجاء وجلس إلى المائدة معى رجل متقدم فى السن، أبيض الشعر. فى صحة جيدة. وبدأ يتناول فطوره أيضا. وهذا شىء مألوف فى ساعات الزحام. ونظر الرجل فى دهشة إلى علبة السجائر التى أحضرتها معى من القاهرة وقال لى: أى نوع من السجائر هذا؟

وقلت له انها سجائر مصنوعة فى الجمهورية العربية المتحدة.. وأبدى اهتماما بالأمر. وعلمت منه أن اسمه «بيكارو» وأنه من كبارأصحاب الملايين فى كندا. وأنه المالك الرئيسى فى ١٨ شركة مختلفة من بينها شركة تليفزيون ومصنع سجائر ومصنع لورق الصحف.

وتحدثت معه طويلا عن كندا، وكان مهتما ببلادنا وقال إنه كان على وشك أن يذهب فى الشتاء منذ سنتين إلى القاهرة بحثا عن الشمس كما قال له الأطباء ولكن حوادث العراق ولبنان أعطته إحساسا بأن المنطقة كلها مضطربة.

وقال لى مسيو بيكارو:

— إننى من أصل فرنسى. أبى جاء إلى هذه البلاد وهو فى العشرين من عمره.. فقيرا.. لا يملك شيئا.. ولا يعرف القراءة والكتابة. والآن أصبحت أنا مليونيرا.. وأخى الأكبر مليونيرا وأخى الأصغر مليونيرا!

إن أبى الفرنسى تزوج من أمى الإيرلندية. وأنا ليس لى أولاد ولكن عندى ثلاث بنات، وهن قد تزوجن من شبان أمريكان، أعطيتهم أعمالا هامة فى شركاتى فنجحوا... والآن تجنسوا جميعا بالجنسية الكندية!

هذه هى كندا. لا يهم فيها الدين ولا الجنس ولا اللغة. المهم أن تعمل وتجتهد وتشق طريقا لكى تحقق حياة من الرفاهية!

وفى مونتريال أيضا.. جزمجى أرمنى من القاهرة اسمه بدروسان، أخذ أمه العجوز وذهب إلى كندا. واشتغل ساعيا فى محل تجارى كبير. ثم أصبح بائعا فى قسم السجاد بالمحل، ووصل مرتبه وعمولته فى المحل إلى ٣٠٠ دولار فى الشهر. ثم قرر أن يستقل بمحل خاص به لتجارة السجاد فقط. وأصبح الآن إيراده حوالى ٢٠٠٠ دولار فى الشهر. وهو يعتبر نفسه مبتدئا بالطبع! ولكن امه العجوز لم يعجبها طعم الحياة رغم كل هذا... فقررت أن تعود إلى القاهرة وتتركه يجرى وراء ملايينه فى كندا!

وليس معنى هذا أن الناس كلهم أصحاب ملايين. أو أن الحياة هناك تمضى بلا مجهود. فالناس هنا مجدون. وعندما قضيت ليلة فى قرية «تشالك ريفر» حيث يوجد مركز الأبحاث الذرية... ذهبت فى الصباح إلى المطعم الذى يفطر فيه غير المتزوجين من سكان القرية. ووقفت فى طابور طويل كله من الشبان والشابات... المتعلمين طبعا.. كلهم فيما يشبه «العفريتة الزرقاء» أولادا كانوا أم بنات. كلهم يلتهمون فطورهم قبل يوم طويل من العمل الدقيق الشاق فى هذه القرية النائية التى ليس فيها سينما ولا أى شىء من هذا القبيل. رهبان فى هذه الأرض الغنية الحافلة.. يحاولون أن يكونوا على صلة بما يحمله العلم الحديث من تطور جديد ومستقبل جديد.

المشكلة التى تزعج الكنديين فى كل هذا الرخاء ـ وهى مشكلة فعلا ـ أن أغلب رؤوس الأموال المستثمرة فى البلاد أمريكية.

وقد وقف ديفنبيكر رئيس وزراء كندا يلقى محاضرة فى إحدى الجامعات الأمريكية... وكان صريحا للغاية. قال لمستمعيه الأمريكان: إن أمريكا يجب أن تعيد النظر فى علاقاتها الاقتصادية مع كندا...

إن ٦٠٪ من صناعات كندا تملكها رؤوس أموال أمريكية! ومع ذلك فهذه الشركات الأمريكية ترفض أن تطرح جانبا من أسهمها فى السوق الكندية ليشتريها الكنديون..

إن ٦٠٪ من صادرات كندا، يذهب إلى أمريكا. و٧٣٪ من واردات كندا، تشتريها كندا من أمريكان أى ولاية أمريكية، تبيع فى كندا أكثر مما تبيع ألمانيا الغربية كلها مثلا فى كندا! ومع ذلك فإن أمريكا تتبع سياسة الحماية الجمركية تجعل كندا لا تصدر لها إلا خامات أو مواد نصف مصنوعة.. فى حين أنها تشترى من أمريكا صناعات كاملة.

ثم إن كندا تعتمد إلى حد كبير على تصدير حاصلاتها الزراعية. ولكن سياسة أمريكا فى تصريف فائض محصولاتها الزراعية الخارج فى برامج المساعدات، تؤدى إلى هبوط الطلب على صادرات كندا الزراعية!

واستطرد ديفنبيكر يقول: إن هذا كله أدى إلى جعل الحياة الاقتصادية فى كندا تتأثر بأى قرار يتخذ فى واشنطون أو نيويورك!

انتهى كلام مستر ديفنبيكر...

ومن الأشياء التى تبدو غريبة للعين العربية : تعدد اللغة!

إن اللغتين الرسميتين هنا هما الفرنسية والانجليزية. لافتات المحلات وتذكرة القطار وورق البنكنوت... كل شىء تجد أن البيانات عليه مكتوبة باللغتين الانجليزية والفرنسية معا. وهناك صحف انجليزية وصحف فرنسية ومحطات اذاعة انجليزية وفرنسية وتليفزيون انجليزى وتليفزيون فرنسى. وقد تركب «تاكسى» فى منطقة ما فتكتشف أن سائقه لا يعرف إلا الفرنسية. وقد تركب مصعدا فتجد أن عامل المصعد لا يعرف إلا الانجليزية.. وأوتاوا كلها تقريبا انجليزية.. فى حين أن المرشد السياحى فى مونتريال يقول لك: ان مونتريال هى أكبر بلد فى العالم يتكلم اللغة الفرنسية بعد باريس! لأن عدد سكان مونتريال حوالى مليون ونصف مليون وليس فى فرنسا مدينة بهذا الحجم بعد باريس! وإن كان واضحا أن

اللغة الانجليزية هى التى تتغلب باستمرار.

والواقع أنه اذا كانت كندا فيها فئات كثيرة جاءت من أماكن مختلفة ففيها باكستانيون وعرب وإيطاليون ويهود (وللمجتمع اليهودى فى كندا حديث آخر»... إلا أن كندا تتركز ملامحها الأساسية فى ثلاث «لغات».

«لغة فرنسية»... تتبدى فى صورة مجتمع فرنسى، يرجع إلى عهد ما قبل الثورة الفرنسية.. ويحن دائما إلى الحضارة الفرنسية والروح الفرنسية.. وأغلب هذا المجتمع يتركز فى ولاية «كويبك».. وأهم مدنها مونتريال وكويبك..

و«لغة انجليزية» تظهر فى صورة الملكة اليزابيث المعلقة فى كل مكان بوصفها ملكة كندا.. وفى العلم الكندى المشابه للعلم البريطانى...

وفى البرلمان ودور الحكومة القديمة التى تشبه طراز البرلمان البريطانى.. وفى المساكن والشوارع بل والأحياء الكاملة التى تبدو قطعة من الذوق الانجليزى المعروف... بل وتظهر فى أسماء الأحزاب.. فهنا أيضا يوجد حزبان: حزب المحافظين وحزب الأحرار، وهناك حزب ثالث يتكون سيحمل اسم حزب العمال! وأكثر المدن شبها بالطابع الانجليزى هى أوتاوا، العاصمة...

ثم هناك لغة ثالثة.. لغة أمريكية.. تظهر فى ناطحات السحاب الشامخة التى تتصاعد يوما بعد يوم فى وسط أحياء انجليزية أو فرنسية صميمة..

وتظهر فى هذا الموج الهادر من السيارات والجرارات والبضائع والأموال! وأقرب المدن الكندية شبها إلى نيويورك مثلا.. هى مدينة تورونتو.

هذه اللغات الثلاث.. أو الملامح الثلاثة.. تراها واضحة فى كندا.. تراها متعايشة متلائمة. لا متصارعة ولا متناحرة.

ولعل وجود هذه العناصر الثلاثة جنبا إلى جنب هو الذى حمى كندا من أن تذوب تماما فى فرنسا أو بريطانيا أو أمريكا. فالتاج البريطانى والتراث البريطانى كانا ولاشك عاصما لكندا من أن تذوب تماما فى كيان أمريكا الساحق. كما أن الارتباط الاقتصادى بأمريكا جعلها لا تذوب تماما فى كيان بريطانيا، وجعلها تختلف فى علاقاتها مع بريطانيا قليلا عن علاقة

بلاد أخرى فى الكومنولث، كاستراليا مثلا أو نيوزيلندا.. وسنرى أثرا من آثار هذا بعد قليل...

وقد يدفعنا هذا إلى القول بأن المجتمع الكندى ليس مجتمعا واحدا له شخصية قوية واحدة. وقد يدفعنا إلى القول بأن هذه العناصر لا تذوب فى بوتقة واحدة كما تذوب العناصر فى أمريكا مثلا وتتحول بسرعة إلى جنس واحد.. وأن كندا لذلك هى فى الواقع «كيان مادى» أكثر مما هى كيان معنوى.

والواقع أن هذا الكلام قد يصح على فترة ماضية، ولكنه لا يصح تماما بالنسبة للحاضر أو بالنسبة للمستقبل. فقد بدأت كندا تبحث عن شخصية قومية خاصة بها..

وأظن أن السياسة الدولية بدأت تلعب دورا فى هذا التكوين..

وأكبر أحداث السياسة الدولية التى كان لها أثر عميق فى حياة كندا هو: حرب السويس!

إن كندا تمسك فى أيديها بثلاث حلقات هامة وأساسية:

- المعسكر الغربى...
- الكومنولث البريطانى..
- أمريكا ..

حرب السويس

هذه هى الارتباطات الأساسية الثلاثة التى تتمسك بها كندا وتستند إليها استنادا عميقا. ولكن هذه الكرات الثلاث اصطدمت اصطداما عنيفا خلال حرب السويس.. وعندما طرح موضوع الحرب بيننا وبين بريطانيا وفرنسا واسرائيل على مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة...

بريطانيا وأمريكا ــ وكل منهما لها ارتباط أساسى بكندا، وكلتاهما عضو فى المعسكر الغربى وهو الارتباط الثالث بكندا - بريطانيا وأمريكا اختلفتا فى التصويت حول هذا الموضوع فى الأمم المتحدة. ولأولُ مرة كان على كندا أن تختار بينهما...

وفى داخل الكومنولث... بكلمات لستر بيرسون وزير خارجية كندا فى

ذلك الوقت وزعيم المعارضة فيها الآن.. فى تلك الليلة، انقسم الكومنولث انقساما عنيفا لأول مرة. استراليا ونيوزيلندا وقفتا مع بريطانيا إلى آخر الحدود.. بينما وقفت الهند وباكستان وسيلان ضد بريطانيا. وأصبح من الممكن أن ينشق من الداخل الكومنولث إلى معسكرين: معسكر بريطانى ومعكسر آسيوى.. فى تلك الليلة التاريخية التى وصفها بيرسون.. قررت كندا أن تتزعم معسكرا حياديا « فى داخل المعسكر الغربى.. ومعسكرا حياديا « فى داخل الكومنولث. وقد وصف بعض الساسة الكنديين هذا الدور بأنه دور «السمسار الشريف» فى داخل المعسكر الغربى والكومنولث الذى يحاول أن يسير وراء العدل ويحاول التوفيق بين الطرفين... ولكن عناصر أخرى فى السياسة الكندية قالت ان دور «السمسار الشريف» هذا لا يكفى، إنما يجب أن تكون كندا أكثر إيجابية من هذا.

ويضيف الكنديون إلى هذا سببا آخر جعلهم أكثر اهتماما بالسياسة الخارجية وجعلهم يبحثون عن دور أكثر إيجابية والسبب هو أن كندا لم تعد أحد أطراف الدنيا البعيدة عن الأحداث، كان هذا قديما عندما كانت الحروب تقع فى أوروبا وفى الشرق، فكانت كندا تبدو البلاد البعيدة الآمنة التى لا يمسها خطر. ولكن كندا الآن تقع بين أمريكا والاتحاد السوفيتى مباشرة، أمريكا والاتحاد السوفيتى هما الجارتان الوحيدتان الملاصقتان لها! ولعلها تنفرد بهذا الموقع دون سائر أجزاء العالم كله. وكندا مرتبطة بأمريكا فى نظامها الدفاعى.. وقواعدها العسكرية، ولكن هناك شعورا متزايدا بضرورة المساهمة إيجابيا فى حفظ السلام.. لأنهم فى حالة الحرب، قد يكونون من أول ميادين الصراع!

وفى نفس الوقت، تعتقد كندا أنها تستطيع أن تقوم بدور إيجابى لمصلحة الغرب... حيث تحتفظ بهذه «السمعة»... إذ تستطيع أن تساهم فى كثير من الميادين الدولية، حيث لا تستطيع دول الغرب أن تساهم مساهمة مباشرة، أما نتيجة لسمعتها الاستعمارية القديمة، واما نتيجة لعلاقاتها المتوترة مع المعسكر الشرقى.. وهكذا رأينا كندا تبرز حيث تنشأ قوات للطوارىء الدولية... وحيث تحتاج بلاد أفريقية ناشئة إلى المساعدة.

نظرة أولى .. إلى انتخابات الرئاسة فى أمريكا

أخبار اليوم .. فى : ٣٠ / ٩ / ٦٠

الزائر الذى يأتى أول مرة إلى هذه البلاد الكبيرة الغنية.. سوف تفاجئه أشياء تبدو له غريبة.. حتى يألفها أو يعرف تفسيرها..

مثلا : إن يكتشف أن أهالى مدينة واشنطون — العاصمة ! - ليس لهم حق التصويت فى انتخابات رئاسة الجمهورية.. ! كل أهالى الولايات المتحدة، رجالا ونساء، لهم حق الاشتراك فى اختيار رئيس الجمهورية ماعدا سكان العاصمة !

إن تفسير ذلك يكمن فى الكراهية القديمة، العميقة، فى نفوس الأمريكيين جميعا لكلمة «الحكومة» أو «الدولة».

إن شعب هذه البلاد قد يكون من المهاجرين الذين جاءوا من أوروبا فرارا من سطوة الحكومة أو اضطهاد الكنيسة أو استبداد امراء الاقطاع. جاءوا إلى هذا العالم الجديد.. وفى عزم كل واحد منهم أن يصنع لنفسه الحياة التى تحلو له .. واثقا من أنه يستطيع أن يعتمد على نفسه وان كل مايريده هو ألا يتدخل أحد فى شئونه. ومن هنا جاءت الفردية الهائلة التى هى طابع الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وعندما تطورت هذه المجتمعات المهاجرة والمغامرة بحيث أصبح لابد لها أن تتحول إلى أمة وإلى دولة وإلى حكومة.. جعلوا دور الحكومة صغيرا ضئيلا بقدر مايستطيعون. ولما كان لابد — إلى جانب الحكومات المحلية والبرلمانات المحلية فى كل ولاية ـ لما كان لابد إلى جانب هذا من حكومة اتحادية وبرلمان اتحادى.. انتزعوا قطعة أرض صغيرة من إحدى الولايات.. وجعلوها مقرا لهذه الحكومة وهذا البرلمان.. فى مدينة واشنطن وضواحيها وجعلوا سطوتها محصورة فى أضيق الحدود.

وتاريخ الفكر السياسى فى الولايات المتحدة ملىء بعدم الثقة فى الحكومة، أى حكومة ! فرجل مثل «أمرسون» يقول : إن كل الحكومات فاسدة!!.. ومفكر آخر يقول : «الحكم الأحسن هو الحكم الأقل!».. وعندما اتخذت الولايات المتحدة شعارا لها فى أحد العصور كلمة «نحن نؤمن بالله».. انتشر شعار آخر ساخر يقول «نحن نؤمن بالله، ولانؤمن بالحكومة!».

المواطن الأمريكى تربى منذ نشأة الكيان الأمريكى على أن يزدرى السلطة السياسية.. والرغبة فى ألا يتدخل أحد فى شئونه. وامعانا فى هذا الشك العميق فى الحكومة، قرر حرمان كل سكان العاصمة من حق الاشتراك فى اد خاب رئيس الجمهورية! لأن العاصمة هى مقر الدولة. وأغلب سكانها من موظفى الحكومة! ومن السهل التأثير على موظفى الحكومة لكى يعطوا أصواتهم لصاحب السلطة !

ولاشك أن واشنطن هى العاصمة الوحيدة فى العالم كله.. وربما فى تاريخ النظم الانتخابية.. التى لايجوز لها أن تشترك فى انتخاب رئيس الجمهورية !

وقد استطردت قليلا فى التعليق على هذه النقطة.. لأننا سنعود إليها بعد قليل.

التليفزيون

نموذج ثان.. من النماذج التى يراها الزائر هنا غريبة..

بعد وصولى إلى نيويورك بأيام، والمعركة الانتخابية قد بدأت تحتدم، افتتحت إحدى محطات التليفزيون الكبرى فى المدينة قسما خاصا لاعطاء

دروس لرجال السياسة المبتدئين يتعلمون فيها كيف يظهرون على شاشة التليفزيون.. وكيف يؤثرون فى السامعين والتحقق بهذا القسم عدد كبير من الذين سيحاربون فى هذه الانتخابات فى مختلف أنحاء الولايات المتحدة إلى جانب هذا المرشح أو ذاك، وأخذوا يتلقون الدروس على أيدى مخرجين أكفاء: ما هو أحسن زاوية يظهر بها وجهك على شاشة التليفزيون. متى تجلس على مقعد وثير مريح وانت تخاطب الجمهور لكى تنشر بينك وبينه احساسا بالألفة.. وكيف يجب أن تجلس أمام مكتب إذا كنت تخاطبهم فى موضوع تريد أن تشعرهم بخطورته.. كيف تقرأ ويظن الناس انك ترتجل.. كيف تبدو مخلصا مؤمنا بما تقول.. لماذا يجب أن تلبس بدله لونها «سادة» غير مخطط.!

ولكن هذا النموذج أيضا لايبدو غريبا، إذا وضعناه فى إطار المفهوم الأمريكى للسياسة. أن الرغبة القديمة فى تقليل دور الحكومة لابد أن تقترن بالتقليل من دور السياسة. ولذلك أصبحت السياسة فى أمريكا حرفة يزوالها بعض الناس، وليست شيئا يهتم به ويشترك فى مزاولته كل الناس. فأنت حين تكره السياسة لاتهبها حياتك وأكثر الذين اشتغلوا بالسياسة فى أمريكا اشتغلوا بها فترة من الزمن ، ثم عادوا إلى أعمالهم الاصلية فى الحياة الخاصة. أما الذين يحترفون السياسة حقا فهم عدد قليل.. ليس فى الصف الأول ولا الصف الثانى.. ولكنهم فى أجهزة الاحزاب والهيئات.. أشبه بوكلاء أعمال نجوم السينما مثلا.. وهؤلاء هم الذين يذهبون إلى دروس التليفزيون لأنهم سيقومون بأدوار هامة فى مناطقهم خلال المعركة الانتخابية لحساب هذا المرشح أو ذاك !

سهولة التأثير فى الرأى العام

وقد أدى عدم اهتمام الامريكى العادى بالسياسة.. وخصوصا السياسة الخارجية.. وتركها لفريق قليل من الناس يتصرفون فيها.. أدى هذا إلى أن أصبح التأثير على الرأى العام الأمريكى فى هذا المجال سهلا. فالاجهزة التى «تحترف الرأى» كالصحافة والإذاعة والتليفزيون تستطيع أن تقنع الرأى العام بأى شىء.. ومن هنا كان سهلا على أى فئة كالصهيونية مثلا ـ أن تصمم وتتفرغ للتأثير على الرأى العام الأمريكى..

وأن تنجح فى ذلك إلى حد بعيد.. ان الرأى العام الأمريكى تعود أن يصدق السياسى المحترف كما تصدق أنت مثلا الرجل الذى يصلح لك جهاز الراديو أو التليفزيون. فهذه هى حرفته. ولا داعى لأن تناقشه وتخالفه مادمت لا تفهم فى علم الكهرباء !

هذه كلها.. بعض العوامل العميقة الجذور فى نفس الرأى العام الأمريكى.. والتى تترك أثرها على مثل هذه المعركة الانتخابية الراهنة..

ولكن كثيرا من هذه العوامل قد طرأ عليها تغير خطير.

وقد طرأ عليها هذا التغير الخطير بفعل عاملين أساسيين: الأول هو الحرب العالمية الأخيرة.. والثانى هو المنافسة التى يشنها الاتحاد السوفيتى والتحدى الذى بلغ قمته باطلاق السوفيت لأول قمر صناعى.

لقد بدأ كل أمريكى يشعر أن الاهتمام بالسياسة الدولية شيء أساسى. فالعالم لم يكن بعيدا عن أمريكا إلى هذا الحد. والاحداث التى تدور فى آسيا وافريقيا وأوروبا لم تعد تدور فى كوكب آخر، كما كان المواطن الأمريكى يشعر من عهد قريب.

النجاح الساحق الذى لا مثيل له.. والذى حققه الشعب الأمريكى النشيط الذى يتدفق حركة وحيوية.. هذا النجاح الساحق السريع.. زرع فى نفس أمريكا احساسا بأن نظامه هو أحسن النظم. وانه ليس على الآخرين الا أن ينتهجوا نفس الطريقة ليصلوا إلى نفس النتيجة. أو كما يقول المفكر الامريكى «ماكس ليرنر»: ان الأمريكى يرى أناسا من كل الأجناس يأتون إلى بلاده ويتحولون إلى أمريكان.. فإذا سافر إلى الخارج فإنه يدهش حين يرى الناس خارج بلاده لايريدون أن يتحولوا إلى أمريكان !!

ولكن هذا الاقتناع الذى نما نموا طبيعيا فى نفس الأمريكى أصيب بصدمات عنيفة فى السنوات الأخيرة. أولا بفعل الصدمات التى منيت بها السياسة الأمريكية الخارجية فى أماكن كثيرة من العالم، وثانيا بفعل النجاح العلمى الكبير الذى سبق إليه الاتحاد السوفيتى فى السفر إلى الفضاء.. بعد أن كانت أمريكا، دائما، هى السباقة فى كل هذه المجالات.

كل هذا جعل أمريكا تمر الآن بفترة هامة من «إعادة التفكير».. ومن «النقد الذاتى».. لعلها لم تمر بمثلها من قبل.

ولا أحـد يتنبأ بما سـوف يقـرره الشعب الأمـريكى فى المستقبل. ولكن المؤكد أنـه يشعر أن هناك أشيـاء فى حاجة إلى التغيير والتعـديل.. وان كان يختلف حول تحديد هذه الأشياء.. وحول درجة التغيير المطلوب ومداه.

ولا شك أن الحزب الـديمقراطى هـو الذى استطـاع أن يسبق إلى ادراك هذه الحالة والاحساس بضرورة المبادرة فى الدعوة إلى التغيير. وقد قاوم الحزب الجمهـورى فى أول الأمر هـذه الريح الجديـدة. وحاول أن يقنع نفسـه وأن يقنع الناس بأن هـذه الريح غير موجـودة وقد كان هـذا هو طابع سيـاسة ايزنهاور فى السنـوات الأخيرة فى جميع الميادين السيـاسية والاقتصـادية. وكـان هذا أيضـا هو شعـار نيكسـون. ولكن ريتشارد نيكسـون، أدرك فى اللحظة الأخيرة انـه إذا تمسك بسياستـه والاحتفاظ بالحالـة الراهنـة فهو خاسر لامحالة فى المعـركة الانتخابية القـادمة. بل لقد ظهر فى داخـل حزبه الجمهـورى زعيم آخـر هـو روكفلـر يحاول أن يبنى سمعتـه على أسـاس الاعتراف بالحاجة إلى التغيير والعمل على مواجهتهـا فى إطار سياسة الحزب الجمهورى. وفجأة، وقبل إنعقـاد مؤتمر الحزب الجمهورى بليلـة واحدة . طار نيكسون إلى عرين غريمـه روكفلر، واجتمع به اجتماعا استمر من أول الليل إلى أول الصباح.. أعلـن نيكسون بعده استسـلامه للرغبة العـامة فى التغيير.. وبدأ يقيـم حملته الانتخـابية على أسـاس انه، أيضـا، ينوى تغيير أشياء كثيرة. وقـد كان هـذا صدمـة أدبية للـرجل العجوز ايـزنهاور الذى لايملك إلا تأييد نيكسون. وكان صدمـة لرجال الحزب الجمهورى القدماء. ولكن نيكسون أظهر لهم أن عليهم أن يختـاروا بين مجارات التيار العام أو الهزيمة المؤكدة.

وقبل أن أمضى فى شرح بعض نقط الخلاف بين الحزب الـديمقـراطى بزعامة جون كنيدى والحزب الجمهورى بزعامة ريتشارد نيكسون.. يجب أن أبـرز نقطة أخـرى هـامة تضـاف إلى الملامح التى سبق أن ذكـرتها عن نفسية المواطن الأمريكى إزاء السياسة.

السياسة .. والنظريات

إن السياسة فى تاريخ الأمريكى لم تأخذ أبدا شكل «النظرية السياسية» أو «العقيدة الايديولوجية»..

فى أوربا أولا ثم فى أغلب بـلاد العالم.. تعمل الحركات السياسية فى ظل عقائد معينة.. اشتراكيـة أو رأسمالية أو شيوعية. كل حركـة سياسية تحب أن تكـون لها عقيدة عليـا تؤمن بها وتعمل بنـاء على منطقها. ولكن هـذا لم يحدث فى الـولايـات المتحـدة الأمـريكيـة مطلقـا، صحيـح أن فى أمـريكـا حزبانـازيا، وحزبا اشتراكيا، وحـزبا شيوعيا، ولكنهـا كلها ليست أكثر من لافتـات صغيرة على مبـان تضم عشرات أو مئـات. فهى لم تصل أبـدا إلى درجـة الحركـات السياسيـة الكبيرة وقـد ظلت دائما فى معـزل عن الشعب الأمريكى. بل أغلب الظن أن أكثر الأمريكيين لايعرفون انها موجودة !

الأمريكى العادى فى نفســه ازدراء فطرى للنظرية السياسية. فـالنظرية أيضـا.. أى نظريـة.. هى نوع من القيد.. نوع من الالزام.. نـوع من التحديد السابق للخطوات القادمة.

وهذا ينـاقض طبيعة الأمـريكى الفرديـة وطبيعته العمليـة على السواء. لـذلك كان الأمـريكى يفضل دائما فى السياسـة أن يسمع دعوة إلى قـرارات معينة أو اصـلاحات معينة فى فكـرة محددة ليستطيع بذلك أن يحكم لها أو عليها بناء على تقـديره وأثرها عليه. ولهذا أيضـا كان الأمريكى دائما يفضل أن يحكم على «الشخص» نفسه.. وأن يقول لنفسه أن هذا الشخص صفاته كـذا وكفيل بأن يصنـع كيت.. وهـذا بعض مـايفسر لنـا كيف أن أغلبيـة الأمـريكيين كانـوا ديمقـراطيين ولكنهم كانـوا ينتخبـون ايزنهاور مـرشح الجمهـوريين مرتين متـواليتين ! وكيف انهم ينتخبـون برلمانـا ديمقراطيـا وينتخبون رئيسا جمهوريا فى نفس الوقت..

فـالخلاف اذن بين الحزب الجمهـورى والحزب الـديمقـراطى لا يمكن تفسيره على أساس أن لكل منهما «نظرية» سياسيـة تعارض نظرية الآخر. والذين يقـولون انه لا يـوجد بين الحزبين أى وقت، هم الذين يتـوقعون أن يكـون الفرق فى العقيـدة، كالفـرق بين حـزب العمال وحزب المحـافظين فى بريطانيا مثلا، وهذا أمر غير وارد فى هذا المجال ..

تدخـــل الـــدولة

بعض الأمثلة..

● أعلن «كنيـدى» فى أكثـر من مقـال وأكثـر من خطـاب.. أن الـدولـة

أصبحت الآن تواجـه أعباء كثيرة خطيرة. ان الولايـات المتحدة قـد تراجعت عن مركز الاولوية فى أكثر من ميدان بسبب سلبية «الدولة» وعدم شجاعتها فى مواجهة التطورات الجديدة. وذلك فهو إذا تولى رئاسة الجمهورية سوف يتجه إلى «زيادة الانفـاق فى القطاع العام» وترجمة ذلك انـه سوف يتجه إلى فرض ضرائب جديدة.. وانه سوف يـزيد من سلطة الدولة على مرافق كثيرة مثل التعليم والاسكان ومـا إلى ذلك.. وهى كلها أمور متروكة الآن للـولايات وللنشاط الفردى الخاص.

ومعنى ذلك أن كنيدى فى الـواقع يدعو إلى نظام «حكـومة كبيرة».. الأمر الذى يخالـف الاتجاه الأمريكى التقليـدى الذى يفضل «حكـومة محدودة» والحزب الجمهـورى يقف فى وجه هـذه الدعـوة. بل أن بعض زعماء الحزب الـديمقراطى، فى بعض الـولايـات، أعلنوا انهم سيـؤيدون نيكسـون.. «لأن كنيدى عازم على القضـاء على اساس النظام الامريكى الـذى يقوم على فكرة حكومة اتحادية محدودة الاختصاصات»

ولا شك أن كنيـدى يتجـه هـذا الاتجاه وعينـه على تحدى الاتحاد السـوفيتى لأمريكـا فالاتحاد السـوفيتى، لتوافـر السلطة المركـزية فيـه، يستطيع أن يـوجـه التعليم الـوجهـة الفنية التى تـلائم العصر وحـاجـات المجتمع ويستطيع أن يـركـز الصنـاعـة على الأهـداف الاستراتيجيـة مثل صنـاعة الصـواريخ والاقمار الصنـاعيـة.. فى ميـدان النظام الاقتصـادى والادارى فى أمريكـا لا يسمح بهذا إلا فى بطء شديد. لأن السلطة كلهـا فى يد المؤسسات الفردية. وكنيدى طبعا يفكر فى طريقة يتغلب بها على هذه العقبة فى إطار النظام الأمـريكى الفردى.. ولكن هذا بالطبع لن يعفيـه من المقاومة العنيفة التى يشنها المحافظون، مستنـدين إلى التقاليد العميقة التى سارت عليها أمريكا منذ نشأتها.

● والحزب الـديموقـراطى يقـول إن الاتحاد السوفيتى يـزيـد انتاجـه بمعدل ٧٪ كل سنة.. وانه يعلن جهارا نهارا أن هـدفه هو أن يسبق أمريكا. ومعدل الـزيادة فى أمريكا ٣,٥٪ سـنويا، ولذلك يجب زيادة معـدل النمو إلى ٥٪ على الأقل، وهذا معناه تشغيل المصانع بكل طاقتها تقريبا.

والجمهـوريون يقـولون أن هـذه السياسـة سوف تـؤدى إلى التضخم

وارتفاع الاسعار. وأن هـذا سيؤدى بصورة أو بأخرى إلى مـزيد من تدخل الدولة فى مسائل أجور العمال وتحديد أسعار السلع.. وهذا أيضا مظهر من مظاهر تدخل الدولة البغيض إلى المحافظين .

● وقد أراد كنيدى أن يسـجل لنفســه كسبا مرموقـا بين فئات معينة فى أثناء الحملـة الانتخابيـة.. فقدم إلى الكـونجرس مشروعين : المشروع الأول يقضى بـزيـادة الحد الأدنى لأجر العـامل من دولار فى الســاعــة إلى دولار وربع. أى حوالى دولار ونصف فى اليوم زيـادة. فى الحد الأدنى، أى ما يقرب من ٣٥ أو ٤٠ دولارا فى الشـهر.

والمشروع الثانى يقضى بأن تقـوم الدولة ، بالاشـتراك مع الـولايات ، فى وضع نظام للتـأمين الصحى لكل من يزيـد عمره على ٦٥ سنة ويقـل دخله عن ثلاثة آلاف دولار فى الشـهر..

وقد حضرت جلســة عاصفـة للكونجـرس هى آخر جلســة ناقـش فيها قانون زيادة الأجور.. استمرت من الظهر حتى ساعة متأخرة من الليل!

كـان هنـاك جـون كنيـدى المرشح لـرئاسـة الجمهـوريـة يـدافع عن مشروعه.. وكان هنـاك زميله ليندون جونسون زعيم الأغلبية الـديمقراطية فى المجلس والمرشح الـديمقراطى لمنصب نـائب رئيس الجمهوريـة.. وكان هنــاك ديـركسن زعيم الأقليـة الجمهـــوريـة فى المجلس.. ثم كل الأعضــاء البارزين مثل فولبرايت ومانسفيلد وغيرهما.. احتشدوا جميعا لهذه اللحظة الحاسمة.

ومع ذلك فإن هـذه «اللحظة الحاسمـة» لم تمنع من أن يصـوت بعض الشيـوخ الجمهـوريين مع مشروع كنيدى .. وان يصـوت بعض الشيـوخ الديمقراطيين ضد مشروع زعيمهم ومرشحهم لرئاسة الجمهورية كنيدى !

كيف ؟ ....

وقف عضو ديمقـراطى وطالب بـاستثناء بعض المؤسسات من قـانون زيادة الأجـور. وطالب عضو ديمقراطـى آخر باستثناء فئـات أخرى.. ولم أفهم أول الأمر مغزى هـذه الاستثناءات المطلوبة.. إلى أن ظهـر من مناقشة الأعضــاء العنيفـة أن العضو الأول يـدافع عن مصــالح شركـات الفنـادق

الكبرى، مثل هيلتون وشيراتون وستاتلر، وأن العضو الثانى يدافع عن مصالح مصانع السيارات.

واضطر كنيدى ، لكى يفوز مشروعه ، أن يقف ويتنازل عن بعض أجزاء منه فأصبح القانون ينطبق على أربعة ملايين عامل بعد أن كان المفروض أن ينطبق على خمسة ملايين.

أما مشروع الرعاية الصحية لمن يزيد عمرهم على ٦٥ سنة.. فقد أثار عاصفة أخرى شديدة.

قال «بارى جولد ووتر» الزعيم الذى يعبر عن أفكار المحافظين أن هذه الأعمال يجب أن تترك للتبرعات ولمؤسسات الخير لا للدولة.

ونشرت اتحادات المهن الطبية إعلانات فى الصحف ضد المشروع تقول فيها مامعناه أن الدولة تحشر أنفها فيما لا شأن لها به.

وقال احد هذه الاعلانات العجيبة أن الأطباء يقررون أن العواجيز صحتهم جيدة كالشباب تماما، لا يختلفون عنهم إلا فى أنهم احتفلوا بأعياد ميلادهم مرات أكثر!! وقالوا ان تتبنى الدولة لعلاج العواجيز فيه اهانة لهم.. إذ انه يجعلهم يشعرون أنهم أقل قدرة على الاعتماد على أنفسهم من سائر المواطنين!!

والمشكلة هنا أيضا هى : زيادة الضرائب، وزيادة تدخل الدولة وتغلغل اختصاصاتها فى جميع الولايات !

والمحافظون يطلقون على هذا الاتجاه نحو نمو مسئوليات الدولة اسم : الاشتراكية المتسللة وهذا من باب التشهير طبعا. ذلك ان كلمة الاشتراكية فى أمريكا هى التهمة التى تعرض المتهم بها للفشل الذريع! ولذلك فعندما سئل «نورمان توماس» زعيم الحزب الاشتراكى الأمريكى - وهو حزب متقاعد - والذى رشح نفسه ست مرات لرئاسة الجمهورية، ويبلغ من العمر ٨٦ سنة..

عندما سئل كنيدى فى التليفزيون هل يؤيد كنيدى أم نيكسون؟. قال ضاحكا: لا أريد أن أؤيد واحدا منهما، لأن تأييدى سيكون بمثابة «قبلة الموت» بالنسبة له..

الــــــدين .. !

يأتى بعد ذلك موضوع هام جدا بالنسبة للانتخابات، هو فئات الشعب الامريكى وطوائفه .

شعب الولايات المتحدة الأمريكية فيه حوالى ٤٠ مليونا من الكاثوليك وستة ملايين يهودى وسبعة عشر مليون زنجى .. ثم هناك أقليات أخرى كثيرة صغيرة العدد.. وتبقى بعد ذلك كتلة كبرى بروتستانتية من أكثر من مائة مليون..

وهناك أيضا فئة كبرى يسمونها «العمال المنظمون» أى العمال الذين تضمهم اتحادات ونقابات، وعددهم حوالى ١٧ مليونا.. تمييزا لهم عن سائر الفئات العاملة فى كل مكان من الولايات المتحدة.

هذه «الجغرافيا البشرية» لابد أن يدرسها ويحيط بها كل من يتصدى لترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية..

وأبرز مشكلة هنا هى مشكلة الكاثوليك. ذلك أن جون كنيدى مرشح الديمقراطيين كاثوليكى. ولم يسبق فى تاريخ الولايات المتحدة كلها أن تولى رئاسة الجمهورية أى رئيس غير بروتستانتى. وقد رشح الديمقراطيون مرة فى سنة ١٩٢٦ مرشحا كاثوليكيا فانهزم هزيمة ساحقة بسبب مذهبه الدينى.

وقد تعرض كندى أول الأمر لحملات عنيفة داخل الحزب تطالبه بالتنحى عن الترشيح لأن الشعب الأمريكى لن ينتخب كاثوليكيا لرئاسة الدولة. ولكن كنيدى هزم هذه الاعتراضات، بنجاحه فى الانتخابات التمهيدية فى بعض البلاد.. وبهجومه المباشر على استخدام الدين فى الانتخابات. وقد قال فى ذلك مرة. لايمكن أن يكون مصير هذه المعركة قد تقرر يوم مولدى.

وقضية الدين هذه لايتحدث عنها أحد . ولكنها فى رأيى الشخصى لم تندثر تماما.. ومن المؤكد أنها ستكون أحد العوامل المؤثرة فى الانتخابات القادمة.

أنصار كنيدى لايعترفون علنا بأن الكاثوليك سينتخبون كنيدى بصرف النظر عن اتجاههم السياسى . لأن هذا قد يؤدى إلى رد فعل مضاد بين

أفراد الأغلبية البروتستانتية فينتخبون نيكسون.

وأنصار نيكسون لايستخدمون حكاية الدين علنا ضد كنيدى.. وإلا فسوف يظهر كنيدى فى هيئة المضطهد وقد استخدم كنيدى هذا بمهارة فى الانتخابات التمهيدية ليحول عواطف الناس إلى جانبه.

ولكن الكثيرين جدا يهمسون بها فى أحاديثهم.. ومازال هناك شهران كاملان قبل يوم الانتخابات !

بعد ذلك يجىء سائر الفئات والأقليات وهنا نلاحظ فرقا بين التكتيك الذى يتبعه نيكسون والتكتيك الذى يتبعه كنيدى.

نيكسون يحاول ابراز نفسه كشخص عام، ليس نصيرا لفئة معينة نجح به ايزنهاور. ولذلك فهو مثلا يضع فى «هيئة قيادة» حملته الانتخابية بعض الديمقراطيين الذين يعارضون كنيدى!

أما كنيدى.. فهو يحاول أن يضمن فئات معينة فى عمليات حسابية دقيقة. ولذلك فهو أكثر اهتماما بكسب الفئات والطوائف.

وقد كسب كنيدى بالفعل «العمال المنظمون» ورؤساء اتحادات العمال فى كل مكان يشنون الحملة من أجل انتخابه.

ومشروعاته الخاصة برفع الحد الأدنى للأجور والرعاية الصحية لكبار السن سوف تكسب له فئات أخرى محددة. يجىء بعد ذلك اليهود ..

وبالرغم من أن نيكسون وكنيدى على السواء يهتمان بأصوات اليهود لعددهم أولا ولقوتهم فى مجال الاقتصاد والمال والصحافة.. فإن مجهود كنيدى أكبر.. يساعده على ذلك أن نفوذ اليهود فى الحزب الديمقراطى أكبر من نفوذهم فى الحزب الجمهورى.

واليهود فى أغلب الظن ـ يؤيدون كنيدى، وان كانوا يهتمون بألا يضعوا البيض كله فى سلة واحدة ! ولذلك فعندما قال بعض المعلقين ان اليهود سيعطون أصواتهم لكنيدى.. وانهم يريدون نجاح رجل من الأقلية الكاثوليكية لأن هذا يعنى ، من حيث المبدأ ، انه يمكن أن يتولى رئاسة الجمهورية ، ذات يوم ، رجل من الأقلية اليهودية.. عندما قيل هذا ثاروا.. واحتجوا .. إن اليهود ليسوا «كتلة انتخابية» واحدة.. وانهم سيعطون أصواتهم كأفراد .

لماذا ثاروا ؟

لأن اليهود حريصون على ألا يشعروا سائر الأمريكان بأنهم يكونون تكتلا خاصا له سياسة خاصة فى داخل البلاد إنما هم مواطنون متفرقون. وهذا طبعا غير صحيح وولاؤهم للحركة الصهيونية ولمصالح إسرائيل لاشك فيه. ولكن ظهور هذه الحقيقة يضرهم كثيرا فهم يعملون دائما على اخفائها ؟

الزنوج وافريقيا والانتخابات

وأخيرا يأتى الزنوج.

والكلام عن مشكلة الزنوج طويل.. يحتاج إلى حديث مستقل. والصعوبة التى تواجه كلا من الحزبين هى : كيف يمكن ارضاء الزنوج وكسب أصواتهم دون أن يؤدى هذا إلى فقد أصوات الولايات الجنوبية، المحافظة ، التى مازالت تعارض أى سياسة تحررية إزاء الزنوج.

ولذلك فزعماء كل من الحزبين يتحدثون عن هذه المشكلة وكأنهم يسيرون على حبل رفيع.

ولكن ظهور مشكلة افريقيا كان فرصة لكى يثبت كل من الحزبين أنه مهتم بقضية افريقيا.. وهى ناحية حساسة فى نفس كل زنجى.

آخر حكاية من هذا النوع أن الحكومة الأمريكية اعطت منذ مدة ٢٥٠ منحة دراسية لـ ٢٥٠ طالبا من كينيا. ولكن بقيت مشكلة نقلهم إلى أمريكا الأمر الذى يتكلف حوالى ١٠٠ ألف دولار.

وقالت وزارة الخارجية الأمريكية أنه ليس لديها اعتمادات لدفع هذا المبلغ.

وأسرعت «مؤسسة كنيدى» التى أنشأتها أسرة جون كنيدى للأعمال الخيرية، وأعلنت أنها مستعدة لدفع هذا المبلغ إذا لم تدفعه وزارة الخارجية.

وأرسل نيكسون أحد رجاله.. «جون شلبى» المحرر فى مجلة تايم إلى وزارة الخارجية يوعز إليهم بأن يدفعوا المبلغ بأى شكل، حتى لايدفعه كنيدى.. فغيرت الخارجية رأيها ووافقت على الدفع.

وثار الديمقراطيون وقالوا ان نيكسون يستخدم أموال الدولة فى أغراض انتخابية. وان الخارجية إنما غيرت رأيها بناء على تدخله.. وتطور

الأمر إلى معركة عنيفة بين الجانبين.

أما آخر من دخلوا المعركة فهم نجوم السينما في هوليوود.

والديقراطيون هناك يتزعمهم النجم الشهير فرانك سيناترا.. وقد ظهروا في مؤتمرات الحزب فعلا.

وقد رد الجمهوريون على ذلك بتكوين فرقة من نجوم السينما تدعو إلى نيكسون.. أو مهمتها كما قالوا «خلق صورة دافئة لنيكسون في قلوب الناس».. ومن أبرز أعضاء هذه الفرقة والتر بيدجون ومارى بيكفورد وايرين دن وجون وايرين.. أغلبهم كما ترى من الممثلين العواجيز.

•وقد كتب أحد المعلقين في ذلك يقول : إن الممثلات قد نجحن دائما في ترويج البضاعة التي يدعون لها.. ولكن يجب أن نحذر هذه المرة.. فالبضاعة هذه المرة سوف تجلس في البيت الأبيض !

قررت أن أركب القطار من دنفر (كولورادو) إلى سان فرانسيسكو. صحيح أن الطائرة تقطع المسافة فى ثلاث ساعات فقط بينما يقطعها القطار فى ثلاثين ساعة كاملة. ولكن هذا القطار بالذات يشق أجمل مناطق أمريكا وأكثرها تنوعا .

القطار فيه عربات نوم، وفيه صالونات أنيقة، وغرف تدخين ومطعم، وبار، ودكان صغير لبيع السجائر والأمشاط وأمواس الحلاقة والصحف التى يلتقطها القطار من المحطات التى يتوقف عندها. وبعض عربات القطار لها طابق ثان، زجاجى، يصعد إليه المسافرون لكى يتمتعوا برؤية مشاهد الطبيعة الجميلة التى يمر بها القطار. والقطار كله مكيف الهواء.. وفيه مضيفة حسناء تشرح من حين لآخر، فى ميكروفون، قصة الاماكن التى يمر بها القطار.. وتمر بالركاب لتسألهم فى أى ساعة سوف يتناولون الغداء أو العشاء لكى تحجز لهم مكانا فى المطعم .

أغلب ركاب القطار كانوا من السياح.. وكلمة السياح هنا لا تعنى انهم أجانب. فالواقع اننى ربما كنت الأجنبى الوحيد فى القطار كله. ان السياح فى

نهر الريش.. وملكة الجبال !

أخبار اليوم .. فى :

١٧ / ٩ / ٦٠

أمريكا أغلبهم من الأمريكان.. والخدمـات السياحية كلها تعتمد على السياح الأمـريكان.. فـالامريكى لا يكف عـن السفر والتنقل. وبـلاده أشبه بقـارة واسعة، إذا كان الجو بـاردا فى مكان فهو دافىء فى مكان آخر. أمـا ركاب هذا القطار فقد كـانوا هاربين من جهنم الحر والـرطوبة فى شيكاغـو والولايات الوسطى إلى كاليفورنيا.. إلى شاطىء المحيط الهادى .

وأغلب ركاب القطـار كانـوا من العواجيز.. ان العـواجيز فى هـذه البلاد يتمتعون بشبـابهم حقا ! لـديهم المال الذى جمعـوه طوال العمـر.. ولديهم الفراغ.. وبعكس العواجيز عندنا الذين يـرون الشيخوخة سكوناوركونا إلى الاستقـرار وعـدم الحركـة. إلا حين يعترضـون على الشبـاب.. وجـدت أن العـواجيز هنـا يأخذون الشيخـوخة على انها حـركة وانطـلاق وسياحـة، وفرجـة على خلق الله وبـلاد الله ! فى القطار كان يـوجد ٢٠ امـرأة على الأقل فوق السبعين من العمـر.. كل واحدة منهن تحمل كاميرا، وتقفز إلى النـافذة لتسجل هذا المنظر أو ذاك فى استمتاع عميق. إن الانسـان يسجل أيامه لكى يسترجعها بعد حين.. وكل واحـدة منهن تحس انها ـ وهى فوق السبعين ـ مازال أمامها وقت طويل لكى (تسترجع) فيه !

وكان فى القطـارأيضا بعض الأزواج والـزوجات من الشبـاب.. بعضهم كانوا يتبـادلون الاهتمام لدرجة تثير الشك فى انهم مـا زالوا فى شهر العسل !. ثم كـانت هنـاك (الأسر الكبيرة) الأب والأم يبحثـان دائما عن خمسـة أو ستة أطفال يبرطعون فى انحاء القطار.. بالبيجامات وقمصان النوم فى الليل وعند الفجر.. ثم بنات فى العشرين يلبسن ثيابـا وجودية وبنطلونات قصيرة هستيرية.. وواحدة منهن على الأقل كـانت تحب أن تمشـى حافية.. لا تلبس الحذاء إلا إذا دخلت غرفة الطعام فى ساعة العشاء !

ووجدت أن هـذا القطار فرصـة فذة لكى أقـرأ بعض ما معى من الكتب ففى كل مكـان أنـزل فيه كنت أشترى بعـض الكتب وأقرأهـا، ثم أشحنهـا بالبريد إلى القاهرة لكى اتخلص من حملها. ولكن بعض المدن كانت تمنعنى من القراءة. ووجـدت أن ثلاثين سـاعة كـاملة بـلا عمل ولا نشاط فـرصة نـادرة وأخذت مقعـدا وثيرا فى أحد الصـالونـات بجوار نـافذة كبيرة. هنـا سأقرأ، واتفرج على المناطق الطبيعية البـاهرة، وأتمتع بالشمس وأنا جالس

فى قطار مكيف الهواء ! وبدا لى هذا رائعا حقا .

وجلست بجوار رجل فى حوالى الخمسين فى يده كأس من المارمكيف وفى عينيه دعوة إلى الكلام يوجهها إلى كل من يقع نظره عليه.. زوجته العجوز تجرى بالكاميرا بين النوافذ، وهو يشجعها على أن تنصرف إلى التصوير، ويريد أن يحتمى منها بالانهماك فى أى حديث مع أى رجل ! وكنت أنا الفريسة ! وبعد كلمات قليلة عرف اننى من القاهرة. وكأنه وجد متعة لم يكن يحلم بها ! كان أقصى أمله أن يجد رجلا يحدثه عن انتخابات أمريكا مثلا أو عن مزارع القمح التى يملك مساحات شاسعة منها.. وهاهو يجد رجلا سيحدثه عن افريقيا ونهر النيل والتماسيح والجمال والصحارى ! وفى تلك اللحظة جاءت المضيفة مرجريت تسألنا عن الوقت الذى نفضله للعشاء وأسرع فقدمنى لها على أننى شاب قادم من وادى النيل ! وتفتحت عينا الفتاة دهشة وترحيبا ! ان الناس فى هذه المناطق النائية لا يرون الأجانب بكثرة. وإذا كان الأجنبى من الشرق الغامض الاسطورى يزيد دهشتهم.. دهشة أحيانا تصل إلى حد يشعرك انك مخلوق غريب واقترح عليها العجوز الأحمق أن تعلن فى الميكروفون أن فى القطار شابا من وادى النيل، قائلا انه متأكد أن كثيرين سيحبون أن يسألوننى أسئلة كثيرة وقالت المضيفة انه لا مانع لديها إذا كان هذا لا يزعجنى !

وقلت لها انه بالطبع يزعجنى جدا ! واننى سأبدو كأننى سأقدم لركاب القطار برنامجاً مسليا نظرا لعدم وجود تليفزيون!. وضحكت الفتاة وانصرفت بسلام .

ولكننى من تلك اللحظة، فقدت حريتى! فالنساء والرجال الذين كانوا فى الصالون على الأقل سمعوا هذا الجوار وشاهدوه كله وعرفوا اننى قادم من بعيد.. ولم يعد ممكنا بعد ذلك أن اتمتع بالقراءة أو الوحدة أو التأمل ! .

إذا قرأت فى كتاب.. فلا شك اننى أقرأ لكى أدفع الوحدة والملل.. وتتقدم عجوز شهمة لكى تسلينى بحديثها الممتع ..

إذا جلست أكتب على المكتب الصغير، يتجمع حوالى ثلاثة أو أربعة يتعجبون: كيف أكتب من اليمين إلى الشمال !

إذا طلبت زجاجة كوكاكولا قبل الطعام.. قال لى رجل: آه ! لقد سمعت

مرة أن بلادكم تمنع شرب الويسكى أو البيرة ! ماذا يصنع السياح إذن ؟.

واضطر أنا أن أشرح له ان هذا ليس ممنوعا.. وان السياح يأتون ويشربون ما يشاءون !

ورغم اننى لا أجيد ولا أصبر على مداعبة الأطفال وملاطفتهم.. فقد وجدت اننى أصبحت أشبه بالمرشحين فى الانتخابات هنا.. لابد أن أثبت لهم انسانيتى.. بأن أداعب الأطفال، وأسأل عن المريض منهم فى الصباح.. أسوة بسائر أهل القطار!.

وقد غمرنى عطف العواجيز لدرجة لم تترك مجالا لأى عطف من البنات ذوات الثياب الوجودية أو البنت التى تمشى حافية القدمين .

والواقع أن الأمريكى العادى طيب وعطوف. ولكن معلوماته عن العالم الخارجى باهتة شاحبة إلى أقصى الحدود. وأحيانا مضحكة. وهو مستعد للتصديق بسرعة إذا عرفت كيف تجعل له أى مسألة تبدو بسيطة غير معقدة. وإذا افترضت انه ليس لديه معلومات كثيرة سابقة عما تشرحه له. والصحف فى هذه البلاد إذا تركت نيويورك وواشنطون وتوغلت فى قلب القارة، لا تزود قراءها بأى ثقافة عن العالم الخارجى. فرغم انها صحف كبرى ولديها أموال طائلة وتوزع أرقاما ضخمة فان اهتماماتها محلية إلى أقصى الحدود. أخبار أمريكا السياسية نفسها لا تحظى بنفس الاهتمام الذى تحظى به الاخبار المحلية للولاية أو المدينة .

وفى بعض ما قرأت خلال الرحلة من أدب أمريكى.. إشارات طريفة إلى هذا.

فجريدة النيويورك تايمز هى التى تعد جريدة سياسية كبرى. لأنها تركز اهتمامها فى القضايا السياسية المحلية والعالمية على السواء. ولذلك فإن قراءها محدودون.

فى مسرحية «منظر من الكوبرى» لارثر ميلر.. حوار بين فتاة كبيرة وشاب فى السادسة عشرة يعمل معها فى متجر كبير.. تقول له الفتاة «لاتحزن! لا يهمك سخرية زملائك لأنك تختلف عنهم ! اقرأ النيويورك تايمز كما تشاء ولا تكف عن أحلامك فى أن تدخر نقودا وتدخل الجامعة !» .

وفى قصة «عشاء فى بروكلين» للكاتب الأمريكى «أناتول بروبارد»

يصف ميدانا مزدحما فيقول «انه غاص بكل أنواع الناس.. رجال الأعمال والاولاد والمجرمين والعاهرات والذين يقرأون النيويورك تايمز والسكيرين و.. و.. » فالذين يقرأون النيويورك تايمز هم نوع من الناس.. يريد بذلك طبعا الذين يهتمون بالمسائل العامة !

.. والقطار ساعة ينطلق بسرعة هائلة فى وديان عميقة.. تحف بها تحف بها جبال شامخة مكللة بالثلوج فى هذا الصيف اللافح مغطاة بالأشجار.. وساعة يتلوى كالثعبان على السفوح المنحدرة، يسير ببطء شديد كأنه يتشبث بالسفح ويخاف السقوط.

وفى بعض الأحيان كان القطار يسير فى أخاديد عميقة وحشية.. تحف به صخور عارية تماما.. ليس فيها ورقة خضراء واحدة.. صخور حمراء اللون.. وصخور فى لون البن المحروق.. كأن الطبيعة هنا تظهر عضلاتها القوية الصماء.. الجارحة !.

وأجمل المناطق يمر بها القطار عندما يصل إلى نهر الريش ! أطلق عليه هذا الاسم أول من اكتشفه .. حين وجده مغطى بريش الطيور.

انه ليس نهرا بمعنى الكلمة. ولكنه مجرد خط رفيع ضحل من الماء يترنح على صخور وعرة فى واد ضيق كثيف الأشجار.

ومن هذه الفجوة فى جذر الطبيعة انطلق المهاجرون منذ مائة سنة بحثا عن الذهب.. فاكتشفوا كاليفورنيا ووصلوا إلى المحيط .

وكلنا قرأنا ونحن صغار قصة الرجل العجوز الذى قال لابنائه وهو على فراش الموت انه دفن فى الحقل كنزا من الذهب وأوصاهم أن يقلبوا الأرض حتى يعثروا عليه، ولما مات أخذ أولاده يقلبون الأرض ويحرثونها فتزداد خصبا ويزداد ثمرها.. حتى عرفوا أن هذه الثمار هى الكنز الذهبى الذى أشار إليه أبوهم .

وهذا ما حدث للذين ساروا بجوار نهر الريش بحثا عن الذهب. لقد اغرتهم مناجم الذهب القليلة فى أول الطريق بالاندفاع.. ولكنهم لم يجدوا ذهبا فيما وراء ذلك، وإنما وجدوا أرضا نادرة فى خصبها، وفى تمتعها بأجمل جو طوال السنة.. فانطلقوا يزرعونها ويقيمون فيها، حتى أصبحت كاليفورنيا.. كنز أمريكا وربيعها الدائم وبستانها المثقل بالفواكه !.

وعندما وصلوا إلى المحيط.. أقاموا أجمل مدن أمريكا كلها.. وعلى رأسها سان فرانسيسكو.. أقاموها على أحد عشر جبلا تحيط بها المياه. وأطلقوا عليها اسم: ملكة الجبال!

قصص أمريكية

حدث هذا فى أمريكا .

● ملعب هائل .. ومباراة حامية فى البيسبول .. وعشرات الآلاف من المتفرجين .

وتظهر فى الأفق طائرة.. تهبط فوق الملعب حتى تكاد تلمس رؤوس المتفرجين. وتقذف آلافا من المنشورات عنوان المنشورات «قد يحدث هذا لك! ماذا تصنع إذا عدت إلى البيت ووجدت احد المحامين فى فراش زوجتك؟» ثم يروى المنشور كيف أن كاتبه وجد محاميا مشهورا فى فراش زوجته. المحامى عضو فى مؤسسة كبيرة قوية للمحاماة . وبذلك فهو يكرس المحاماة والقضاء للحيلولة دون الزوج وأخذ حقه عن طريق القضاء ! كما يكرس نفوذه لمنع الصحف من نشر اتهامه وشكواه ! ولذلك لجأ الزوج إلى هذه الطريقة ليفضح بها المحامى الكبير !!

● فى شيكاغو.. خرج رجل من السجن بعد أن قضى فيه أكثر من عشرين سنة. الرجل مجرم سابق ومن خصوم آل كابونى زعيم العصابات المشهور منذ ٣٠ سنة. كان أحد الذين اعترفوا على آل كابونى ووشى بأعضاء عصابته فى بعض القضايا .

ركب الرجل سيارة إلى بيت أخته وهو يتفرج على الدنيا التى تغيرت بعد ربع قرن من دخوله السجن . وعلى باب بيت أخته انهال عليه الرصاص كالمطر من مدفع رشاش.. وسقط ميتا.. وهرب القتلة !

قالت الصحف انه ثأر.. عمره ربع قرن من بعض الذين اعترف عليهم من العصابات الأخرى القديمة !

● أول سائق سيارة فى العالم يصبح لديه سائق خاص به !

زنجى يعمل سائق سيارة تاكسى فى نيويورك. اقتصد مبلغا من المال واشترى سيارة رولز رويس فاخرة بحوالى أربعة آلاف جنيه ! ثم استعملها كتاكسى يستأجره زوار المدينة باليوم أو بالساعة !

التاكسى الوحيد للرولزرويس.. وليس له عداد وليس له لون شركات التاكسى!

زوار المدينة من هواة الفخفخة والظهور كنجوم السينما وكبار الفلاحين وملوك البترول، يستأجرون السيارة بسائقها الزنجي بأسعار تصل إلى ٢٠ جنيها فى اليوم الواحد! عندما جاء خروشوف إلى المدينة، استأجرت له البلدية هذه السيارة الفاخرة!

زاد الضغط على السائق الزنجي فاشترى لنفسه سيارة أخرى عادية واستأجر سائقا لكى يوصله كل يوم إلى مقر السيارة الرولزرويس ويعيده منها إلى البيت!

قال سائق السيارة انه يتقاضى من مخدومه حوالى ١٠٠ جنيه فى الشهر!

● أكاديمية العلوم الطبية أعلنت أن شابا وشابة عمر كل منهما لا يزيد على ١٧ سنة توصلا إلى اكتشاف علمى خطير قد يقود إلى اكتشاف أول علاج للسرطان!.

الشاب أمريكى أبيض والشابة أمريكية زنجية.. كلاهما يدرس فى أحد المستشفيات.. قررت الاكاديمية تزويدهما بكل ما تستلزمه مواصلة ابحاثهما!.

المسرحية الجديدة لتوفيق الحكيم

أخبار اليوم .. في :
١٢ / ١١ / ٦٠

سافر توفيق الحكيم إلى باريس حيث عاش أكثر من سنة . وقبل سفره أعلن انه يذهب إلى هناك ليرى ويحس آخر التطورات والتيارات التي تعصف بهذا العالم .. وليسجل هذا كله في عمل فني كبير ، يتفرغ له هناك ، بعيدا عن الأضواء .

وقد ظهر في السوق أمس هذا العمل الفني الذي وعد به توفيق الحكيم .. وقد جاء هذا العمل مسرحية جديدة اسمها « السلطان الحائر » .. وقالت لنا المقدمة إن توفيق الحكيم طبعها باللغة الفرنسية أولا ، في باريس، تحت اسم « اخترت ! »

أما المشكلة التي اختارها توفيق الحكيم من بين المشاكل العالمية ، بكلمات المقدمة . « عندما كان المؤلف في باريس يقضي فترة يشهد فيها ما يجرى في عالم اليوم » فإن وحيها هو ذلك السؤال الذي يقف عالمنا اليوم حائرا أمامه : هل حل مشكلات العالم هو الاحتكام إلى السيف أم إلى القانون ؟ في الالتجاء إلى القوة أو إلى المبدأ ؟.. ان أصحاب السلطان يقفون الآن وفي يمناهم القنبلة الذرية أو الهيدروجينية وفي يسراهم القانون أو المبادىء .. في

جانب القواعد الصاروخية وفى الجانب الآخر هيئة الأمم ، وهم حائرون خائفون لايدرون .. أو هم لا يجرؤون على اتخاذ القرار الحاسم : أيهما يطرحون وأيهما يستبقون ؟ ايهما يطرحون وأيهما يحتاج إلى شجاعة أكبر أيهما يعرض لخطورة أفدح ! . هذا الموقف الحائر الخائف من مسئولية الاختيار النهائى بين السيف والقانون قد جر العالم كله معه إلى هذه الحيرة الشاملة والاضطراب العام » .

ولابراز هذا المعنى .. اختار توفيق الحكيم إطارا شرقيا قديما هو عصر المماليك ..

ففى ساحة المدينة نجد رجلا مربوطا إلى عمود ، وبجواره جلاد ، مكلف بأن ينفذ فيه حكم الاعدام إذا أذن المؤذن لصلاة الفجر .. ولكن غانية تسكن البيت المقابل فى الساحة تستطيع أن تؤخر المؤذن عن موعده فلا ينفذ حكم الاعدام .. إلى ان يستطيع المحكوم عليه ان يرفع شكواه إلى السلطان الذى يجىء إلى الساحة ومعه الوزير وقاضى القضاه لمحاكمة الرجل ..

ويظهر ان تهمة الرجل هى أنه قال فى الأسواق ان السلطان عبد رقيق كان مملوكا من مماليك السلطان المتوفى ، ولكن السلطان المتوفى لم يعتقه قبل أن يموت كما يحدث عادة .. ولذلك فالسلطان مازال عبدا .. وبالتالى فهو لايستحق أن يكون حاكما شرعيا للبلاد ..

لقد علم الوزير بما يقوله هذا الرجل فقرر ان يعدمه . ولكن السلطان حين جاء وعلم بالأمر سخر منه ..

فالأمر ليس سوى اشاعة سخيفة .. ويكفى ان ينشر على الناس بيانا بنص وثيقة العتق التى حررته من ملكية السلطان المتوفى كسائر المماليك ولكن الوزير يضطرب ويصارح السلطان لأول مرة بأن السلطان المتوفى ـ فعلا ـ قد نسى أن يعتق السلطان الحالى قبل أن يموت ، وانه لا توجد وثيقة بهذا المعنى فى خزائن الدولة ..

ونحن بذلك نواجه موقفاً غريباً .

ان السلطان رجل عظيم وحاكم عادل محبوب . والبلاد كلها تتمنى بقاءه . ولكن هاهو ذا قد اعترضت طريقه مشكلة قانونية غريبة ..

فما العمل ؟ ..

ان الوزير يقول للسلطان انه لاحل لهذه المشكلة إلا السيف . يكفى ان يقطع السلطان رقبة هذا الرجل لكى تخرس الالسنة فى المدينة ، وينتهى الأمر ، وما هذا إلا لمصلحة البلاد التى تحتاج إلى هذا السلطان ..

أما قاضى القضاة فله رأى آخر لابد من تنفيذ حكم القانون مهما كان سخيفا. فبهذا تتحقق المصلحة الحقيقية للسلطان، وللبلاد، وفى المدى الطويل ! وحكم القانون هنا سخيف حقا ! فحيث ان السلطان كان من ممتلكات السلطان الراحل .. وحيث ان السلطان الراحل ليس له وريث.. اذن فالسلطان الحالى من ممتلكات الدولة ! وحيث انه بهذا الوصف لا فائدة منه للدولة بل انه يكلفها أموالا فالقانون يقضى بأن يباع السلطان فى المزاد العلنى .

ويقترح قاضى القضاة .. ان يباع السلطان فى المزاد العلنى فعلا كما يقضى القانون .. ولكن بشرط أن يتعهد من يشترى السلطان مقدما بأن يعتقه فورا بمجرد شرائه .. وبذلك يصبح السلطان حرا ، ويصبح حائزا للشروط القانونية التى تخوله تولى الحكم !

ولكن من الذى سيدفع ثمن السلطان ثم يعتقه ؟ يقول القاضى انهم كثيرون وان السلطان رجل عادل مصلح محبوب .. وسوف يقبل الناس على شرائه وعتقه كعمل وطنى !

ويسخر السلطان أولا من هذا الاقتراح ! خصوصا عندما يتصور كل ما يمكن أن يحل بهيبة الدولة عندما يباع سلطانها فى المزاد ! ان السلطان حائر « بين القانون الذى يظهره ضعيفا ويصيره أضحوكة أو السيف الذى يصمه بالوحشية ويجعله بغيضا !» والقاضى يقول له « انى معترف بما للسيف من قوة أكيدة ومن فعل حاسم وأثر سريع . ولكن السيف يعطى الحق للأقوى، ومن يدرى غدا من يكون الأقوى ، فقد يبرز من الأقوياء من ترجح كفته عليك ! أما القانون فهو يحمى حقوقك من كل عدوان ، لأنه لايعترف بالأقوى .. انه يعترف بالأحق ! .. والآن ، فما عليك يا مولاى سوى الاختيار بين السيف الذى يفرضك ولكنه يعرضك (بفتح العين وتشديد الراء !) وبين القانون الذى يتحداك ولكنه يحميك .

وبعد حيرة طريفة يختار السلطان حكم القانون ويعرض السلطان فى

الفصل الثانى فى المزاد ! ولكن الـذى يشتريه هـو الغانية! وبعـد أن تشتريه تعلن ان الشرط الذى يحتم عليها أن تعتق السلطان بمجرد شرائه باطل لأنه مناف لعقد البيع ! ويثور القاضى .. ولكن أليس هـذا هو حكم القانون ! انه آخر من يحق له أن يثور بعد أن كان متحمسا للقانون !

ويحاول القاضـى أن يجد تفسيرات للقانـون .. فيسخر منـه السلطان هذه المرة « خيبت ظنى فيك يـا قاضى القضاه ! أهذا هـو القانون فى رأيك ؟ اجتهاد وبراعـة فى التحايل والتلاعب ؟!» .. وهنا يلمس الحكيم ناحيـة هامة خطرة فى القانون : ان القانـون نفسه شىء والتلاعب والتحايل على حكمته شىء آخر ! «مع القانون هناك دائماً حجـة تقارع حجة ، وكلها لا تخلو من العقل والمنطق ! »

ومرة أخـرى تثبت فكرة السيـف مستحيل أن يتحول السلطـان إلى عبد مملوك لغانية ! ولكن السلطان يريدان يمضى مع حكم القانون إلى النهاية.. وتقول الغـانية له أنها لاتريـد أن تملكه إلا ليلة واحـدة فقط .. وأنها سوف تطلق سراحه وتعتقه إذا أذن المؤذن لصلاة الفجر ! ويقبل السلطان !

ونعرف بعـد ذلك أن هذه السيدة ليست غانيـة ! وانها اشترت السلطان ليلة واحـدة بكل ما تملك لا لشـىء إلا لتكسب احترام المدينة ، وهى لاتـريد منه أكثر من أن يجلس فى بيتها ويحدثها حتى يطلع الفجر !

وعندمـا تنتهى المسرحية .. ويعود السلطـان إلى عرشه نعـرف أن الذى خلصه وحماه هـو احترامه للقانـون .. ويقول السلطـان « لم أكن أعرف أن احترام القانون يحتاج إلى شجاعة أكثر من استخدام السيف !»

ولاشك أن المسرحيـة على هـذا النحـو أقـرب إلى الصراع بين السيف والقانـون فى مجتمع البلد الـواحد .. منهـا إلى مشكلة السيف والقـانون فى المجتمع الدولى .. فالصراع بين الحق والقوة فى المجال الدولى له فيما يخيل لى صورة أخرى تماما ..

ومع ذلك فالسؤال الذى اختاره مؤلفنا الكبير هام حقا ..

والنقطة التى تقلل من قوة اقنـاعها للقارىء هى : ان النصر الحقيقى أو الحل الحقيقى للمؤلف لم يجىء عن طريق السيف أو عن طريق القانون ..

لقد كان كل طريق يحمل فى طياته مخاطرة خاصة به ..

ان السلطان رجل صالح عادل محبوب ولكنه لو كان قد بدأ باستخدام السيف، حتى لتدعيم سلطته العادلة ، لقاده هذا السيف إلى سفك الدم مرة بعد أخرى .. ولربما كان هذا نقطة تحول تغيره من سلطان عادل محبوب إلى طاغية مكروه واستخدام القانون كان يحمل أيضا مخاطرة ، إذ كان ممكنا أن يقع السلطان فعلا فى يد مشتر جاهل أو معرض أو سخيف .. ويضيع السلطان العادل المرتجي ويموت متكفنا بنصوص القانون ما الذى حمى السلطان اذن من هذا المصير ؟

حماه ولاشك رأى الشعب فيه واحترامه له .. فهذا هو الذى جعل ضياع السلطان على هذا النحو مستحيلا .. وضد طبيعة الامور .. فالقانون فى حد ذاته «شكل» فحسب .. لابد ان يكون له « موضوع » جيد ..

ولا أدرى هل طاف هذا المعنى بذهن توفيق الحكيم أم لا ، ولكننى على أى حال لم أجده واضحا فى سطور المسرحية ..

هذا عن المسرحية من الناحية « الموضوعية » .. أما من ناحيتها الفنية .. فإننى أتمنى أن أراها أولا على خشبة المسرح حتى تتوافر عناصر الحكم عليها .

رأيت فى أمريكا

«أخبار اليوم» فى :
١٥ / ١٠ / ٦٠

عدت إلى القاهرة بعد أن قضيت شهرين كاملين فى أمريكا كانا أول زيارة أقوم بها إلى هذا « العالم الجديد » .

والانطباعات التى عدت بها من هذين الشهرين ، يمكن أن أنفق فى كتابتها وتسجيلها وتحليلها شهورا طويلة ، وهو ما لا أنوى أن أقوم به طبعا . ان أهمية مثل هذه الزيارة هى أن انطباعاتها تظل مخزونة دائما فى ذهن الكاتب كلما قرأ أو كلما كتب عن البلد الذى زاره وتعرف عليه..

ولكنى أريد أن أكتب مقالا واحدا ، أسجل فيه انطباعا سريعا ، عاما ، عن هذه البلاد الهائلة التى تشغل مثل هذا الحيز الضخم من اهتمام العالم ومن تفكيره ومن التأثير فى مصيره.

وسوف أستبعد من هذا المقال بالذات، الجانب السياسى. ان رأيى فى السياسة الأمريكية بشتى فروعها معروف، وأنا أكتبه كلما جاءت المناسبة.. وزيارتى لأمريكا لم تغير رأيى فيما أرى أنه خطأ أو صواب فى سياستها. وان كانت هذه الزيارة قد أعطتنى تفسيرات جديدة بسبب الخطأ والصواب فى هذه السياسة.

والمصاعب التى تواجه من يريد الكتابة عن أمريكا ـ حتى كمجتمع فقط ـ كثيرة جدا. وهى مصاعب ومزالق أحب أن أسجلها مقدما.. حتى لا أقع فيها وأنا أكتب.. وحتى لا يقع فيها القارىء وهو يقرأ..

مشاكل الكتابة عن أمريكا !

أول صعوبة هى ان أمريكا بلد قوى جدا وإذا أخذنا بأرقام الانتاج فهى أقوى دولة فى العالم كله. وبعض ولاياتها أقوى من دول عظمى مثل ألمانيا الغربية أو بريطانيا أو فرنسا. فهى بلد قوى جدا وضخم جدا. والقوة فى حد ذاتها كثيرا ما تضلل. فالناس بفطرتهم ميالون إلى اعتبار القوة فى حد ذاتها دليلا على الصواب ودليلا على النجاح. وهذا افتراض خاطىء. لقد كان هتلر مثلا قويا. وكانت ألمانيا فى عهده قوية جدا. ولكن هذا لا يعنى ان هتلر كان على صواب أو أن الشعب الألمانى كان يعيش ويفكر كما يجب أن تعيش الشعوب وتفكر. لابد اذن من ادراك أسباب القوة وتحليلها قبل اتخاذها دليلا على الصواب وعلى النجاح..

الصعوبة الثانية فى الكتابة عن أمريكا هى أنها قارة شديدة التنوع. عندما تكون الدولة صغيرة.. مناخها واحد، مساحاتها متقاربة، شعبها من أصل واحد، يكون من السهل الوصول إلى أحكام عامة على هذا الشعب، ولكن أمريكا قادرة شديدة التنوع، مساحتها هائلة. مناخها مختلف، شعبها كله مهاجر من مختلف أنحاء العالم هجرات ليست بعيدة فى بطون التاريخ. لا يمكن مثلا أن تزور نيويورك وتخالط أهلها وتقرأ صحفها ثم تحكم على أمريكا. ان واشنطن شىء آخر. وشيكاغو شىء آخر. وكاليفورنيا. وتكساس. وكولورادو.. وعشرات المناطق الأخرى.. كل واحدة لها صحفها ولها ناسها ولها آراؤها ولها مناخها ولها مصالحها. فمن الصعب اذن اطلاق أحكام عامة مختصرة على أمريكا. التبسيط هنا صعب وخطر ويمكن أن يضللنا إلى حد بعيد..

الصعوبة الثالثة التى أحب أن أسجلها هنا، هى أن أمريكا لها صورة سابقة راسخة إلى حد بعيد فى أذهان الناس. ومن السهل ـــ والخطأ ـ أن يذهب الزائر فيقع تحت تأثير الصورة السابقة فى ذهنه عن أمريكا. وإذا به يبحث هناك عما يؤكد هذه الصورة الراسخة فى ذهنه، بدلا من أن ينظر إلى

الأشياء نظرة متحررة من كل قيد. والصـورة المرسومة لأمريكا رسمتها لها السينما الأمـريكية والبضـائع الأمـريكية. انها بلـد السـابحـات الفاتنـات والسيارات الكبيرة الملونة ورعاة البقر والعصابات والرقص واللهو والحياة السهلة وأصحـاب الملايين والسذاجة الشديـدة. وكثير من هذا صحيح ولا شك. وفى أمريكـا بالفعل كميـات هائلة من نـاطحات السحـاب والسيارات الكبيرة والسابحات الفـاتنات والعصابات والسذاجات الشـديدة. ولكن هذا ليس كل شىء. وأضرب لـذلك مثـلا بـالجامعـات، وهى من الأمـاكن التى اهتممت بزيارتها..

بين الجــد واللعب !

لقد رأينـا كلنا هنا أفلامـا كثيرة تدور حوادثها فى الجامعـات. والصورة التى تعطيها هـذه الأفلام هى ان الجامعات فى أمـريكا أماكن يتطـارح فيها الشباب الهوى، ويحاصر فيها الطلبـة بيوت الطالبات، وأنهاأمـاكن للرقص والتهريـج ولبس الطراطير، وأن الأسـاتذة فى هذه الجامعـات لا هم لهم إلا حل المشـاكل العاطفيـة للطلبـة والطالبـات. ولكن هـذا ليس كل شىء. ان الجامعات الكبرى فى أمـريكا مـن أكثر الجامعـات فى العالم دراسـة وجهدا وارهـاقا. البرامج صعبة ومرهقة وفترات العمل طـويلة وصارمة، وقد قال لى كثير من طلبتنا وطـالباتنا الـذين يدرسون هنـاك انهم يكدحوا كـدحا لكى يكونـوا فى مستوى الـدراسة المتقـدمة هنـاك. وقد أطلعونـى على برامجهم وجداولهم وتمارينهم. ومن المؤكد أن طالب الجامعـة فى أمريكا يبذل ضعف جهد الطالب عندنا على الأقل !

هذا نموذج بسيط، وانى لا سمح لنفسى فى هذه المناسبة، أن أوجه نقدا إلى كثير جدا من الكتـابات الصحفية التى نقـرأها فى صحفنا لكتابنـا الذين يـزورون العالم الخارجى ويكتبـون عن الحياة فيـه. اننا نقـرأ على الأغلب الجانب الظاهـر من هذه الحياة بما فيهـا من مرح أو رخـاء أو تقدم. ولكن قـراءنا لا يجدون الكفـايـة عن الجانب الآخـر. عن الجهد الـذى أنتج هـذا الرخاء. عن التعب الذى يسبق هـذا المرح. وتكون النتيجة أن القارىء كثيرا مـا يتـوهم أن هناك أبسطـة سحـريـة تحمل الناس والمجتمعـات إلى هـذه النتيجـة. ولكن الحقيقـة هى أن البسـاط السحـرى الـوحيـد هـو العمل..

والشعب الأمريكى مثلا من أكثر الشعوب التى زرتها عملا.. وهو يعمل عملا شاقا ومرهقا وعنيفا. ان رخاءه جاء بعد صراع عنيف ضد الطبيعة لاستخراج فحمها وحديدها ولمضاعفة محصولاتها ولترويض جبالها وغاباتها وثلوجها. ناطحات السحاب والسيارات الملونة والسابحات الفاتنات ليست أمريكا. انها أفران الصلب ومصانع الطائرات والحقول التى تجرى فيها التجارب لزيادة طول كيزان الذرة، وسائقو اللوريات الذين يقودون السيارات طوال الليل حاملين أطنان المواد الخطرة والمكاتب الهندسية التى تسهر فى حساب ملايين المكعبات لاقامة المبانى العجيبة. ان الناس هناك يتمتعون بحياتهم حقا. ولكنهم يسفحون آخر قطرة من عرقهم قبل أن يتمتعوا بهذه الحياة. ان البيت المتوسط فيه الثلاجة الكهربائية والفرن الكهربائى والحلة التى تطبخ فى دقائق والغسالة الكهربائية التى تغسل الأطباق.. إلى آخره. ولكن هذه الأشياء لم توجد فى البيت لكى تجلس المرأة على الشلتة طول النهار أو لتثرثر مع الجيران، انما وجدت لكى تجرى المرأة إلى عمل تقوم به وتكسب منه. ولكى توفر المرأة أجر الخادمة والطباخ والغسالة والمكوجى.

وأول ما يلفت النظر فى أمريكا بالطبع هو الرخاء العريض والتقدم المادى الذى لا عهد للمجتمعات البشرية بمثله من قبل. ولست فى حاجة هنا إلى أن أسرد أرقام الانتاج الضخمة التى تقول ان أمريكا تستهلك ٧٠٪ مثلا من الورق الذى يستهلكه العالم كله.. إلى آخر هذه الاحصاءات. ولكننا إذا أخذنا السيارة مثلا كنموذج فسوف نجد ان الولايات المتحدة يجرى على أرضها ٨٥ مليون سيارة خاصة، أى بمعدل سيارة لكل شخصين. وانتاج أمريكا المطرد من السيارات الخاصة يصل إلى ٢٠٠٠٠ سيارة فى اليوم الواحد. وإذا كانت السيارة الجديدة الكبيرة يصل ثمنها إلى آلاف الدولارات، فإن أى طالب من طلبتنا هناك مثلا يدخر من مرتبه ويشترى سيارة قديمة بمائة أو بمائتى دولار.

هل عندهم « وصفة » سحرية ؟

وعدد الذين « يعملون » ويكسبون فى الولايات المتحدة يزيد على ٦٠ مليونا، أى أكثر من ثلث عدد السكان جميعا. وهى نسبة عالية جدا ولا شك. لأن الذى يعمل هناك ليس رب الأسرة وحده. فالرجل يعمل

وزوجته تعمل وأولاده وبناته يعملون ولـو فى أوقات الفراغ وأيام الاجازات. والقانون يحدد الحد الأدنى للأجـر بدولار فى الساعة أى حوالى ٢٠٠ دولار فى الشهـر. وهـذا الحد الأدنى يـزيـد عنـه بكثير أغلب الـذين يعملـون فى الصناعات والتجارات الناجحة بالطبع.

الثراء المادى اذن هو أبـرز ما فى أمريكا. هـو صفتها التى تشتهر بها فى العالم كلـه. وهو الـرد الذى تـرد به أمـريكا على كل مـن ينتقدهـا أو ينتقد أنظمتها. وهـذه الدرجة العـالية من الثراء هى (السبب ــ فى رأيى ــ فى كثير جـدا من الأخطاء التى يأخـذهـا العالم الخارجى على أمـريكا. ذلك أن هـذا النجاح الكبير الذى حققوه فى فترة قصيرة نسبيـة جعلهم يعتقدون انهم قد وجدوا «الوصفة» السحريـة التى يكفى أن يطبقها أى بلد آخر لكى يصل إلى هذه الدرجة من الثراء. وكثيرا مـا يقابل الزائر، حتى بين المواطنين العاديين، من يتعصبون لهذا الموقف تعصبـا شديدا. فكل من لا يسلك طـريقهم لابد أنه يسلـك الطريق الخطأ.. أو كما قـال أحد كتـابهم السـاخريـن مرة «انهم يرون كل أجناس المهاجرين يأتون إلى بلادكم لكى يتأمركوا.. ولذلك فانهم يدهشون أحيانا حين يجدون كثيرا من بلاد العالم لا تريد أن تتأمرك!!».

ولكن الاعتقاد فى امكـانية تطبيق الأسلـوب الأمريكى فى أى مكـان آخر، خطأ بـالطبع.. تمامـا كـالخطأ الـذى يـرتكبـه من يحاول تفسير أمـريكـا بالظـروف القائمـة فى بلاد أخـرى غيرها. فـلا شك ان هناك ظـروفا كثيرة خاصـة بأمريكا سـاهمت فى تحقيق هذا النجاح السريع. من هـذه الظروف ولاشك اتساع البـلاد وتنوع ثـرواتها الطبيعية تنـوعا هـائلا.. لكل المعادن وكل النباتـات وكل أنواع المناخ تتوافـر فيها.. ولو أن الولايـات التى تكونت منهـا الدولـة آثرت الانفصـال ولم تتحد فى وطن واحـد كبير، لما وصلت كل ولاية منهـا إلى الثراء الـذى بلغته الآن. ولكنها حين آثـرت الوحـدة فى كيان كبير، انما اتخذت أهم قـرار فى حياتها. وكل ولايـة تحتفل إلى الآن كل سنـة بذكرى انضمامها إلى الاتحاد احتفالا شعبيا كبيرا.

ومن هذه الظروف أن هذه البلاد بدأت بـداية جديدة تماما. التطور فيها بدأ حرا، فى أرض جـديدة، ولم يولد فى بيت قديم فيـه كل أفكار البيت القديم وقيوده ومشاكلـه. فهذه البلاد أقامها مهـاجرون مغامرون أقـوياء، جاءوا

اليهـا من أوروبا فـرارا من كثير من أثقـال الماضى التى كـانت تضغط على كاهل التقدم الصناعى فى أوروبا وتعديـه بكل أمراض الوراثة. بعضـهم جاء فـــرارا من الاضطهـــاد، وبعضـهم جـــاء فـــرارا من الاضطهـــاد الطبقى والاجتماعى. وبعضـهم جـــاء فـرارا من نظـــام الاقطــاع. وبعضـهـم جـاء ليتخلص من الاضطهـاد الـدينى ومن تـدخل الكنيسـة فى شئون الـدولـة وشئون التعليم والبحث العلمى.

وبعضـهم جاء فـرارا من زحام العالم القـديم أو من فقر الطبيعـة فى هذا المكان أو ذاك. كلهم جاءوا إلى هذه الأرض العـذراء الخصبة وكل واحد جاء مصمما على أن يقيم هنا عـالمه الخاص به. ان يصنع الـرخاء والثـراء الذى يحلم به. هنا لا توجد حروب ولا امبراطوريات ولا نزاع على حدود ولا حرب بين أديان ولا قوميـات ولا أحلام وطنية، لا شـىء هنا يشغل المهـاجر الفرد عن الانصراف إلى هدف أســاسى له وهو: الرخــاء المادى.. الحياة الوفيرة.. السمن والعسل!

الشـاب فى أوروبـا منذ قـرنين مثلا كان يـولد ليجـد أمامـه أشياء كثيرة تشغله: الأسرة. الحواجز الطبقيـة. المنازعات الفلسفية والـدينية. الحروب. العصبية الـوطنية. الحركـات السياسيـة.. إلى آخره. أمـا الشاب فى أمـريكا فكـان يولـد لكى لا يجد أمـامـه إلا مهمة واحـدة تنتظـره: أن يعمل وينتج ويكسب.

أن يفلح أرضـا، أن يهاجر إلى منطقة ظهرت فيهـا مناجم جديدة أو يفتح دكانا صغيرا. كـان كل ما يريده المهاجرون ألا يتـدخل أحد فى شئونهم. ألا يقـول لهم أحد كيف يجب أن يعبـدوا الله.. ولا تطـالبهم حكـومة بضريبـة ولا يدعوهم قائد إلى القتال ولا يجدوا فى طريقهم حواجز جمركية.

ومن هذا كله ولـد النظام الفردى والعقيدة الفردية وكـراهية أى نشاط حكـومى، وولــد الانكبـاب على تحقيق التقـدم المادى ورفـاهيـــة الحيـاة الشخصية.. هـذا وحده هـو مجال الغزو، ومجال الطمـوح، ومجال الفكر، وكانت الأرض الشاسعة الغنية تسمـــح لهذا النشاط كله بأن يتزايد دون أن يصطدم أو يتزاحم بالمناكب لفترة طـويلة. كانت هى فترة وضع الأساس فى بناء هذا المجتمع المتنوع الكبير..

المثـــل الأعـــلى

يقول المفكر الأمريكى «ماكس ليرنر»: ان الرجل الذى كان يعد مثلا أعلى فى حضـارة اليونـان هـو المفكر الثـرى المتفـرغ للفلسفة.. وفى الحضـارة الرومانية هو الجنـدى الادارى الحاكم.. وفى ألمانيا كان الضابط الكفء من أسر اليونكرز، وفى انجلترا كان المغامرون بناة الامبراطورية.. وفى الشيوعية هو العامل العقائدى العضو فى الحزب.. أما فى أمريكا فالرجل الذى يعد مثلا أعلى هو «رجل الأعمال»! وهـذا صحيح! ان الأبطال فى حيـاة أمريكـا الذين تحس ببطولتهم بين الناس هناك ليسـوا مبشرين دينيين ولا قادة عسكريين ولا مفكـرين سيـاسيين.. انهم روكفلـر وفـورد وكـارنيجى وفـانـدربلت وديبون!! كل واحـد يحلم لبضاعته وتجارتـه بامبراطوريـة كما كان يحلم دزرائيلى بامبراطورية بريطانيا مثلا!!..

هذا التصـوير الخاطف لتـاريخ أمريكـا ونشأتها ونفسيتها، هـو الذى يفسر لنـا مثلا «سيـاسة العـزلة» التى كـانت أمريكـا تدين بها وتعتبرهـا أسـاسا لكيـانها إلى ثلاثين سنـة مضت! فحتى بعد أن حـاربت أمريكـا فى الحرب العالمية الأولى قررت سنة ١٩٢٠أن ينسحب من عصبة الأمم وتعود إلى سيـاسة العـزلة عن العـالم ومشاكلـه. وكـانت هذه السيـاسة تـرجمة لاحساس الفرد المهـاجر الذى جاء ليبنـى رخاء ماديا ولا يـريد أن يعود إلى مشاكل العالم القديم، وفى رأيى أن روزفلت بالذات لعب دورا كبيرا فى اقناع أمريكا بـالخروج عن سياسة العزلة نهائيا. صحيح ان هنـاك أسبابا كثيرة موضـوعية لـذلك منها نمـو مصالح أمـريكا الاقتصـاديةوحـرص أقطاب الـرأسماليـة فيها على مكـافحـة الشيـوعية والمذاهب غير الفـرديـة، ولكن روزفلت أيضـا استطـاع أن يوقظ فى الشعب الأمريكى عـاطفة جديـدة نحو أوروبا.. أشبه بعاطفة ساكن المدينة حين يحن إلى القرية التى أنجبته.. فهو يحب أن يساعدها وينفق فيها بعض ثرائه!

العلمـــاء .. العلمـــاء !

ولا يمكن أن نفهم التقدم الـذى حققته أمريكا دون أن نـذكر دور العلم والتكنيك. فأمريكـا كما هاجر اليهـا ملايين الذين لا يجدون الرزق، هـاجر اليها أيضـا آلاف من خيرة علماء أوروبـا ونوابغها، وفى فترة ما بين الحـربين،

وبعد الحربين، هاجر العلماء الذين وجدوا أن أبحاثهم العلمية التى تحتاج إلى المال والاستقرار والهدوء لا تجد مجالها فى حروب أوروبا وصراعها ونظمها العنصرية. وإذا كان اينشتين وفون براون مثلا من الأسماء التى اشتهرت بحكم اتصالها بالأبحاث الذرية والصواريخ، فإن كثيرين جدا غيرهما ممن يعملون فى مجالات أخرى هاجروا ووجدوا التربة الخصبة التى يريدونها هناك، وفى قوانين الهجرة تجعل أمريكا الأولوية لذوى الدرجات العالية فى الفروع العلمية بالذات، والظروف التى جذبت العلماء من الخارج أنجبت بالطبع علماء كثيرين من الداخل.

والعلم البارز فى أمريكا علم تطبيقى، علم يرتبط بالفائدة العملية. لم تشتهر أمريكا بالأبحاث الفلسفية أو العلمية المجردة، فالنظريات العلمية التى تولد فى أوروبا مثلا كمجرد نظريات، تتحول فى أمريكا إلى تجارب وتحسين واتقان ومخترعات عملية. تتحول إلى تليفون وتليفزيون ونفاثات ومصانع تسير بالأوتوميشن. فهو العمل الذى يصنع سلعة تباع وتدر ربحا. لأن الأمريكى، بحكم كل ما سبق، يؤمن بالأشياء لا بالأفكار. يؤمن بالأشياء التى تتحقق ماديا لا بالتمرينات العقلية!

هذا التقدم الهائل قد اكتسح الفقر فى الولايات المتحدة كما لم يحدث للفقر فى أى مكان آخر. ولكن ليس معنى هذا أنه لا يوجد فى أمريكا فقراء.. فمازال هناك فقراء. ومازالت هناك مناطق تملؤها الأكواخ. وقد تعودنا أن نجد الفقراء أغلبية مما يساعدهم على رفع أصواتهم، ولكن الفقراء فى أمريكا أقلية، وهذا مما يضاعف أزمتهم. ففى المجتمع الذى يأخذ بالنظام الديمقراطى الرأسمالى تصبح الأقلية الفقيرة ضعيفة قضية اجتماعية كبيرة تشغل المجتمع وتثير قلقه واهتمامه..

المفاجـــأة!

على أن لكل مجتمع مشاكله وأمراضه، وهذا الثراء المادى الكبير والحرية الاقتصادية الواسعة، لهما أمراضهما التى بدأت تقلق المثقفين بالذات، خصوصا فى هذا العالم المتغير المتطور بسرعة كبيرة..

ولا شك أن الذى رفع موجة القلق والنقد هذه إلى قمتها أمران: الأمر الأول هو الصدمات التى منيت بها السياسة الأمريكية الخارجية فى مناطق

كثيرة، والأمر الثانى هو القمر الصناعى السوفيتى وتفوق الاتحاد السوفيتى المفاجىء فى ميدان علمى دقيق، هو الصواريخ.

لقد هزت هذه الأحداث ثقة الأمريكى المطلق فى أن نظامه ـ كما هو ـ هو الطريق الوحيد، وفى أن المسافة بينه وبين سائر جهات العالم لا يمكن أن يقطعها أحد! لقد كان اطلاق القمر السوفيتى مفاجأة تامة للشعب الأمريكى.. لأن الدعاية الصحفية الأمريكية فى الداخل ـ وهى فيما يتعلق بالعالم الخارجى ضيقة الأفق إلى أقصى الحدود ـ كانت توهم الشعب الأمريكى بأن الاتحاد السوفيتى متخلف ويزداد تخلفا.. أو كما قال دكتور جالبريث: ان فى أمريكا صناعة نشيطة.. هى صناعة اثبات أن التقدم السوفيتى غير صحيح!

تصوروا مثلا المفاجأة التى نحس بها لو ظهر أن القمر مثلا فيه سكان.. وأنهم متحضرون.. وأنهم قد تفوقوا علينا نحن سكان الأرض فى شىء ما! هذه المفاجأة هى نفس المفاجأة التى شعرت بها أمريكا إزاء القمر السوفيتى الأول..

وفى الولايات المتحدة الآن سيل من الكتب والأبحاث والخطب والمناقشات عن المشاكل التى تواجه أمريكا.. وعن النقائص التى يجب أن تعترف بها وتواجهها.. مشاكل المجتمع الثرى.. وأظن أن كريستيان هيرتر وزير خارجية أمريكا هو الذى قال مرة: ان المجتمع الأمريكى أصبح «ناعما» أكثر مما يجب..

الدكاكين معابد.. والاعلانات أناشيد !

مثلا .. هذا الرخاء المادى الكبير، هذه الثروة الانتاجية التى لا مثيل لها، تقاسى من المبالغة فى المنافسة التجارية الشديدة، ومن الجرى المستمر وراء زيادة المبيعات، باقناع المستهلك دائما بأن يلقى ما لديه ويشترى غيره.. مدفوعا بكرابيج الاعلانات التى تلهب ظهره وبأن اقتناء آخر طراز هو دليل النجاح والتقدم والتمتع بالحياة.. هو رمز مضى الزمن إلى الأمام فى نظر المواطن الأمريكى.. وليس أبلغ فى نقد هذه المبالغة من كلمة ادلاى ستيفنسون اللاذعة «لقد أصبحت محال البضائع معابدنا، وأغانى الاعلانات أناشيدنا القومية!»

لقد قال ادلاى ستيفنسون كلمته هذه فى مقال هام، اشترك به فى مناقشة كبيرة استغرقت شهورا. مع عدد كبير من أبرز مفكرى أمريكا، أشرفت عليها مجلة «لايف». كان موضوع المناقشة «هل للشعب الأمريكى هدف قومى؟..»

وقدم هنرى لوس رئيس تحرير «المجلة» هذه المناقشة قائلا: «ان الشعب الأمريكى شعب عظيم.. ولكن هل هو النوع الصحيح من العظمة؟ اننا نريد الحرية مثلا.. ولكن هل نعرف تماما ماذا نريد أن نصنع بهذه الحرية؟..»

والاشارة إلى بعض ما جاء فى مقال ادلاى ستيفنسون فى هذه المناقشة اليمة حقا، وتعطى صورة لما يحسه كثير من الأمريكيين الآن.

لقد تحدث ستيفنسون عن القطاع الخاص والقطاع العام فى الحياة الاقتصادية. وقال: ان أمريكا يجب أن تعترف أن لكل قطاع مهمته. وان تحقير القطاع العام ومهاجمته واقصاءه أمر ليس سليما «فمجرد السعى وراء المصلحة الخاصة لا يؤدى دائما إلى الخير العام كما كان أهل القرن الثامن عشر يعتقدون. أن كثيرا من المشاكل الاجتماعية تتراكم حين تنفرد المصالح الخاصة بتقرير صورة المجتمع. وعلى أحسن الفروض، تتحول الدولة إلى «مجموعات مصلحية» تضغط لمصلحة نفسها، على حساب الضعفاء والمعزولين وغير المنظمين. ان الصورة التى يراها العالم للأسرة الأمريكية هى صورة وحدة ذات قدرة استهلاكية عالية، مع حد أدنى من المسئولية والرابطة الاجتماعية.. صورة أب سعيد وهو يشرب بيرته المفضلة، وأم تلبس ثيابا فاخرة من أحدث طراز، وأطفال ضاحكين يلتهمون سندويتشات غنية، وخلفهم بالطبع سيارة ممشوقة فارهة! ولاشك أن كل شعب فى العالم يريد أن يكون لديه كل هذا. ولكن كل هذا.. ليس هو كل ما يريدونه. ان الدرجة العالية من الاستهلاك الشخصى ليست الهدف الوحيد فى الحياة، ولا يمكن أن تكون الاجابة الوحيدة التى نقدمها للتطور الثورى الحادث فى أنحاء العالم! ان جوا من عدم الاهتمام وعدم الالتزام يحوم فوق أقوى وأغنى مجتمعات العالم».

انتهى كلام ادلاى ستيفنسون. وادلاى ستيفنسون ليس مفكرا بارزا له

تأييد كبير بين المثقفين فى أمريكا فحسب، ولكنه زعيم سياسى، رشح لرئاسة الجمهورية مرتين، ومازال من أبرز أقطاب الحزب الديمقراطى.

واشارة ستيفنسون إلى «الجماعات الضاغطة Pressure groups تحتاج إلى تفسير سريع. فقد شهدت مناقشة للكونجرس حول رفع أجور العمال.. فكان بعض النواب مثلا يتحدث باسم شركات الفنادق وآخر باسم شركات السيارات وهكذا، وهو أمر مشروع فى أمريكا وان كان الكثيرون قد بدأوا يثورون عليه. والصهيونيون إحدى هذه الجماعات الضاغطة..

الدولة .. والفردية !

ومن الأشياء التى تتعرض للنقد الشديد فى أمريكا مثلا: التعليم. فالرخاء الشديد يغرى الشباب هناك بعدم الاستمرار طويلا فى التعليم، لأنهم يستطيعون دائما العمل فى أى شىء والحصول على مرتبات كبيرة يعيشون بها ويسهرون ويلهون ويتزوجون. وفى أول السنة الدراسية رأيت وزراء أمريكا يتحدثون فى التليفزيون مناشدين الطلبة الذين عملوا فى الاجازات أن يعودوا إلى مدارسهم وجامعاتهم ولا يغريهم الربح السريع! يضاف إلى هذا أن اعتماد التعليم كله على الأموال الخاصة والمحلية، وانعدام أى توجيه من الدولة، جعل أمريكا تخرج من العلماء الآن عددا أقل بكثير من العدد الذى يخرجه الاتحاد السوفيتى. وكنيدى فى المعركة الانتخابية يطالب بتدخل الدولة فى هذا المجال بأموالها وتوجيهها، فى حين يعارضه نيكسون وكل رجال الأعمال .. فإنهم يكرهون أى تدخل من الدولة..

ونفس الشىء مثلا بالنسبة للعلاج والرعاية الصحية. فالعلاج الطبى من أغلى الأشياء فى أمريكا. أسعاره مرتفعة جدا حتى بالنسبة لمستوى المعيشة الأمريكى المرتفع. ولذلك بدأ الكثيرون يدعون إلى ضرورة توسيع التأمين الاجتماعى والرعاية الصحية المجانية أو نظير اشتراك معقول. ومرة أخرى، شنت نقابات الأطباء حملة واسعة ضد هذه الاتجاهات، وشن الزعماء المحافظون مثل بارى جولدروتر حملات صليبية ضدها، ووصفوها بأنها «وصاية» و«إهانة للنشاط الفردى والاعتماد على النفس» بل قالوا انها «اشتراكية متسللة»..

وبعد..

هذا هـو انطباع سريع جدا عن شعب طيب نشيط يتمتع بحيـوية كبيرة. صنع معجـزة ولاشك بهذا المستوى المادى العـالى الـذى اتسع حتى شمل قاعدة عريضة جدا من الشعب.

ان النضج الاقتصادى والانتاجى فى أمريكـا قد سبق النضج السياسى بوقت طويل. وقد بدأت الطليعة فى هذا الشعب تحس بذلك.. وبدأت ترى انه لابد من استكمال كثير من مقومات «الدولة» والتوجيه القومى.. مقومات لم يكن الشعب يشعـر بالحاجة اليهـا فيما سبق من السنين.. ولكنـه الآن بدأ يشعر أن المصـالح الخاصـة كثيرا ما تتعارض مـع المصلحة العـامة.. وان شعار «كل مـا يفيد شركة جنرال مـوتورز يفيد أمريكـا» ليس صحيحا على الدوام..

وفى تقـديرى ان هـذا التطور حين ينـدفع إلى الأمـام، سوف يترك آثـارا عميقة حتى على السياسة الأمريكية الخارجية نفسها.

مصرع جريدة !

أخبار اليوم .. فى :
٢٩ / ١٠ / ٦٠

مازال مصرع جريدة «النيوزكرونيكل» البريطانية يثير ضجة ومناقشة وقلقا كبيرا فى جميع الدوائر الصحفية فى العالم.. وبالتالى بين جمهور القراء، أى بين كل من تعود أن يتنفس ويتصل بالعالم من خلال ذلك الشريان المتدفق بالحياة اليومية «هو الجريدة» .

وليس اغلاق أى جريدة فى حد ذاته أمرا نادرا لا يحدث . ولكن كثيرا من الظروف التى اقترنت باغلاق هذه الجريدة الكبرى، جعل الناس يتنبهون فجأة إلى اخطار كثيرة اصبحت تحيط بمهنة الصحافة فى أنحاء مختلفة من العالم.. وجعلت الناس يطرحون أسئلة كثيرة.. بعضها خاص بالصحافة فى حد ذاتها كمهنة، وبعضها خاص بالصحافة كأداة أساسية من أدات الديمقراطية والوعى الشعبى ونفوذ الرأى العام .

وقبل أن نطرح هذه الأسئلة، نعرف ماذا حدث باختصار .

إن جريدة «النيوزكرونيكل» كانت جريدة حزب الاحرار. وليس معنى ذلك انها كانت مملوكة للحزب، فقد كانت مملوكة لأحد أصحاب الملايين وهو

«كادبورى» واسرتـه التى تمتلك مصانع الشيكولاتة العالمية المعروفة بهذا الأسم. كانت الجريدة مملوكة لأسرة كادبورى ولكنها كانت خلال ما يقرب من مائة سنة لسان حزب الأحرار، والخصم القديم العنيد لحزب المحافظين ولسياسة حزب المحافظين..

وفى ذات صباح فوجىء الناس.. وفوجىء بصفة خاصة المليون ونصف المليون قارىء الذين يشترون «النيوز كرونيكل»، فوجئوا بأنها باعت نفسها لجريدة «الديلى ميل».. لسان حال حزب المحافظين!

تماما كما لو فوجىء الناس مثلا بأن جيتسكيل قد باع حزب العمال لهارولد ماكمبلان زعيم حزب المحافظين!

صحيح ان أهم ما فى الجريدة هو قراؤها. والقراء لا يمكن أن يباعوا. وصحيح أن شراء مطابع الجريدة واسمها ومبانيها لا يعنى بالضرورة شراء قرائها. ولكن عملية الشراء مع ذلك لها أثار كثيرة حتى بالنسبة للقراء..

فجريدة «الديلى ميل» صدرت وتحت اسمها اسم جريدة «النيوز كرونيكل» التى كانت معارضة لها، وفى رأسها شعار «النيوز كرونيكل» المعروف لدى القراء وهو: يد ممدودة تحمل مشعلا أحمر اللون! وسرية الصفقة أتاحت للديلى ميل أن تشترى أيضا أكبر عدد من الكتاب اللامعين فى الجريدة المقتولة وتضمهم إلى أسرتها وكل هذا سيجذب ولا شك عددا لابأس به من القراء إلى معسكر قرائها الاصليين يضاف إلى هذا أن توزيع الصحف فى بريطانيا يتم فى الأغلب من طريق الاشتراك عند بائع صحف معين، يوصل الجريدة إلى البيت. وقد كان معنى البيع أن بائع الجريدة سيضع عند باب كل زبون للنيوز كرونيكل نسخة من الجريدة التى اندمجت فيها وهى «الديلى ميل». صحيح أيضا أن القارىء يستطيع أن يطلب من بائع الصحف أن يضع له جريدة أخرى. ولكن إلى أن يتخذ القارىء قرارا.. سيكون قد وقع إلى حد ما تحت تأثير الجريدة التى يجدها على بابه وفيها رائحة ولو ضئيلة من جريدته المفضلة التى اندثرت، الأمر الذى سيجعل نسبة كبيرة من القراء يستسلمون لهذا «القدر»!

وقد كان البائع والمشترى يعلمان ذلك جيدا قبل النشر

«النيوزكرونيكل» فى آخر أعدادها مثلا انها سوف تحتجب كجريدة مستقلة وتنتج فى «الديلى ميل» . كلا.. لقد قالت الجريدة فى آخر عدد لها: انها ستنشرغدا بيانا هاما. وفى اليوم التالى نشرت البيان الهام فى الجريدة التى التهمتها.. فى «الديلى ميل»..امعانا فى محاولة فر القارىء واستدراجه إلى ساحة الجريدة الأخرى التى دفع صاحبها مليون ونصف مليون جنيه لهذه الصفقة.

ولم يكن القراء وحدهم هم الذين فوجئوا بالنبأ الكبير. لقد فوجىء به أيضا المحررون والموظفون والعمال الذين كانوا يعملون فى هذه المؤسسة الصحفية وعددهم ثلاثمائة صحفى وثلاثة آلاف عامل وموظف. وأعلن صاحب الجريدة الذى باعها انه سيدفع لكل من فقد عمله (لأن الديلى ميل لم تأخذه معها) تعويضا يساوى مرتب أسبوع عن كل سنة من مدة الخدمة(فى بلادنا التعويض يساوى مرتب شهر عن كل سنة..أى أربعة أمثال التعويض الذى أخذه الصحفيون البريطانيون) !

ولم يبع مستر كادبورى « النيوز كرونيل» وحدها. ولكنه باع أيضا مجلة «ستار» المسائية الى نفس المؤسسة. وكما اندمجت «النيوز كرونيكل» فى الديلى ميل اندمجت «ستار» فى «ايفننج نيوز» .

وقد نشرت جريدة «الديلى اكسبريس» فى اليوم التالى لبيع الصحيفتين خبرا له مغزى.. يقول. ان مستر كادبورى سوف يشترى هذا الشهر مصانع شيكولاتة ألمانية جديدة بحوالى مليون جنيه !!

ولم يكن هذا البيع سرا على القراء فقط.. ولا على المحررين وحدهم. لقد كان سرا كذلك على حزب الأحرار أيضا !

وقد هاجم قادة حزب الأحرار هذا البيع الغادر بشدة. قالوا انهم لو علموا مقدما بأن الجريدة تشكو متاعب مالية لتقدموا لإنقاذها ومساعدتها. وقالت صحف أخرى من خصوم حزب المحافظين انه كان من الممكن أن يبيع كادبورى جرائده لصحف أقرب إلى لون جريدته ، كجريدة «الديلى هيرالد» مثلا لسان حزب العمال أو «الديلى ميرور» العمالية المستقلة، بدلا من أن يصير الطريق رأسا إلى الطرف المقابل، المعادى، ويبيع جريدته لخصومها فى الرأى بالتحديد .

ولكن طريقة البيع تتم عن أن المالك لم يفكر فى أى اعتبار سياسى. كانت الجريدة عنده دكانا يبيع أى نوع من السلع، فلما بدأت فيه بعض المتاعب قرر أن يستبدل به مزيدا من مصانع الشيكولاته الاضمن ربحا. وقد اختار المشترى الذى يعقد الصفقة ويدفع له أكبر ثمن. لانه لو أعلن عن عزمه فلربما احرجه الرأى العام فى أن يبيع لرفاق الرأى بسعر أقل أو بشروط أكثر تساهلا .

عشرة أيام .. بين القديم والجديد .. فى اليابان !

أخبار اليوم .. فى :

٢٧ / ١٢ / ٦٠

اليابان فى أذهاننا هى بلد فتيات الجيشا ، وفن تنسيق الزهور ، وحدائق الكرايزانتيم الخلابة ..

والملامح التى نعرفها عن اليابان كلها ملامح رقيقة ناعمة .. سواء فى ذلك « الكيمونو » الحريرى الزاهى الذى تلبسه المرأة ، أو المظلات المزخرفة بالورد أو تحية الضيف التى يؤدونها وهم راكعون .

إن هذه الشهرة بالرقة والنعومة فى محلها تماما .. وأغلب الظن ان أهل اليابان كانوا فى حاجة شديدة الى هذا الجانب الرقيق الناعم الهادىء فى حياتهم ، لكى يوازنوا به الجانب الآخر من هذه الحياة ، الجانب القاسى العنيف .

إن شعب اليابان فى الحقيقة يعيش فوق سقف من صفيح ساخن !

إن الطريقة التى يعلمون بها الأفيال الرقص .. هى ان يجعلوها تقف فوق صفيح ساخن ملتهب ، فتضطر الفيلة الى القفز !

وهذه الأرض من الصفيح الساخن قد علمت شعب اليابان القفز ! علمته ان تكون له هذه الطاقة الحيوية العجيبة على العمل وسرعة المحاكاة والالتقاط والابتكار !

إن هذه الشريحة الصغيرة من الأرض .. العائمة في المحيط ، على هامش آسيا .. يحاصرها الماء من كل جانب ، وتنصب عليها الزوابع والأنواء ، دون ان يطفىء هذا كله سخونة أرضها الملتهبة ، ولسع صفيحها الساخن .. فهى أرض زلازل وبراكين .. كل يوم بدون استثناء يقع فيها زلزال .. ويحس سكان احدى المناطق بأن الأرض تميد تحت أقدامهم .. وكل ٢٠ أو ٣٠ سنة على الأكثر فيها زلزال .. ويحس سكان إحدى تدمر المدن وتحرق البيوت والمنشآت .. حتى القنابل النووية الوحيدة التى ذاقت طعمها الأرض .. لم تسقط إلا على اليابان . فاليابان هى البلد الوحيد الذى يحمل وشم الانفجار الذرى .. واذا قدر للعالم ألا يعرف القنابل الذرية مرة أخرى .. فسيكون معنى ذلك ان اليابان قد فدت الانسانية كلها بمدينتين كاملتين من مدنها الكبيرة : هيروشيما .. ونجازاكى !

ومع ذلك فهذه الشريحة الصغيرة العائمة فى البحر يعيش فوقها ٩٤ مليونا من البشر .. أى نصف عدد سكان قارة افريقيا كلها .. ومع ان هذه الجزر هى اكثر جزر آسيا كلها ازدحاما ، فهى اكثرها فقرا فى المواد الخام ، ليس فيها سهول شاسعة مزروعة ، وليس فيها مناجم فحم ولا حديد ، وليس فيها آبار بترول . ولم تكن لها مستعمرات شاسعة خلال مدة طويلة ، كالمستعمرات التى تمتعت بها بريطانيا أو فرنسا أوهولندا زمنا طويلا حتى اكتنزت شحما ولحما .

حتى التاريخ الحضارى الطويل ، نجد اليابان فقيرة فيه .. فهى لم تبدأ فى معرفة العلم الحديث والحضارة الحديثة منذ زمن طويل ، انما بدأت تتعلم حروف الهجاء فى الحضارة الصناعية منذ أقل من مائة سنة .

عصر الترانزيستور !

أليس غريبا بعد هذا كله ، ان نجد اليابان اليوم تقف فى الصف الأول من دول الفن الصناعى والانتاجى !.

ان هذه الأرض من الصفيح الساخن قد علمت شعب اليابان القفز !

إن اليابان فى قاموس سنة ١٩٦٠ ليست بلاد الجيشا وحدائق الكريزانتيم وصناعة الحرير الطبيعى ولعب الأطفال فقط .

ولكنها أيضا بلد الكاميرا والراديو الترانزيستور والتليفزيون والسفن

وناقلات البترول .إن الأرقام هى أقصر الطرق الى كبد الحقيقة ..ومن بين الأرقام اليابانية نقرأ .

١,٨٤٠,٠٠٠ كاميرا .

٣,٦٠٠,٠٠٠ تليفزيون .

٦,٥٠٠,٠٠٠ راديو ترانزيستور

٤,٠٠٠,٠٠٠ راديو عادى .

١٦,٠٠٠,٠٠٠ طن حديد .

١,٧٠٠,٠٠٠ طن سفن ، فى شكل ٥١٤ سفينة ، من بينها ١٢٤ ناقلة بترول ، أى بمعدل ناقلة بترول كل ثلاثة أيام .. خلاف الأنواع الأخرى من السفن والبواخر

ونلاحظ على عدد أجهزة التليفزيون ان صناعة التليفزيون هناك بدأت منذ خمس سنوات فقط !

ونلاحظ على رقم انتاج الحديد ان اليابان ليس فيها منجم حديد واحد ، وان هذا الرقم هو انتاج أفرانها .. وانها تستورد كل خامات الحديد من الخارج .

ونلاحظ على رقم انتاج السفن .. ان اليابان كانت خلال السنوات الأربع الماضية الدولة الأولى فى انتاج السفن فى العالم .. وانها الآن تبنى اكبر ناقلة بترول حملها الماء .. وحمولتها ٨٧,٠٠٠ طن لحساب دولة صناعية كبرى ، هى الولايات المتحدة الأمريكية .

العلم .. العلم !

وليس معنى هذا ان هذه الأرقام هامة فى حد ذاتها ، أو ان المواطن يستطيع ان يتغدى بكاميرا ويتعشى بتليفزيون ، ولكن أهمية هذه الأرقام هى فى تسجيل درجة التقدم العلمى الذى وصلت اليه اليابان ..

ان القبض على ناصية العلم والاتقان الفنى هو القبض على ناصية المستقبل . العلم اليوم هو الذى يصنع التاريخ قبل ان تصنعه أى نظرية سياسية أو اجتماعية . العلم هو الذى يقلب وجه الحياة .. يحل مشاكل الحياة يخلق مشاكل جديدة للحياة .. اما النظريات السياسية فهى مجرد محاولات لمواجهة الواقع الجديد الذى يفرضه تقدم العلم .

هذه هى الدلالة الكبرى فى حياة اليابان . ان مستوى المعيشة العام ليس مرتفعا . وما زال فى اليابـان أغلبية فقيرة ، ولكن تفوقهم فى كل هذه المجالات العلمية والانتـاجية هو بمثـابة العثـور على المفتاح الأساسى لبـاب التقدم والانطلاق .

والتفوق فى الانتاج الصناعى بالنسبة لليابان هو مسألة حياة أو موت .. ان اليابـان ليس لديها أى مـوارد طبيعية تستطيع ان تعيش عليهـا .. ليس لديها إلا عقول الناس وأيديهم ونشاطهم .

فى الحقل .. استطـاع اليـابـانيـون ان يختصروا المدة الـلازمـة لنضج المحاصيل الأسـاسية كالأرز بحيث يستطيعون استغـلال الأرض فى زراعة محاصيل اكثـر . وقـد رأيت حقـولا كثيرة يغطيهـا الفـلاحـون بسقف من القماش ، لأنهم يـزرعـون محصـولات تحتـاج الى جـو أدفأ من الطقس الطبيعى .

وفى المصنع .. على اليابان ان تشترى كل خـامات الصناعة من الخارج ، وتصنعها ثم تعيـد تصديـرها ، وتعيش من الفـرق بين ثمن شراء الخامات وثمن بيعهـا مصنوعـة ! لذلك فهـم محتاجـون الى الاتقان لكى يستطيعـوا البيع فى الخارج ضد منافسـة بلاد أخرى تملك الخامات كأمـريكا وألمانيا ، وهم محتـاجون الى تخفيض السعـر رغم انهم يتكلفون اكثـر من غيرهم .. وهم محتـاجـون الى تصغير حجم الأشيـاء المصنوعة وتـركيـزهـا حتى لا تستهلك خامات اكثر يحتاج نقلها الى مصاريف اكثر !.

والقصة فى كل صناعة هى نفس القصة اكتساب الخبرة العلمية الكاملة معـرفـة أحسن مـا لدى الغير نقلـه . ثم الانطـلاق الى تجويـده وتحسينـه والتفوق فيه .

اشترت اليابـان من أمـريكا أول آلة تصـوير للتليفـزيون الملـون . ثم فحصوهـا جيدا ووجدوا ان مشكلة آلات التصـوير للتليفزيـون الملون هى ضخامـة حجمها وبـالتالى صعـوبة حـركتها فى الاستـوديو المكتـظ عادة بالأسلاك والكشافات والمعدات والنـاس . فانطلقوا يبحثون ويدرسون من اجل هدف محدد هو تخفيض حجم آلة التصوير الضخمة بنسبة ٣٠٪ .

ومنـذ شهـور نجحـوا فى انتـاجهـا وقـد رأيتهـا فى مصـانعهم وفى ستوديوهات التليفزيون . ثم بدأوا يبيعونها لمحطات التليفزيون فى أمريكا !

الراديو فى حجم الزرار !

وكلنا نعرف ان الراديو الترانزيستور اليابانى ، فى حجم علبة السجاير قد غزا أسواق العالم ، وان التليفزيون الترانزيستور ،فى حجم آلة التليفون فقط ، قد بدأ أيضا ينتشر ، ولكننى عندما زرت مصانعها فى اليابان قالوا لى : بعد ثلاث سنوات سوف تكون هذه الأجهزة « موضة قديمة » ..

— كيف !

— لأن هذا كله من الانتاج الالكترونى .. ولكن بعد ثلاث سنوات على الأكثر سوف يبدأ الانتاج الواسع للمصنوعات « المولكترونية » .. التى امكن بوساطتها صنع جهاز راديو فى حجم زرار هذا المعطف الذى تلبسه .. وتليفزيون فى حجم علبة السجائر المصرية التى تحملها !

وقلت لهم ضاحكا : معنى هذا ان الواحد منا سيضع يده فى جيبه ويخرج ما فيها من نقود ومفاتيح ويبحث بينها عن الراديو !

وقد شرحوا لى طويلا الفرق بين الالكترون والمولكترون ، ولم أفهم الفرق بالطبع الى درجة تجعلنى قادرا على ان أشرحه للقارىء ! ولكن العبرة على أى حال هو ان الأمر ليس فيه اكتشاف مادة جديدة مثلا .. ولكنه اكتشاف « معرفة » جديدة و « خبرة » جديدة !وهذا هو المهم .

وعندما ذهبت فى تلك الزيارة لمصنع « توشيباى» للتليفزيون كنت أظن أنى سأجد أمام الآلات فى المصنع رجالا قد شابت رؤوسهم .. خصوصا اننى مازلت عاجزا عن ان اضبط بمفردى جهاز التليفزيون الموجود فى بيتى .. فلما دخلت المكان الذى يتم فيه صنع اجهزة التليفزيون دهشت !

ان العاملات كلهن بنات .. وبنات فى سن الثامنة عشرة على اكثر تقديرا أما عن كونهن بنات فقد قال لى مدير المصنع ، ان صناعة التليفزيون بالذات تحتاج الى أنامل دقيقة ومزاج دقيق .. وقد ثبت بالتجربة ان البنات اصلح لها من الرجال .. فهى مثل أشغال الابرة والتريكو !

وأما عن كونهن صغيرات .. فقد قال لى المدير : ان البنت تصبح صالحة للعمل فى المصنع بعد تدريب أربعة عشر يوما فقط لا غير !!

— بشرط ان يكون لديها شهادات معينة سابقة طبعا ؟

— أبداً .. بدون أى شروط !! إلا معرفة القراءة والكتابة طبعا .

ذلك ان الجزء الصعب والدقيق فى هذه الصناعات فى الواقع هو الجزء الذى يتم فى معامل الأبحاث والتجارب الجزء الخاص بالدراسة المتصلة ، وتوفير الامكانيات وشروط العمل اللازمة للخبراء فى هذه المعامل والمجهود فى تلك المعامل لا ينصب فقط على تصميم السلعة التى ستصنع فقط .. ولكنه ينصب على تصميم « عملية الانتاج »نفسها فى المصنع بحيث يتم إنتاج السلعة بأسهل طريقة وأدقها وأرخصها وأسرعها فى نفس الوقت . وهكذا فالبنت ــ بنت ١٧ سنة ـ القادمة من البيت أو من الحقل ، لا يلزمها إلا ان تتعلم جزءا صغيرا جدا من العملية مسمار واحد أو بطارية واحدة تقوم بتركيبها فى مكان واحد . ويمر جهاز التليفزيون بالمئات على مائدة متحركة أمام الفتيات ذوات القفازات البيضاء كل واحدة تضيف شيئا .. فإذا وصل الى آخر الخط كان قد أصبح جهازا كاملا مستعدا للعمل فورا !

الأحـــــزاب

والتحول الكبير فى حياة الصناعة اليابانية بدأ فى السنوات الخمس الأخيرة فقط . الى ما قبل ذلك كانت اليابان تسترد قوتها واعصابها ودراساتها بعد كارثة الحرب العالمية والهزيمة . ولاشك ان الانطلاق الصناعى الهائل فى السنوات الخمس الأخيرة قد بدأ يرفع مستوى المعيشة لعامة الشعب الى أعلى بسرعة . وهذا هو السبب الرئيسى فى انتصار حزب الأحرار ، وهو حزب الحكومة فى الانتخابات الأخيرة وفوزه بأكبر رقم ناله منذ نهاية الحرب ، رغم اشتداد معارضة الحزب الاشتراكى القوى له ، ورغم المعركة الشهيرة حول معاهدة الأمن الأمريكية التى انتهت بسقوط كيشى زعيم حزب الحكومة واغتيال أسانوما زعيم حزب المعارضة .

وبالرغم من ان حزب الحكومة قد فاز وزاد من عدد مقاعده فى البرلمان ، فإن الحزب الاشتراكى قد زاد عدد مقاعده أيضا ثلاثة وعشرين مقعدا نالها فى الواقع على حساب حزب اشتراكى آخر معتدل ، اسمه الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، الذى اندثر تقريبا فى الانتخابات الأخيرة .. فلم يعد فى الميدان إلا حزبان يؤبه لهما حقا هما حزب الحكومة والحزب الاشتراكى المعارض ..

وعيب الحزب الاشتراكى هو انه ركز معركته على قضية معاهدة الأمن الأمريكية ، ولم يكن لديه فى الداخل برنامج اقتصادى محدد . والناخبون

بوجه عام أكثر اهتماما بالطبع بالقضايا الداخلية .

والحزب الاشتراكى اليابانى يتبنى سياسة الحياد الايجابى تبنيا كاملا وهو بهذا الحزب الكبير الوحيد فى الدول الرأسمالية الكبرى الذى يؤمن بهذه السياسة .

وفى خلال المعركة الانتخابية الأخيرة أجرى اليابانيون مناقشات فى التليفزيون بين رؤساء الأحزاب المتصارعة أسوة بأمريكا .. وفى إحدى المناقشات سأل أكيدا رئيس الوزراء سكرتير عام الحزب الاشتراكى : ماذا تقصد بسياسة الحياد الايجابى ، لماذا لا تشرح لنا هذا الشىء الذى لا شرح له ؟.. فقال له سكرتير الحزب الاشتراكى . ان الحياد مشروح بما فيه الكفاية انها السياسة التى يمارسها بالفعل نهرو وعبدالناصر وتيتو !

والأغلبية الساحقة من الشعب اليابانى تفضل ولاشك اى سياسة تبعد اليابان عن الحرب . وعواطفه ضد الحرب والتسليح قوية جدا منذ ذكريات الحكومات العسكرية والقنابل الذرية على السواء .. وعندما أعلن عن مناورات للجيش فى إحدى المناطق خلال وجودى فى اليابان .. زحف جمع كبير من الفلاحين القريبيين الى منطقة المناورات ليحولوا دون قيامها .

ولكن المشكلة ان الحياد فى اليابان له معنى اقتصادى أقوى من معناه السياسى . فالصناعة اليابانية تستند الى رؤوس الأموال الأمريكية بكثرة ، وأمريكا هى أكبر سوق تبيع فيه اليابان منتجاتها . ولذلك فالناس حين يفكرون فى الحياد يفكرون أيضا فيما قد يكون له من عواقب اقتصادية ..

وهناك بالطبع ضغط كبير لاعادة العلاقات الاقتصادية الكاملة مع الصين .. كبديل يمكن ان يوازن اعتماد اليابان على سوق امريكا ولكن سوق الصين حتى الآن مازال غير محدد وغير معروف بالضبط .. اذا قورن فى ذهن اليابانى بسوق أمريكا المعروف الجارى العمل فيه منذ سنوات .. والجمع بين السوقين طبعا هو المثل الأعلى!

كان شعار الحزب الاشتراكى هو : الحياد الايجابى .

وقد قابل رئيس الحكومة هذا الشعار بشعار آخر هو بالحرف الواحد : مضاعفة الدخل فى عشر سنوات !

والواقع ان معدل الزيادة فى الدخل فى اليابان الآن هو اكبر معدل زيادة

فى البلاد الرأسمالية كلها . اذ يصل الى حوالى ٩٪ كل سنة حاليا .. ومعنى هذا ان مضاعفة الدخل فى عشر سنوات فى حد ذاتها كهدف ليس من الصعب تحقيقه على الاطلاق بل انه يكاد يكون طبيعيا لأن اليابان لديها بالفعل الأساس الصناعى والعلمى والفنى اللازم لتحقيق الغاية ، فمهمتها فى مضاعفة الدخل هناك أسهل بكثير جدا من مهمتنا نحن فى الجمهورية العربية المتحدة ، حيث لا يبلغ عمر اتجاهنا الجدى الى الصناعة اكثر من سبع سنوات .

على ان مجرد مضاعفة الدخل لم يعد هدفا كافيا فى حد ذاته ، فالخدمات الاجتماعية فى اليابان قليلة ، وفى تقرير هام أصدرته وزارة الرفاهية فى اليابان خلال وجودى هناك .. جاء ان الخدمات الاجتماعية التى ينالها الفرد العادى أقل بكثير من مثيلاتها فى دول غرب أوروبا مثلا .. وجاء فى التقرير انه رغم زيادة الدخل فإن الهوة بين دخل الأغنياء ودخل الفقراء قد ازادات اتساعا .

وسبب هذا يرجع ولاشك الى انعدام الأخذ بأسلوب التخطيط الاجتماعى الذى تقوم به الدولة ان اليابان جنة للاستثمار الفردى الحر ، والمؤسسات الفردية هناك هائلة فى قوتها وفى ضخامتها ولا يقابل هذه الفكرة الهائلة تدخل كامل من الدولة ، حتى فى نطاق الاقتصاد الحر يجعل هذا التقدم ، حقاً ، لحساب الجميع .

وابسط مثل على ذلك هو الطرق . فالزائر يدهش من فوضى الشوارع فى مدينة هائلة مثل طوكيو .. ويدهش من تدهور حالة الشوارع فى بلد صناعى قوى بدأ يكتظ بالسيارات اكتظاظا رهيبا . لأن الطرق استثمار عام. ولأنها تحتاج الى أموال عامة ولأنها تحتاج الى تخطيط .

ولاشك ان الحزب الاشتراكى القوى ونقابات العمال القوية والضغط الشعبى العام ، كل ذلك قد بدأ يأتى أثره .. اذ بدأت دوائر الحكومة نفسها حكومة الاقتصاد الحر وحماية النشاط الفردى تحس بأن ثمة واجبا عاجلا فى هذه الميادين ..

واذا لم تقم الحكومة بخطوات هامة فى ميدان عدالة التوزيع الى جانب ميدان زيادة الدخل خلال السنوات الأربع المقبلة ، فإنها يمكن ان تصاب

بهزيمـة كبيرة فى الانتخابـات المقبلـة .. اذا احسن الحزب الاشتراكى تنظيم نفسه ، واذا استطاع ان يوضح اهدافه بطريقة تلائم ظروف اليابان الكثيرة المعقدة !.

وانه لغريب حقا ان يـرى المرء هذا الانبعاث الحديث الهائل .. ويرى الى جانبـه كل اشكال الحياة اليـابانية التقليديـة حية محببة .. فـالبيت مازال أغلبه على الطـراز اليابانى .. والكيمونـو لم يندثر تمامـا إزاء زحفت الجونلة والبنطلـون .. وكل يـابـانيـة تستعمل الاثنين على الأغلب . فهى تـذهب الى المصنع أو المكتب بـالفستان العـادى ولكنها تـذهب الى السينما أو المسرح مثلا بالكيمونو الزاهى ..

ولعلنى اثـرت ان اتحدث هنا عن جـانب من اليـابـان هو الجانب الـذى تتناوله فيه كل المجتمعات .. وهو الصنـاعة والزراعة والصراع السياسى .. أما الجانب اليابانى الذى لا يشارك فيه اليابان احد .. فله حديث آخر .

رواية غريبة تدور حوادثها فى مصر بطولة : السفير البريطانى!

أخبار اليوم .. فى :

٣١ / ١٢ / ٦٠

العالم يتحدث عن هذه الرواية التى أصبحت مشهورة باسم «رباعية الاسكندرية».. لأنها تتكون من أربعة أجزاء كبيرة.. ولأن حوادثها كلها تدور فى مدينة الاسكندرية.. وهى رواية تقدم صورة غريبة من بلادنا!

والأجزاء الأربعة لهذه الرواية يقع كل منها فى حوالى ٣٠٠ صفحة.. أى أن عدد صفحات الرواية يصل إلى حوالى ١٢٠٠ صفحة..! وكل جزء من الأجزاء الأربعة يحمل اسما مستقلا هو اسم أحد أبطال الرواية.. وأسماء هذه الأجزاء بالترتيب هى: «جوستين» و«بلتازار» و«مونتوليف» و«كليا».

أسماء غريبة على الأذن!

وسيقول القارىء: أنها ليست أسماء شائعة فى مدينة الاسكندرية! ولهذا تفسير سوف يرد بعد قليل.. فقبل ذلك لابد أن أقول كلمة سريعة عن المؤلف نفسه.. ان الصحف والمجلات الأدبية فى العالم تقول عنه الآن أنه أعظم كاتب قصة ظهر فى السنوات الأخيرة. وتقول عن هذه الرواية الضخمة أنها عمل شامخ خطير.

ومع ذلك فالمؤلف كان قبل ظهور هذا العمل مجهول الاسم تماما..

انه الانجليزى يعيش فى ريف فرنسا منذ سنوات واسمه «لورنس دوريل». وهو عندما أخرج هذه الرواية لم يكن شابا. أما شبابه فقد قضاه فى السلك السياسى البريطانى وفى المخابرات البريطانية. وبحكم وظيفته فى السلك السياسى جاء إلى مصر قبل الحرب الماضية وفى خلالها. اشتغل فترة فى السفارة البريطانية هنا، بين القاهرة والاسكندرية. ولذلك فإن من بين أبطال هذه الرواية الحسية الجنسية: السفير البريطانى فى القاهرة، وعدد كبير من موظفى السفارة! وكثير من حوادثها يجرى فى مبنى السفارة البريطانية فى جاردن سيتى، ومبناها الصيفى على كورنيش الاسكندرية.

ولكن المؤلف لم يلبث أن اعتزل السلك السياسى والمخابرات الانجليزية بعد الحرب ببضع سنوات... وعكف على تأليف الكتب، وأصدر بالفعل عدة كتب لم تنجح فى أن تصنع له أى اسم مذكور... حتى أخرج هذه الرواية الطويلة الغريبة، وإذا به يجد نفسه فجأة فوق قمة الشهرة العالمية.. الناشرون يتهافتون على نشر روايته، والمجلات تلاحقه بالصور والأحاديث وسيكوراس ملك السينما يشترى منه القصة ليحولها إلى فيلم على الشاشة.

ولا أذكر أننى وجدت صعوبة فى تقديم أحد الكتب أو الروايات كالصعوبة التى أجدها فى تقديم هذه الرواية...

وليس السبب فقط هو طولها.. البالغ ١٢٠٠ صفحة! وبالتالى كثرة الحوادث وتشابكها الشديد.. ولكن الأسباب التى تجعل تقديمها صعبا تكمن فى موضوع القصة نفسها.. وفى أسلوب كتابتها.

أسلوب الكاتب - أولا - محير جدا! فأحيانا تصادفك صفحات ركيكة ضعيفة.. عشرات من الصفحات المملة الجرداء تتوالى كالصحراء التى ليس فيها إلا كثبان من الرمل تجعل خطواتك ثقيلة مرهقة. وصفحات أخرى جذابة باهرة.. فيها كل مقومات الكاتب الماهر فى صنعته.. من حبكة وإثارة وتشويق وتأمل عميق.. إلى صور خلابة يرسمها للإسكندرية حتى لتشعر أنك تتنفس فى المدينة حقا.. وأن الكاتب قد أدخلك فعلا فى الجو والرائحة واللون والحالة النفسية التى يعيش فيها أبطال القصة.

وطريقة الكاتب فى السرد صعبة جـدا.. فهو لا يروى لك خيطا واحدا من الأحداث.. أو لا يروى لـك الأحداث فى سلسلة متتابعـة الحلقات.. ولكنه فى كل جـزء يـروى القصة كلهـا تقـريبا، من جـانب معين.. وفى الجزء التـالى يـروى لك نفس الأحـداث ولكن من جانب آخـر.. وفى كل مـرة تتكشف لك حقائق جـديدة.. ويبدو لك نفس الأفـراد فى ضوء جديـد يختلف عن الضوء الذى رأيتهم فيـه أول مرة.. ولا أذكر الآن أين قـرأت لأحد النقاد قـوله: انها كالـورقة المطبقـة حين تفتحها. انك تـرى دائما نفس الورقـة، ولكنها كلما انفتحت أمامك، رأيت مساحات جديدة منها!

فـالمؤلف لا يقف فى أول أحداث القصـة ثم يسير بها إلى نهايتها.. كـلا.. ولكنه واقف فى وسطهـا. أحيانـا يسير إلى الأمام، وأحيـانا يعـود إلى الوراء ليروى ما حدث من سنوات. وأحيانا يخطو إلى اليمين.. أو يخطو إلى اليسـار، ليتطلع إلى زوايا وجوانب أخرى لا يراها من مكانه الأول..

شـخصية «بيرسـواردن» مثلا. موظف السفـارة البريطانية بالقـاهرة، الفنان، الحسـاس.. وأخته العمياء التى يـراسلها فى لندن.. ثم اختـلافه مع قسم المخـابـرات السرية فى السفـارة: فقسم المخـابـرات يقول أن الشـاب المصرى «نسيم» مشترك مع عصابة يهوديـة تعمل على تهريب الأسلحة من أوروبا إلى فلسطين «وكـان هذا قبل الحرب العـالمية أيـام كانت عصـابات اليهود تقـود حركـة سرية ضد البريطـانيين» ومعنى هذا أنـه أيضا يخون قضية العرب فى فلسطين... أمـا بيرسواردن.. فهو يعارض هـذا الرأى.. انه يعرف نسيم وهـو صديقـه الحميم ومستحيل أن يصنع هذا ولكنـه بعد أن ينتصر على المخـابرات البريطـانيـة يكتشف بـالصدفـة أن هـذه الواقعـة صحيحة. وينتحر برسواردن. وينـزعج السفير البريطانى الذى كان معجبا به. وتـأتى أختـه العمياء البـاهـرة الجمال إلى القاهرة والاسكنـدرية لتصفى أوراقه. ولكننـا فى جزء آخـر نرى واقعة انتحـاره خلال ضـوء جديـد.. لقد كانت بين بيرسـواردن واخته العمياء علاقـة شاذة، وقد أنجب منهـا طفلة ميتة وبـرغم نقله إلى مصر فقـد ظل بينهما حب غريب عميق لا عـلاج له. وفجأة ظهر فى حياة هذه الأخت «ليزا» رجل آخـر... وكانت هذه هى النهاية بالنسبة لبيرسواردن.. فانتحر.

وفى مكان ثالث.. نعـرف أن هذا الرجل الآخر الذى ظهـر فى حياة ليزا فى لندن هو «مونتوليف» السفير البريطانى فى مصر، وذلك حين تعرف عليها فى لندن قبل نقلـه إلى القاهرة وقد عـرف بيرسواردن ذلك بعد قدوم مـونتولف بمـدة.. فانتحـر.. أما حضـور ليزا بعـد موت أخيهـا إلى القاهـرة فلم يكن لتصفيـة أوراق أخيهـا كما فهمنـا من قبل.. ولكن لكى تعيش مع عشيقهـا السفير!.

نســـيم !

نموذج آخر ....

فى الأجزاء الأولى نرى شخصية «نسيم» الشـاب المصرى الواسـع الثراء، وزوجتـه «جوستين» اليهـودية الغـامضة الحسنـاء، ذات المغامـرات التى تتهـامس بها المدينـة، والشهـوات التـى تلهث حـولها. ونستمع إلى قصـة «دارلى»، وهو الراوى الذى يروى جـزءا كبيرا من الرواية. ودوره فى الرواية دور رجل انجليـزى يقـوم بتـدريس اللغـة الانجليزيـة فى إحـدى مـدارس الاسكندريـة وهو الـدور الذى يبـدو أن المؤلف يتقمصه كثيرا فى الـرواية، خصـوصـا اذا لاحظنـا أن اسم البطـل «دارلى»، واسـم المؤلف «دوريل».. أقـول نستمع إلى قصـة غـرام دارلى هذا بجـوستين زوجـة نسيم. وهـواه العميق لها. وهجره صاحبته الراقصة اليونانية «ميليسا» من أجلها.

ولكننـا حين نصـل إلى الجزء الثـالث نكتشف عن نسيم وعـن زوجتـه جوستين أشياء غريبة. فنسيم، كما ذكـرت من قبل، كان مشـتركا فى عمليات تهريب سرية لصـالح العصابـات الصهيونية فى فلسطين. وقـد حار كيف يظفر بقلب اليهـودية الغامضـة جوستين.. فلم يجد بدا آخـر الأمر من أن يعترف لها بحياته السرية ونشاطـه الخطير. وتعجب به جوستين وتتزوجه. زواجا فيـه من وحدة الهدف أكثر مما فيـه من الغرام. وقد كـان فى المدينة يهودى آخـر عجـوز اسمـه كـوهين، كــان مشتركـا مع نسيم فى عمليـات التهـريب، ثم مات. وكـان كوهين هـذا عشيقا لميليسـا، الراقصـة التى هى عشيقة دارلى . وقد خاف نسيم أن يعرف دارلى شيئا عنه من ميليسا فاتفق مع زوجته جـوستين أن تقنع دارلى بأنها تحبه ولـو أعطته كل شىء.. لكى تعرف منـه هل عرف شيئـا من «ميليسا» أم لا.. أى أن الهوى كـان حقيقيا

من ناحية دارلى ومصطنعا من ناحية جوستين.

ولكن ميليسا كانت قد فقدت حبها لدارلى من زمن وأصبحت صديقة بيرسواردن. وتحدث زلة اللسان المنتظرة أمام بيرسواردن لا أمام دارلى. فيعرف بيرسواردن أن نسيم جاسوس ومهرب.

وعندما ينتحر بيرسواردن ـ سواء بسبب حادث الجاسوسية أو بسبب حادث أخته ـ ويكتب إلى السفير مونتوليف خطابا يحيطه فيه بأن اتهام نسيم ـ صديقه وصديق السفير ـ بالتجسس صحيح. يقع السفير مونتوليف فى مأزق حرج. لأن السفير أيضا له قصة قديمة غريبة.

السفير!

لقد جاء «مونتوليف» إلى مصر مرة كشاب مبتدىء فى السلك السياسى البريطانى، قبل أن يجيئها كسفير. وفى المرة الأولى كان موظفا تحت التمرين وكان قد تعلم اللغة العربية جيدا. فأرسلته السفارة إلى بيت أسرة مصرية ليتقن اللغة العربية ، وكانت الأسرة قبطية وهى أسرة نسيم: أب مقعد مريض، أم شابة جميلة اسمها ليلى.. متعلمة سافرت إلى أوروبا كثيرا وتثقفت ثقافة واسعة ولكنهم زوجوها لهذا الرجل الذى اختارته الأسرة طبقا للطريقة القديمة. وولداها وهما نسيم ونيروز.

وفى تلك الأيام وقعت الأم الشابة ليلى فى غرام الشاب الانجليزى مونتوليف.. جذبها إليه شبابه. وجذبها إليه أكثر «العالم الذى ينتمى إليه». إنها منذ عادت من أوروبا حبيسة هذا البيت الريفى فى «أبى جرج» حيث توجد عزبة زوجها. نافذتها الوحيدة على العالم الذى تحبه هو الصحف والمجلات الأوروبية التى تشترك فيها بكثرة والأوراق التى تكتب فيها خواطرها من حين لآخر والزوج المقعد العاجز يحس بهذا وان كان لا يظهر علمه إلا على شكل انفجارات سياسية أمام مونتوليف يقول فيها ان الانجليز يسيئون إلى الأقباط فى مصر، فقد كان الأقباط دائما يعيشون فى سلام ويتولون أبرز المناصب ولكن الانجليز هم الذين يحاولون إظهار الغيرة على الأقباط لا لشىء إلا لمجرد التفريق بين الطوائف.

وينقل مونتوليف من مصر فلا يعود إليها الا سفيرا. ولكنه طوال هذه السنين كان يربطه بالأسرة شيئان: الأول هو صداقة نمت بينه وبين نسيم.

الذى كان يلقاه خلال رحلاته إلى أوروبا والثانى هو الخطابات التى كان يتبادلها مع ليلى بلا انقطاع طول هذه السنوات. أصبح هو روحها المتجولة خارج حدود (أبوجرج).. يرى لها المتاحف ويشاهد لها المسرحيات ويكتب لها عن كل شىء.. ويرسل لها الكتب التى تحب أن تطلع عليها. وهاهو يعود إلى مصر سفيرا وقد توثقت صداقته بنسيم.. ليجد أنه يقوم بعملية تهريب أسلحة ضد سياسة بريطانيا فى ذلك الوقت!

ويواجه مونتوليف الأمر الواقع ويبلغ الأمر إلى وزارة الداخلية المصرية. وعندما تقوم الحرب تصادر الحكومة أموال نسيم وتحدد اقامة زوجته جوستين فى أبوجرج بعد أن مات أبوه وأرغم أمه على أن تهاجر إلى الخارج خشية أن يصيبها شىء بعد أن انكشف تآمره..

هذه الأحداث — وغيرها - ليست هى القصة. والقصة على أى حال فيها أكثر من ألف صفحة من مثل هذه الأحداث. ومع ذلك فالشخصيات الهامة فى القصة تعتبر قليلة نسبيا. اذا قيست بطول الرواية وكثرة زواياها. فالمؤلف قد اختار طريقة خاصة هى: انتخاب عدد قليل من الشخصيات، ثم «تقليب هذه الشخصيات على مختلف الجوانب ووضعها فى شتى المواقف والأوضاع، وكل وضع أو موقف يعطيها جانبا آخر أو ينزع عنها فكرة سابقة... وكأن المؤلف يمسك بكل شخصية ويقول لك: هذه الشخصية يمكن أن تكون هكذا.. ويمكن أن تكون هكذا.. يمكن أن تكون عادية.. ويمكن أن تكون شاذة.. يمكن أن تكون طيبة ويمكن أن تكون خسيسة.. وهكذا! فهى لعبة من قطع قليلة يمكن أن تبتكر منها آلاف الأشكال كلما غيرت فى طريقة ترتيبها وتكوينها!

اسكندرية . كليوباترا!

ولكن...

أين «الاسكندرية» فى هذه القصة وأين «مصر» التى تقع فيها هذه الاسكندرية؟

هذا السؤال قد لا يخطر على بال قارىء يقرأ القصة فى أى مكان من العالم. أما اذا كان من مصر فالسؤال يبدو ملحا وقويا، وأساسيا.

لقد اختار المؤلف شخصياته كلها من جو الأقليات المهاجرة إلى

الإسكندرية. واليهود واليونـان والانجليز والأرمن والإيطاليين والفرنسيين وغيرهم. ومع ذلك فهو لم يختر ذلك الفريق من المهاجرين الذين يندمجون فى البلد الذى يعيشون فيه. أو الذين يعرقون ويتعبون سواء ظلوا بعد ذلك فقراء أو أصبحوا أغنياء.. ولكنه اختار فئة مغلقة على نفسها تماما. تعيش فى الاسكندرية «كمكان» دون أن تتفاعل معها كشعب أو كمدينة. وهذا صحيح فى بعض الحالات وليس فى كلها فلاشك أن بعض الأجانب المهاجرين تكون مأساتهم فى أنهم يظلون أجانب مهاجرين إلى الأبد. منعزلين دائما عن العالم الذى جاءوا إليه. يدورون حول أنفسهم.

وقد ملأ المؤلف هذه البيئة التى اختارها بأنواع من الشذوذ لا أول لها ولا آخر. ولا أدرى بأية نفسية جعل المؤلف هذه الحالة من الشذوذ الجنسى تغمر الجميع.. ولكننى أجد أنها تعبير عن السوس الذى ينخر فى كيان هذه الفئة، وعن الانهيار الداخل فيها. وعجزها التام عن أن تخرج عن حلقة ضيقة صنعتها لنفسها فقط عن المدينة التى يعيشون فيها. بل وغرباء حتى عن مدنهم الأصلية الت قذفتهم إلى الاسكندرية. فهم بدون جذور، فى أى مكان من الأرض و«المصريون» الذين يحتكون بأبطال القصة لا يظهرون الا فى صورة خادم أو سائق أو بواب. تماما كما يذهب السائح إلى بلد فينزل فى فندق لا يبرحه، فلا يرى من أهل البلد إلا خدم الفندق وموظفيه.

الشخصيتان المصريتان الوحيدتان اللتان لهما بعض الدلالة هما: ليلى ونسيم...

أما ليلى، فقد رسم بها صورة للمصرية التى تعلمت فى وقت لم ينتشر فيه التعليم. وشقاء من تعيش بثقافتها العصرية فى جو غير مثقف.

على أن «نسيم» هو الشخصية المصرية الهامة فى الرواية، وعندما نتأمل الأسباب التى نسجها المؤلف لكى تؤدى إلى انحراف نسيم ودخوله فى حركة سرية لحساب العصابات الصهيونية.. نجد أنه كان موفقا فى بعضها، وكان غير موفق فى بعضها الآخر..

فقد اختار المؤلف أن يكون نسيم من الأقباط، فى محاولة لإدراج الأقباط بين سائر الفئات الأخرى المهاجرة.. وهذه فكرة خبيثة وغير صحيحة،

فالوطنيون الذين سقطوا برصاص الاستعمار كانوا من جميع الطوائف، والذين قبض عليهم فى قضايا خيانة أو جاسوسية كانوا أيضا من جميع الطوائف. وأنه لمن الطريف أن نلاحظ جملة سجلها المؤلف على أنها من الخطط التقليدية للسياسة البريطانية فى أى بلد وهى «التركيز على الأقليات التى تكون مستعدة لأن تناضل».

فمحاولة استثارة الأقليات أسلوب سياسى بريطانى فى كل بلد. ومع أن المؤلف يسجلها متهكما، فهو كموظف سابق فى السلك السياسى البريطانى لم يستطع أن تيأثر بهذا الأسلوب.

على أننا يجب أن نسجل أن محاولته هذه ليست كاملة. فإن نيروز شقيق نسيم فى القصة كان خطرا على نسيم. وقد أغتيل نيروز فى ظروف توحى بأن شقيقه نسيم وزوجته جوستين هما اللذان حرضا على قتله خشية أن يفتضح أمرهما. وهذا يجعل الخيانة محصورة فى نسيم كفرد.

فإذا نظرنا إلى نسيم كفرد، نجد أن المؤلف كان ناجحا فى وضع الملامح التى تجعله فى النهاية قابلا للخيانة. فالبيئة النازحة التى عاش فيها. هجرته من عالم بلاده إلى عالم «المهاجرين» إلى بلاده. ضعف شخصيته وخستها فى الأصل وهو ما نلحظه فى كونه كان يعلم من البداية بعلاقة أمه بمونتوليف، وتسهيله لهذه العلاقة بعكس أخيه نيروز الذى كان يقف إلى جانب أبيه المخدوع..

هذه البذور الضعيفة فى تكوينه هى التى جعلته كما قال المؤلف منتميا إلى هؤلاء الغرباء، أصبح معاديا لبيئته من باطنه. وهذا هو السبب الحقيقى لخيانته، وليس السبب هو التبريرات النظرية السخيفة التى قالها لجوستين وهو يعترف لها بدوره فى المؤامرة.

وخارج هذه الشخصيات الرئيسية التى تتخبط داخل هذه الدائرة المغلقة، كانت الاسكندرية تبدو أحيانا ـ على دقة الوصف التفصيلى ـ وكأنها ليست الاسكندرية بالذات... انما هى مكان «مجرد» يمكن أن يكون أى ميناء آخر فى العالم.. يمكن أن يكون هونج كونج أو نابولى أو طنجة:

وفى كثير من الأحيان كنت أشعر أن المؤلف يتحدث عن اسكندرية عصر كليوباترا.. اسكندرية البطالسة.. أو الاسكندرية التى نجدها فى رواية

«تاييس» لأناتول فرانس مثلا.

ومن أجل ذلك كان المؤلف يحاول أن يفصل الاسكندرية عن مصر.. انها اسكندرية يونانية رومانية تنتمى للبحر الأبيض لا للقطر المصرى فحين انكشف نسيم يقول المؤلف مثلا: «حين ضيق المصريون عليه الخناق خف أهل الاسكندرية لنجدته... فاشترى أصحابه ممتلكاته لكيلا تصادر على أن يعيدوها له فيما بعد»... فالمصريون عنده شيء.. وأهل الاسكندرية شيء آخر. وأهل الاسكندرية الذين يقصدهم طبعا هم تلك الدائرة الأجنبية التى «هاجر» إليها نسيم.

أما مصر.. وعالم «المصريين»، فان يبدو كأنه عالم سحيق متخلف، ومختلف تماما أية خطوة يخطوها أحد أبطال القصة إلى بيئة محلية أو شخصيات محلية، كانت تبدو كأنها رحلة إلى عالم غامض غريب. وقد كان المؤلف يرسم هذا العالم دائما رسما بشعا كريها..صحيح أنه اختار فترة ضعف وانهيار فى تاريخ مصر.. وهى فترة قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها حين ملأت جنود الحلفاء البلاد... ولكن صوره البشعة كانت أبعد من ذلك أيضا.

إذا ذهب إلى الريف: فهناك يروى أشياء غريبة.. كمشهد الأعراب يأكلون جملا.. اذ يقول أنهم يجعلون الجمل «يبرك» وهو حى، ثم يهجمون عليه بالسواطير والسكاكين، كل واحد يقطع جزءا منه، والجمل رافع رقبته الطويلة والدم يتدفق من فتحات جسده كالنوافير وكل ألم الدنيا فى عينيه!

أو يصف كيف أن نيروز نادى مرتين على خادم من أبناء الفلاحين فى عزبته فلم يحضر.. فأمسكه وقطع له أذنه بسكين عقابا له.. وأمسك الطفل الطفل بالأذن المقطوعة فى يده وجرى إلى أبيه باكيا والدم يسيل منه!

أشياء وحشية لا ظل لها من حقيقة.. كأنها تحدث فى أعماق الغابات!

وإذا ذهب إلى الأحياء البلدية فى الاسكندرية.. فهو يصف بيوت دعارة للطفلات الصغيرات.. ويرسم لها صورة بشعة تثير الغثيان..ويكرر الرحلة إلى هذه البيوت كثيرا. كأنها من الملامح الأساسية.. فالسفير ذهب.. وجوستين ذهبت.. ودارلى ذهب!

الرشـــــوة

وإذا ذهب إلى «الجهاز الحكومى» المحلى.. فهو يصف لنـا صورة الدولة المتعفنة التى كانت موجودة فى مصر قبيـل الحرب. الوزراء الذين يرتعدون من الملك أو من السفير البريطانى.. والوزراء المرتشون.. والركود والخمود والفوضى والخوف والإهمال..

رمز هذا رجل اسمه «مملوك باشا» جعله المؤلف وزيرا للداخلية..

فحين أحس نسيم أن السفـارة البريطانيـة ستبلغ وزارة الداخليـة عنه، بدأ يبحث كيف يتلافى القبض عليه.. فأرشدوه إلى «المفتاح» إلى قلب مملوك باشا وهو الرشوة!

ثم يصف لنا طريقة الرشوة:

كان مملوك بـاشا يجلس فى غرفة الصالون يستقبل الـزوار، فيقول له الراغب فى رشوتـه أنه قد عثر على مصحف نادر رأى أنـه جدير بأن ينضم إلى مجموعة المصاحـف النادرة التى اشتهر مملوك باشا بـاقتنائها. ويقول مملوك باشا أنه سيصعد بالمصحف إلى الطابق الثانى ليرى هل لديه مثله أم لا. وهناك يفتح المصحف ويعـد النقود. فإذا كـانت الرشوة كـافية، احتفظ بالمصحف وعاد يقـول أنه فعلا نادر، وإذا كانت غير كـافية أعاد المصحف إلى صاحبه قائلا: انه وجد أن لديه مثله!

وبهذه الطريقة استطاع نسيم أن ينجو!

وفى نهايـة الجزء الـرابع من الـروايـة، وقـد انتهت الحرب، نجـد أن جـوستين قـد أطلق سراحهـا، ونجدهـا تسير فى شـارع سعـد زغلـول هى ومملـوك باشـا ونسيم. لقد رفع الحجـر عن نسيم أيضا. وسيسـافر هـو وجـوستين إلى سويسرا حيث يقـومان بنشـاط أوسع فى التـآمر.. أمـا كيف استـولت جوستين على مملـوك بـاشا: انـه جوعـان لـلاختلاط بـالمجتمع الراقى.. جوعان إلى التعرف بنساء بيض.. وهذا ما تحققه له جوستين!!

وقد أحسست عندمـا انتهيت من قراءة الرواية أن المؤلـف يشبه الرجل الذى افتتح محلا وأراد أن يجلب له أكبر عدد من الـزبائن، فقرر أن يعرض فيه كل أنواع السلع الممكن بيعها للناس!

كذلك فإن لورنس دوريل جمع فى قصته كل أنـواع المفارقات وكل أنواع

القصص وكل أنواع المدارس الفنية والقصصية المعروفة..

وماذا تريد مثلا؟

مغامرات؟ هناك مغامرات جاسوسية وتهريب أسلحة واغتيال فى الظلام ومسدسات.

غرام عذرى؟ هناك قصص حب بالمراسلات التى تستمر عشر سنوات لا يلتقى فيها العاشقان.

شذوذ وجنس؟.. انه موجود فى أكثر من نصف صفحات الرواية!

هناك أيضا حفلات تنكرية تحدث فيها مفارقات غريبة كالقصص الخيالية القديمة..

هناك أيضا فتاة يقع فى غرامها رجل وتختفى سنة ثم يجدها الرجل فيجد أنها بدون أنف، فينفق عمره فى البحث عن أنف لها.. والبحث عن أطباء يركبونه لها..

هناك أيضا جو الموالد والمجاذيب والسحرة والمشعوذين.

هناك كذلك قصة ضابط بوليس انجليزى شاذ، مات.. وتحول قبره بمجموعة مصادفات إلى أسطورة تقول أنه من الأولياء.. له مولد وله مقام يزار!

كل حيل كتاب القصة وكل مفاجآتهم التى عرفت فى آلاف القصص.. جمعها لورنس دوريل فى روايته بدون استثناء تقريبا!

وبعد..

ان المؤلف لورنس دوريل يرسم للاسكندرية صورة بنفسجية بديعة، بكل مافيها من تفصيلات وضواح وأسماء. محطة الرمل وشوارع سعد زغلول والنبى دانيال والسبع بنات وفندق سيسيل ومطاعم المكس المطلة على البحر ورمال العجمى البيضاء. ولكنه يرسم للمجتمع صورة جارحة هابطة تنزف بالصديد، ويرسم «للمهاجرين» صورة تنزف بالصديد، لا يكاد المرء يعثر فى روايته على شخصية فيها ولو قليل من مقومات القوة، أو حتى على شخصية فيها صراع بين القوة والضعف. كل البشر عنده تقريبا مشوهون من الداخل، مستسلمون تماما للضعف والنقائص بدون أية مقاومة أو صراع. واستكمالا لهذا الإحساس حشد فى قصته عددا لا

مثيل لـه من ذوى العاهـات. ليـزا الجميلة الفـاتنـة عمياء. سميرة عـذراء الاسكندرية بدون أنف. نيروز شقيق نسيم مشقوق الشفتين. نسيم نفسه يفقـد إحـدى عينيـه خلال الغـارات. وتنتهى القصـة، وهـو بعين واحـدة. و«كليا» الرسامة، تنتهى القصة ويدها التى ترسم بها مصابة!

وبعد..

هل هو كاتب «عظيم»؟

أعتقد أن التاريخ الأدبى لن يضعـه فى مصاب الأدباء العظماء. لأن كاتب القصة العظيم لابـد أن تكون فيـه صفة هامـة جدا، وهى: إحسـاسك بأنه يتعاطف مع الانسانية الممثلة فى أبطال قصصه كلهم.. أو بعضهم.

وهـذا ما يفتقـده «لورنس دوريل». انـه لا يروى قصـة الحياة ولكنـه يروى «فضيحتها». وهـو يحاول أن يدس فى نفسك احساسـا بالشماتة لا بالعطف.

المزاج العربى!

أخبار اليوم .. في :

٤ / ٢ / ٦١

هل صحيح أن عاطفة العربى أقوى من عقله؟.. هل صحيح أن العربى حزين.. يخجل من السعادة ويعتبر الفرح ضعفا؟.. ما معنى كلمات الشرف والعرض والنخوة؟.. ما هو سبب الشك الغريزى بين الرعية والحكام فى المجتمع العربى؟.. ما هو سر فساد الإدارة وفشل البرلمانات؟..

هل صحيح أن كل عربى - وعربية - له حياة خاصة به.. وحياة يتظاهر بها أمام الناس ؟!..

كيف يحب العربى وكيف يكره؟ كيف يثور وكيف يهدأ؟ متى يكون صريحا ومتى يكون ماكراً؟..

إن معرفة الجانب المعنوى عن أنفسنا لاتقل أهمية عن معرفة الجانب المادى. اننا نهتم بأن نعرف طبيعة بلادنا، وثرواتها ، جبالها ووهادها، بترولها وحديدها.. ولكننا يجب أن نهتم بأن نعرف نفسية شعوبنا.. بقوتها وضعفها، بثروتها وفقرها، بمرتفعاتها ومنخفضاتها!

يجب أن نعرف أخلاقنا.. نحن أبناء الأمة العربية..

أخلاقنا الفردية..

وأخلاقنا الاجتماعية ..

وأخلاقنا السياسية !

ويجب ، قبل أن نخوض هذا البحر ، أن نكون واسعى الصدر.. وأن نكون أقوى من أن نخالف هذا «النقد الذاتى»..

إن فى يدى كتابا ممتعا، كتبته باللغة الانجليزية استاذة لبنانية، اسمها الدكتورة سنية حمادى ، تعمل مدرسة فى إحدى جامعات أمريكا.. موضوعة «مزاج العرب وشخصيتهم!»..

والكتاب فيه حق كثير.. ولكن فيه أحيانا قسوة كبيرة تخرج عن نطاق الحق. ومن الصعب أن يفصل القارىء بين ما فى الكتاب من حق وبين ما فيه من مبالغة.. لأن الاثنين كثيرا ما يختلطان إلى درجة كبيرة..

عاطفة العربى

من اللمحات التى تقولها المؤلفة مثلا .. قولها :

« عندما يريد العربى أن يشرح رأيه للأجنبى مثلا.. نرى أنه يرفع صوته، وينفعل، ويستعمل عبارات التأكيد، والتجسيم، والمبالغة، فى اندفاع عاطفى شديد.. ويظن الأجنبى أن الموقف خطير. وأنه مشحون بالغضب والخلاف. وهذا غير صحيح طبعا. فإن هذه هى طريقة العربى فى التفاهم حتى مع أخيه. أما العربى فإنه فى هذا الموقف قد يفسر سكون الأجنبى وهدوءه على أنه نوع من عدم التجاوب أو عدم الاهتمام! وسوف يدهش العربى حين يجد أن الأجنبى لايقدر «فصاحته» فى حد ذاتها بصرف النظر عن رأيه فى الموضوع ذاته. ولكن الأجنبى لايستطيع أن يفصل بين «الفصاحة» فى حد ذاته وبين الموضوع نفسه ..

والعربى حين يتحدث إلى أحد ويريد أن يؤثر عليه، يعمد إلى أسلوب من الاتصال الجسدى بمن يحدثه. فهو يربت على كتفه، أو يمسك بذراعه، أويقرب وجهه من محدثه قربا شديدا.. أما الأجنبى فإنه يبتعد إزاء هذا الاقتراب.. لأنه تعود على وجود مسافة ملحوظة بينه وبين محدثه. وقد ينزعج كل منهما لسلوك الآخر دون أن يدرك السبب..

والعربى يحب دائما أن يكون «شخصه» محل رعاية خاصة.. يجب أن يشعر أن هناك معاملة خاصة به هو شخصيا حتى فى أبسط الأمور.. سواء

كان فى مكتب أو فى ضيافــة.. فالمعاملة الحسنــة عنده لاتكون إلا إذا اقترنت بدرجــة من الانتباه الشخصــى له أو «بعمل خــاطر» خــاص له. فى حين أن الأجنبى لايتوقــع عادة إلا معاملــة عاديــة طيبة لــه وللآخــرين على السواء، ولايتوقع هذا التفضيل الشخصى له.

والعــربى لايحب أن يقــول صراحــة انه جــوعــان مثــلا، حتى مع أعــز أصــدقائه. إنــه يحب أن يبتعــد عن الطعام مــرارا بحجــة أنه شبعــان . لأن المفروض أن «يعزم» عليه صاحب البيت مــرة ومرتين حتى يكاد يرغمه على الأكل إرغامــا، ليأكل، حتى ولو كــان جوعــان، فمن سوء التهــذيب عنده أن يقول إنــه جوعان ويأكل مباشرة. بعكس الأجنبى. وكثيرا مــا يقوم الضيف العربى من أمام مائدة الأجنبى جوعان،لأنــه عندما قال لمضيفه «لا، شكرا» صدقه صاحب البيت ولم يعزم أو يحلف عليه من جديد !

والعــربى يحب أن يلقى اللــوم فى مشــاكلــه وأخطــائه على عــاتق سبب خارجى عنه. فغضب العــربى يتجه إلى الخارج لا إلى الداخل، إلى الغير لا إلى النفس . ولذلك كان غضب العربى دائما عالى الصوت، أكثر مما هو عميق فى النفس !.

العقــل العــربــى

ومن النماذج الطريفــة فى كتاب الدكتــورة سنية حمادى، فصل عقــدته للحــديث عن «العقل العربــى».. تقول فيــه المؤلفة أن العــربى لــديه ثــروة ضخمــة من الكلمات والعبارات الشفــوية والنطق الفصيح المنغم والأمثــال والاستشهادات والحكم والأقوال المأثورة، فاللغة فى حد ذاتها ـ كمجرد لغة ـ لها أثر على عقل العربى أكثر من أثرها على أبناء الأمم الأخرى !

وفى رأيها أن سبب هذا يــرجع إلى نشأة اللغة، لقــد بدأت الفصاحــة عند العرب بــإنشاء الشعــر. كان الشاعــر فى وقت من الأوقــات هو الســاحر فى المجتمع.. هو الزعيم والمفكر والداعية. هو سلاح القبيلة ضد خصومها . هو مؤرخ القبيلــة لأحفادهــا. أى أن الشاعــر كان الــرجل الذى يصنــع للناس عقليتهم ونفسيتهم وأفكارهم. ولذلك كانت دراســة الشعر عند العرب علما من أروع علومهم وأكثرها تقدما ..

وعقل العــربى فى رأيها يتميــز بــأنــه لامع، سريع جــدا فى رد فعلــه. وأن

العربى له خيال حى متوثب، وذاكرة قوية لايتمتع بها أى شعب آخر. وتستشهد هنا بقول المؤرخ الأجنبى «هوكنج» ـــ «إن العربى لايحمل فلسفته فى المكتبات. إنه يحملها فى نفسه، سواء كان بدويا أو فلاحا أو تاجرا أو ناشرا. ان العربى لم يبع نفسه للكتب. إنه لايضيع بدونها. إن بئر عقله فيها ماء خاص به يستطيع أن يغترف منه فى أى وقت يشاء!» .

ولكنها تقول ان العقل العربى فيه ثلاث نقاط من نقاط الضعف ..

النقطة الأولى : أن العقل العربى ليس فيه مكان للظلال. ان الحقيقة دائما معقدة فيها أبيض وأسود وفيها أيضا تفاصيل وظلال كثيرة. ولكن العربى لايرى هذا دائما. ان عقل العربى لايعترف بالألوان الواضحة. الشىء إما أبيض أو أسود. الانسان إما خير تماماً أو شرير تماما الموضوع إما صدق أو كذب. إما أن يقبله كله أو يرفضه كله. فهو عقل لايتردد إزاء فحص الظلال والتفاصيل الدقيقة فى أى أمر. إنه عقل يستريح إلى أحد الطرفين النهائيين للموضوع .

نقطة الضعف الثانية : هى ما سبق ذكره من اهتمامه باللغة والفصاحة فى حد ذاتها. فالكاتب العربى فى رأيها يهتم بوقع «كلماته» أكثر مما يهتم بوقع «أفكاره». وهو بدلا من أن يحاول تطويع لغته بحيث تتسع لأفكاره، يعمد بسرعة إلى الاكتفاء بإدخال أفكاره فى قوالب اللغة الجاهزة الفصيحة، بدليل أننا الآن نجد العرب أحيانا يستخدمون كلمات قديمة للتعبير عن معان جديدة فى حياتهم. ومن هنا نجد هذه الكلمات تبدو فى بعض الأحيان غير دقيقة ونجد أن كل واحدٍ يستعمل نفس الكلمة.. وفى عقله معنى خاص لها يختلف عن معناها عند الآخر .

نقطة الضعف الثالثة : إن العقل العربى يقسم الكل إلى أجزاء .. ولكنه لايضم الاجزاء فى كل واحد فهو يكون رأيه بعد دراسة الجزئيات الخاصة بالموضوع، دون أن يعلم أن تجميع هذه الجزئيات فى كل واحد قد يؤدى إلى نتيجة مختلفة تماما.

والفن العربى فى رأيها دليل على هذا «التجزىء» ..

فالشعر العربى يقوم على أساس وحدة كل بيت من الشعر ، لاعلى أساس وحدة القصيدة كلها. كل بيت من الشعر يقتنص جزءا من الحقيقة بدقة وبراعة غريبة. ولكن تجمع الأبيات كلها حول صورة واحدة معدوم

(هذا شىء يتلافاه الشعر العربى الحديث !)

والموسيقى العربيـة تقوم على أساس نغمات وحركـات متوالية متغيرة، وليس فيها عنصر «الهارمونى» .

والـرسم العربى القـديم مدهش فى دقتـه وتفاصيلـه. ولكنه عبـارة عن وحدة متكـررة. فالمساحـة الكبيرة تملأها وحدات مكـررة من نفس الرسم، وليس فيها تكوين شامل لموضوع واحد كبير !

وتقول الدكتور سنية أخيرا عن العقل العـربى أنه نادر فى ذكائه.. ولكنه يضعف مفعول ذكائه هـذا بعاطفيته. فهو لايجمع الحقـائق المجردة ولكنه يميل تلقـائيا إلى أن يجمع الحقـائق التى ترضيـه عاطفيـا. وهو قـد يجمع الحقائق فى أسلوب فنى بديع.. وليس فى أسلوب حسابى علمى صارم !

هذه نماذج من الكتاب، عرضتها كما هى تقريبا، لتوضيح موقف المؤلفة وطريقتهـا . وأما إذا أردنا أن نحصر فكـرة الثلاثمائة صفحـة التى يضمها الكتاب بـوجه عـام.. فيمكن القول أنها تحدثت عن مـزاج العربى وأخـلاقه وشخصيته من ثلاث نواح :

أخلاقه الفردية، وأخلاقه الاجتماعية ، وأخلاقه السياسية ..

والأخلاق واحدة بالطبع. بمعنى أن أخلاق الشخص وطباعه تترك أثرها الواحد فى سلـوكه الفردى والاجتماعى والسياسـى على السواء.. والاخلاق من نواحيها الثلاث ـ الفردية والاجتماعيـة والسياسية ـ هى بالطبع نتيجة واحدة لظروف وعوامل واحدة.. فتقسيم أخـلاق العربى ومزاجه إلى أخلاق فردية وأخـلاق اجتماعية وأخلاق سياسية، هـو تقسيم يقصد به التبسيط وسهولة الفهم ، ولايقصد به الفصل بينها بأى شكل من الأشكال .

كـلام النـــاس !

فى مجال الأخـلاق الشخصيـة ــ مثلا ــ تشرح الكـاتبـة معنى كلمات «المروءة» و«الوفـاء» و«النخوة» و«الحمية» والمعـونة» و«رد الجميل» وهى كلها كلمات هامة فى قاموس الأخلاق العربية .

ثم تنقل قـول أحد العلماء الأجـانب «أن العرب تحكمهم كبريـاء غريبـة اسمها الشرف..وأن العربى قد يقتلك إذا خدشت»..

وتـلاحظ المؤلفـة أن الشرف لـه جانب جنسـى هام.. يتبلـور فى كلمـة

«العرض». فالعلاقة بين الرجل والمرأة يحكمها تأكيد قوى بطهارة المرأة ونقاء سيرتها قبل الزواج وبعده على السواء. وأن العرض بالنسبة للرجل هو حسن سمعة نسائه، ولذلك كان أقسى ما يمكن أن يوجه من إهانة إلى العربى هو إهانة عرضه.. أى توجيه التهمة إلى نسائه .

ومن الكلمات الهامة جدا فى قاموس الاخلاق العربى «الحشمة».. والحشمة هى السلوك العلنى للفرد، ذلك أن ضغط الرأى العام على الفرد العربى قوى جدا. و«كلام الناس» من أقوى العوامل التى تحدد سلوكه وتؤثر فى تفكيره. خصوصا فى المجتمعات الصغيرة حيث كل الناس تعرف دخائل بعضها البعض. فالحشمة عند العربى هى ألا يشرب علنا . وهى أن يتجاهل زوجته علنا. والمرأة العربية المتحجبة تكشف وجهها إذا سافرت إلى بلاد غريبة، أما فى بلدها فهى تعود إلى وضع الحجاب على وجهها.

والعربى كتوم منطو. فبالرغم من أن يبالغ فى إظهار بعض العواطف كالترحيب أو الحزن أو الغضب أو الحماسة، فإن له فى الواقع حياة أخرى باطنية خاصة به. فى قراره نفسه أشياء لايطلع عليها أحد قط. وهو حريص على اخفاء نقط ضعفة بالذات. وجزء من هذا الكتمان والانطواء مرجعه إلى الخوف. فبعد سنوات طويلة من القهر والاستبداد والكبت الاستعمارى، تعلم العربى أن يكتم كراهية الحكام أوالمسيطرين. وتعود أن يخفى هذا الشك بالاكثار من القاء القسم والأيمان والحلف بالله وبغير الله بمناسبة وبغير مناسبة .

والعربى، فى أعماق نفسه الغامضة، حزين. فالرجل بين العرب محترم بقدر ما يتمكن من اخفاء فرحة بالأشياء المفرحة والكبار لايقبل منهم أن يظهروا المرح والضحك والاستمتاع بالحياة، لأن هذا يقلل من شأنهم. وأى إظهار علنى للحب أو الشوق بين الرجل وزوجته أو بين الأب وأبنائه ليس مقبولاً ، لذلك فهم حريصون على إخفائه ، والفتاة بالذات مطلوب منها هذا السلوك بشدة ، فليس عيباً أن تبكى الفتاة مثلا إذا عرض أهلها عليها عريسا لاتريده ، ولكنه عيب كبير، إذا عرض عليها عريس تريده ، وأن تبدى فرحها وابتهاجها الشديد! فالعرب أكثر تقبلا لفكرة إظهار الحزن من فكرة إظهار الفرح. وما يباح للنساء فى الجنازات من صراخ وعويل ورفع للصوت وظهور على الرجال، لايباح لهن مثله فى الأفراح !

والعـربى سريع الذهن. حســاس جدا، وقـد يحكم على انسان مـا حكما نهائيا من مجرد تصرف واحـد أو خبر واحد سمعه عنه، ربما يكـون إشـاعة لاغير .

أم فــــلان !

وفى ميدان الاخــلاق الاجتماعية، تـلاحظ المؤلفة أن الـوحدة فى المجتمع العــربى ليست «الفـرد» ولكنهــا «الأسرة» والأسرة أو العــائلـة أو الأهل فى المجتمع العربى أكبر من معنـاها فى العالم الخارجى. فـالأسرة فى الخـارج قد تكون الـزوج والزوجـة والأولاد فقط. ولكنها عندنـا تشمل دائرة أوسـع من ذلك قليلا .

وفى البيئات العـربية التقليدية يعـرف الفرد بأهله. فهو يقـدم إلى الناس على أنه فلان ابن فلان. وبمجـرد أن ينجب الرجل أو المرأة يصبح اسمه أبا فلان أو ام فلان. وأكثر مدح يقال عن فتى أو فتاة هو أنه «ابن ناس طيبين» أو أنها بنت ناس طيبين. فنحـن نعتقد أن الصلة العـائلية قـوية الأثـر جدا. لانـؤمن بأن الفرد وحـدة قائمـة بذاتها.. قـد يكون خيرا أو شريـرا بصرف النظر عن ناسه وأهله .

وهذا يقـودنا ـــ قبل الأوان ـ إلى الأخــلاق السياسيــة.. فالأهل والأسرة عنصر هام فى الحياة الاجتماعيـة والسياسية.. ففى المستوى القـومى، كان من عيـوب النهضـة القـومية دائما أن ولاء الفـرد كثيرا ما كــان ينصرف إلى الأسرة أو القبيلة أو العشـيرة أو الطائفة التى ينتمـى إليها . فعوامل التجزئة قد تركت آثارها العميقة على مر السنين والقرون والأجيال.. ومن أهم الآثار التى تتركها حركة القومية العربية الآن هى أنها تذيب هذه العوامل البالية.. وتصـهر الشعور القـومى الشامل من جديد .. ليعود الـولاء الكامل إلى الأمة كلها ككيان واحد كبير ..

ومناصب الحكم والإدارة فى الدول العربيـة تتأثر إلى حد كبير بالأوضـاع العائلية الموروثـة. والأحزاب السياسية التى قامت فى المنطقـة قامت إلى حد كبير على أسس عــائليـة أو طائفيـة. وقـد كان النفـوذ الأجنبى يشـجع هــذا باستمرار.. لأن ابقــاء روح التفرقة والتجزئة يجعل الاجنبـى دائما فى مركز أقوى، مركز الذى يختار ويجمع أو يحل ..

وعندمـا قامت البرلمانات فى البلاد العـربية على نمط البرلمانات الغـربية، كان المفـروض أن النائب ـ بعد انتخـابه ـ يصبح ممثـلا للشعب كله. ولكن الأوضاع السابقة فى المجتمع العربى جعلت هـذا مستحيلا، فقد كان النائب يتصرف على أنه ممثل أسرة أو طـائفة أو منطقـة ما . وبالتـالى كان البرلمان لايمثل إلا فئة قليلة من مجموع الشعب .

وقد كـان النواب كلهم بالطبع مـن الأسر التى تتمتع بالملكية الـزراعية بـالذات. كـان الناخب لاينتخب مـرشحه بل المرشح الـذى يفرضـه رئيس القبيلـة أو المالك الـزراعى، حتى فى المدن الصغيرة تلعب الاسرة المعـروفـة القوية دورا أساسيا وتتمتع بفرصة خاصة .

وقد أدى هذا إلى أن النظم البرلمانية فى الشرق العربى لما تأت بجديد. فقد سقطت البرلمانات فى أيدى نفس الطبقـات والأسر التى كانت تحكم وتسيطر وتثـرى من قبل ظهـور البرلمانات. وقـد رحبت الـدول الاستعمارية ـــ كما تقول المؤلفة بحق ـ بهذا الوضـع.. لأن هذه الطبقات هى التى تعودت الحكم من قبل ، ولأنها أكثر تقبلا لأفكار الغرب من غيرها .

وتقول المؤلفة إن السخط الشعبى العـام على البرلمانات من هذا النوع فى البلاد العـربية ليس مصدره عـدم الموافقة على فكرة الحكم الـدستورى فى ذاتها، ولكن مصـدره الاقتنـاع بأن هـذه البرلمانـات فشلت فى أداء مـا كـان مطلوبا منها. فهى أبقت على نفس الاستغلال القديم .

الرعيـــة والحـــكام !

ومن النقاط الهامة التى تثيرها المؤلفة علاقـة الناس بالحكومة.. وفكرة الحكم وأسلوبه..

وتسرد المؤلفة هنا تاريخ تلك العلاقة منذ كان الحاكم هو شيخ القبيلة.. ثم ظهور الاسلام.. ثم الامبراطـوريات الاموية والعباسية ومـا بعدها إلى أن جاء الغزو التركى واجتاح البلاد العربية كلها..

وتقول المؤلفة أن «الشرخ» العميق بين «الـرعية» و «الحكام» فى المجتمع العربى بدأ قبل الاتراك بكثير. وإن كان الاتراك قد زادوه حتى تفاقم تماما..

بدأ هـذا الشرخ.. منذ تكـونت الامبراطوريـات الاسلاميـة.. منذ تحولت «الخلافة» من الانتخـاب إلى الوراثـة.. وبدأ بـالتالى الانفصـال بين السلطة

وبين المعنى الحقيقى للدين. أصبح الحكم وراثة ومحسوبية وفسادا ورشوة. ابتعدت المسافة بين الله وبين الحكام إلى درجة أصابت «الرعية» بخيبة أمل عميقة جدا. كان يأسهم هائلا بقدر ما كان أملهم عظيما .

ومع مرور الأيام، وقدوم الاتراك، تحولت فكرة الدولة كلها إلى فكرة استغلال الناس، كما هو معروف حتى أصبحت وظيفة حاكم القطر نفسها صفقة يشتريها صاحبها بالمال ليكسب منها. وزرع ذلك فى نفوس الناس كراهية أصبحت طبيعية ضد كل من هو حاكم وكل ما هو حكومة. فالحكم هو اغتصاب وامتياز وضرائب وفساد .

ومن ذلك الوقت اقترن منطق الحكم بالفظاظة والتعالى والعنف. أصبح مظهر السلطة هو العنف. وأسلوبها هو الخشونة والفظاظة وازدراء الرعية. اختفت فكرة «المسئولية» فى الوظيفة العامة وحلت محلها فكرة «السلطة» .

وعندما نرى ما يتميز به الفلاح المسكين مثلا من شك وتزلف وكتمان وخوف.. فهو إنما يعتبر عما أصابه خلال مئات السنين . إنه يشك فى الحكومة ويرتاب فى الأغنياء والأقوياء مهما كانوا لأنهم تعودوا اغتصابه . وهو يتزلف للسلطة. وهو حتى إذا فرح كتم فرحته. وإذا ادخر دفن ادخاره. وإذا رزق رزقا سعيدا أخفاه خشية الحسد.. كأن الحدث السعيد شىء لايقع وإذا وقع فهو ضد القاعدة وضد ما يتوقعه الناس من دنياهم !

هذه لمحات سريعة من كتاب Temperament and character of the arabs

وهذه اللمحات تختلف عن الكتاب نفسه.. فى أن الكتاب أكثر حدة فى النقد، والهجوم، والتشريح. وفى هذا المجال وقعت المؤلفة فى بعض أخطاء هامة ..

فمن الصحيح ولاشك أن كل شعب له خصائص تميزه وصفات خاصة به. ولكن من الصحيح أيضا أن هناك كثيرا من الأمراض الاجتماعية ليس مرتبطا بطبيعة أى شعب، بقدر ماهو مرتبط بالظروف التاريخية والمادية والمعنوية التى يمر بها هذا الشعب .

فكثير من العيوب التى ذكرتها الدكتورة سنية عن العرب.. هو فى الواقع العيوب المرتبطة بالمجتمع القبلى .. المجتمع الاقطاعى.. المجتمع المظلوم

المقهور.. وهو بالتالى عيوب موجودة فى أى شعب يمر بهذه المرحلة وهذه الظروف ولعل المؤلفة أشارت إلى شيىء من هذا فى بعض الأجزاء.. ولكن هذا لايكفى إذا كان يجب تقرير هذا المبدأ كقاعدة أساسية فى الكتاب.. لاتتعارض طبعا مع وجود خصائص متميزة للشعب العربى بالذات ..

العيب الثانى أن الدكتورة المؤلفة كانت تلجأ دائما إلى التصميم الشديد. فكل صفة تذكرها ـ فى مقام المدح أو الذم على السواء ـ تذكرها مطلقة.. على أساس أنها تشمل كل العرب.. أو أنها الطابع الغالب للعرب. فى حين أننا نعرف أن الأمة العربية، وإن كانت لها خصائص واحدة، إلا أن ظروفها الثقافية والمادية متباينة إلى حد كبير، فبعض أجزاء الوطن العربى مستقل، وبعضها محتل، وبعضها شبه مستقل فقط. وبعض الأجزاء يعيش فى القرن العشرين وبعضها يعيش فى القرن العاشر وبعضها بدوى وبعضها زراعى وبعضها تنمو فيه بيئات صناعية هامة..

ومن هنا ينجم العيب الثالث وهو أن المؤلفة ـ رغم أن كتابها صدر سنة ١٩٦٠ ـ فإنها لم تأخذ فى حسابها التطورات الخطيرة التى حدثت فى حياة العرب فى السنوات الأخيرة. فبدت الصفات التى تحدثت عنها كأنها صفات أبدية، وأزلية فى نفس الوقت.. وبدت العيوب كأنها عيوب جامدة.. لاتتحول ولاتتبدل !.

ولكن الكتاب، رغم ما فيه من بعض الاندفاعات مجهود يستحق التقدير.. فى حقل يستحق منا مزيد البحث والعناية والاهتمام : حقل دراسة النفس العربية.. والشخصية العربية .. فى ماضيها، وحاضرها، تمهيدا لمستقبلها !

أعلن يوجين بلاك ، مدير البنك الدولى ، مولد مهنة جديدة !

أعلن ظهور « دبلوماسى التنمية » و « دبلوماسية التنمية ».. وهى مهنة تختلف عن مهنة الدبلوماسى السياسى كما عرفها العالم قبل ذلك..

قال يوجين بلاك فى كتاب أصدره من أسابيع : ان العالم قد عرف السياسى الذى لا ينظر إلا الى الاعتبارات السياسية .. كما عرف التاجر والمستثمر اللذين لا يعرفان إلا التجارة والربح والخسارة .. ولكن بين الاثنين فجوة واسعة ظهرت الآن ليملأها نوع جديد هو : الدبلوماسى الاقتصادى .. أو دبلوماسى التنمية !

اسم الكتاب هو « دبلوماسية التنمية الاقتصادية »..

والذى أوحى له تأليفه بالطبع هو منصبه كمدير للبنك الدولى.. والنماذج التى أضاءت له الفكرة نموذجان :

الأول ـ الدور الذى قام به بعد حرب السويس ، مع الجمهورية العربية المتحدة ، لتصفية الآثار الاقتصادية للمشكلة .

ثورة الآمال الكبيرة !

أخبار اليوم .. فى :
١١ / ٢ / ٦١

والثانى الدور الذى قام به لحل الخلاف بين الهند وباكستان حول استغلال نهر السند .

يقول يوجين بلاك ان هذه « الدبلوماسية الاقتصادية » الجديدة هى التى تصنع الآن أكبر الأنباء .. وان كانت هذه الأنباء ليست من النوع الذى تنشره الصحف فى صفحاتها الأولى .

ويطالب يوجين بلاك بأن يكون لهذه الدبلوماسية كيان قائم بذاته مستقل عن الجهاز الدبلوماسى السياسى المعروف ..

يقول يوجين بلاك ان دبلوماسية التنمية الاقتصادية هى فن تحقيق التنمية بأقل قدر ممكن من الصراع . ذلك ان كل تطوير اقتصادى ينطوى حتما على تغيير اجتماعى . والتغيير لا يتم بسهولة . ومن هنا كانت التنمية مهمة دقيقة وخطرة .

ويقول يوجين بلاك ان الناس فى البلاد الفقيرة بدأوا يرفضون الاعتراف بأن فقرهم حظ لا مفر منه ، ويؤمنون ان الانسان يستطيع ان يسيطر على حياته ويغيرها . وقد وجد هذا التغير الشعبى قادة يعبرون عنه ، وزعماء يريدون ان يحققوا لشعوبهم فى أجيال قليلة كل ما وصلت اليه الحضارة عبر قرون طويلة . ويطلق يوجين بلاك على هذا اسم : ثورة الآمال الكبيرة !

ودبلوماسية التنمية الاقتصادية عليها ان تواجه هذه الآمال المتحمسة ، فالدبلوماسية السياسية منذ قرون تعرف عملية « توازن القوى ».. أما الدبلوماسية الاقتصادية فعليها ان تواجه عملية جديدة يمكن ان تسمى « توازن الآمال » .. أى : كيف تكون للبلاد المتخلفة اقتصادياً آمال متوازنة .

الاقلية المتعلمة فى أزمة نفسية !

ويركز يوجين بلاك على موقف البلاد الناشئة فى أن مشكلتها الكبرى هى الفقر وازدياد عدد السكان . وهذه الزيادة فى السكان قضت على الأمل التقليدى للمواطن فى تلك البلاد ، وهو امتلاك قطعة خاصة به من الأرض ، لأن الأرض لا تكفى . فنحن هنا نواجه حالة « انهيار الآمال القديمة ». وهذا الفلاح نفسه اذا اضطر للهجرة الى المدينة فإنه يحس - أول الأمر على الأقل - بالضياع وعدم الأمن إزاء هذا الشكل الجديد للحياة والعمل والعلاقات .

أما الآمال الجديدة فهى فى الواقع مركزة فى الاقلية المتعلمة هى أبرز

عوامل الخطر فى البلاد المتخلفة اقتصاديا . انها تواجه أزمة نفسية حادة . فالثقافة اعطتها من الآمال والاحساسات اكثر مما قدمت لها من فرص مادية لتحقيق هذه الآمال الطبيب الذى يعرف ماذا يستطيع الطب ان يصنع من معجزات ، ولكنه لا يجد الأدوات . المهندس الذى لا يجد المصانع . المدرس الذى لا يجد المدارس والكتب . السياسى الذى لا يجد الاتباع الذين يفهمون ما يريد ان يصنعه من أجلهم .

هذه الفئات المرهقة نفسيا التى قادت ثورات التحرر الوطنى فى البلاد المتخلفة . وهى التى عليها الآن مهمة اعداد بلادها لنظم اقتصادية حديثة .

ان يوجين بلاك يعتقد ان الزعماء فى تلك البلاد يواجهون مهمة من أقسى وأصعب ما واجه الزعماء من مهمات فى جميع مراحل التاريخ !.

انهم يعرفون ان شعوبهم لابد ان تضحى ، لكى تتخلص من فقرها وتخلفها .

والسؤال الخطير هو : هل يستطيع مجتمع فقير ان يتطور ، دون ان يضطر الى الأخذ بنظم قاسية ، أو غير عادلة ؟.

وفى الفصل الثانى من هذا الكتاب وعنوانه « دبلوماسية المساعدات الاقتصادية » يبدو يوجين بلاك أكثر فهما لمشاكل البلاد الناشئة من مواطنيه الأمريكان ، أو من السياسة الأمريكية التى عرفناها الى الآن .

فهو يعترف بالدور القيادى الذى يجب ان تقوم به « الدولة » فى عملية التنمية الاقتصادية .. ولا يتشبث بفكرة اعطاء كل شىء للاقتصاد الفردى كما يطالب عادة الاقتصاديون الرأسماليون .

وهو يعترف بأهمية أسلوب « التخطيط »فى انهاض البلاد الناشئة .. بل ويطالب بالتخطيط كسلاح أساسى فى هذه المعركة .. فالتنمية الاقتصادية ليست مجرد اقامة سلسلة من المشروعات . بل لابد ان تكون هذه المشروعات داخلة فى إطار خطة عامة اقتصادية .. وهذه الخطة الاقتصادية لابد ان تكون جزءا من السياسة القومية للبلاد .

وهو يطلق على التخطيط تعريف طريف فيقول : التخطيط معناه ان يعرف السياسى نتائج القرار الذى يتخذه ، قبل ان يتخذ هذا القرار ، وليس بعد ذلك . والتخطيط معناه ايجاد صلة وتجاوب مستمر بين الذين يتخذون

قرارات الخطة ، والذين يتولون تنفيذها .

وهو بعد ذلك يحذر بشدة من وضع خطة شاملة بشكل أكاديمى على أساس ما يتمناه الناس ، لا على أساس الحقائق . لأن مثل هذه الخطة غير الواقعية ، اذ تصبح قانونا للبلاد قد تؤدى الى عواقب وخيمة .

ولكن يوجين بلاك — وهو يسجل أهمية دور الدولة وأهمية أسلوب التخطيط — يقول ان الأخذ بهذا الأسلوب لا يحتاج الى عقيدة معينة أى «ايديولوجية » معينة . فهو يعترف بهذه الأساليب ، لأسباب عملية محضة .

والمعنى من هذا الكلام واضح فهو يريد ان يستبعد أى فكرة اشتراكية ـ أو شيوعية طبعا ـ من الموضوع . انه ، كمؤمن بالنظام الاقتصادى الغربى ، يعترف بدور الدولة وبأسلوب التخطيط ، ولكنه يرفض فكرة ان هذه الأساليب جزء من عقيدة اشتراكية ، انه يرفض فكرة ان الاشتراكية قد تكون اكثر فهما لمشاكل الدول الناشئة وأكثر ملاءمة للنهوض بها .

ولذلك فهو يستبعد من الموضوع كله أى لون عقائدى . ويقول ان الاعتراف بدور الدولة القيادى فى التنمية وبضرورة التخطيط الشامل لا يحتاج الى عقيدة معينة .

فهو يحاول إقامة « جسر » بين هذه الاتجاهات وبين الدول الرأسمالية بدلا من ان يقوم جسر آخر بينه وبين الشيوعية !.

وهو فى هذا يسير فى الواقع عالم نهج نظرية الاقتصادى الأمريكى الكبير « والت ويتمان روستو » صاحب النظرية التى سبق ان قدمتها عن مراحل النمو الاقتصادى .

وليس هذا استنتاجا محضا فالمؤلف نفسه ، فى الصفحات الأولى . من الكتاب ، يذكر هذا البحث لروستو بالتقدير الكبير ..

ثم يعود يوجين بلاك الى إظهار تقديره للصعوبات الجمة التى تواجه البلاد الناشئة ، فى هذا المجال .. فيقول فى صفحات بليغة ان عملية التنمية تصطدم كل يوم وكل ساعة باعتبارات كثيرة .

فهناك صراع دائم بين مطالب التنمية ، ومطالب الناس العادية ورفاهيتهم .

وهناك صراع دائم بين مطالب التنمية ومطالب الأمن والدفاع الوطنى .

وهناك صراع بين مطالب التنمية وبين الرغبة فى تشغيل اكبر عدد .
كل هـذه صراع من الصراع تواجههـا خطـة التنمية ، كل لحظـة يواجـه المسئول عنها موقفا يحتـاج الى اختيار .. والقاعدة ان أى انفاق فى أى شىء آخر ، يعد ضـارا بمصلحة التنمية وبالتالى يـؤجل حل مشكلة الفقر ، ولكن الزعيم السيـاسى لا يستطيع ان يلغى كل شىء فى سبيل التنمية فحسب .. ان عليـه ان يـوائم بين أشيـاء كثيرة .. بين مصـالح البـلاد السيـاسيـة ، وظروفها الـدفاعية ، ورغبات النـاس العادية ، واتجاهات الفئـات المحافظة التى لا تتلاءم بسرعة ، وعشرات أخرى من الظروف .
ويقـول يوجين بـلاك ان « دبلومـاسى التنميـة الاقتصاديـة » يجب ان يعترف بأهمية هذه الظروف كلها ويدركها . فلا يمتحن كل شىء على ضوء الربح والـخسارة فقط .

نقطـة الخـلاف

ونقطة الـخلاف الأساسية مع يـوجين بلاك هى أنه بعد ان يسرد فى فهم دقيق كل ظروف البلاد الناشئـة .. لا يصل الى النتيجة المنطقية لذلك وهى : أهميـة العقيـدة فى الموضوع . فبغير العقيـدة فى الـواقع لا يمكن ربط هـذه الأشياء كلها فى حركة متناسقة مندفعة الى الأمام .
وقد ركـز يوجين بلاك حـديثه على ناحيـة رفع الانتاج ، ولم يشر بشىء الى عدالة التوزيع وقـد يقال ان هذا موضوع خارج عن اختصـاصه كمدير بنك لا شـأن لـه بالسيـاسـة الـداخلية لأى بلـد ولكن اذا كان المجـال مجال دراسـة لوجهة نظـر متكاملة .. فلا بد من القول بأن عمليـة رفع الانتاج لابد ان يراعى فيهـا « إعادة التوزيع » تـدريجا . وهذا فى الواقع هـو أهم ما أراد يـوجين بلاك ان يستبعـده من دراستـه ، وهو مـن أهم ما نـؤمن بضرورة وجوده فى أى خطة اقتصادية للتنمية .

باقة ورد اشتراها ايخمان لزوجته هى التى قضت عليه!

أخبار اليوم .. فى :
١٨ / ٢ / ٦١

أذيعت لأول مرة ، القصة الحقيقية لحادث خطف أدولف ايخمان من الأرجنتين بواسطة مخابرات اسرائيل ، ونقله الى اسرائيل سرا تمهيدا لمحاكمته هناك .. وهى المحاكمة التى سوف تجرى بعد أسبوعين ..

وقد أذاع القصة مستشار بن جوريون الخاص لشئون العلاقات العامة .. « موشى بيرلمان » الذى نشرها كاملة فى كتاب اصدره بعنوان « خطف ايخمان »

تقول القصة : ان يوم ٢١ مارس هو أول أيام الربيع . ولكنه كان يوما مشئوما بالنسبة لايخمان . ففى يوم ٢١ مارس سنة ١٩٣٥ تزوج ايخمان . وفى يوم ٢١ مارس سنة ١٩٦٠ ، كان اليوم الحاسم فى مصيره ، اليوم الذى تقرر فيه اختطافه نهائيا !

لقد كان ايخمان ـ بعد فراره من أوروبا ـ يعيش فى ضاحية « سان فرناندو » القريبة من مدينة بوينس ايريس عاصمة الأرجنتين . كان يسكن هو وزوجته وأولاده الثلاثة فيلا فقيرة منعزلة . وكان يعمل فى مصانع مرسيدس بنز فى الطرف الآخر للمدينة .. فكان عليه ان يسير كل يوم حوالى

٣٠٠ متر الى محطة الأوتوبيس الواقعة على الطريق الزراعى المهجور ، ليركب الأوتوبيس الذى يوصله الى محل عمله .

ولم يكن احد يعرف أن هذا هو ايخمان . كان المعروف فقط ان السيدة ربة البيت هى « أرملة ايخمان ».. وان ايخمان نفسه مات أما الرجل الذى يعيش معها فهو زوجها الثانى ويدعى « ريتشارد كليمنت » هذه هى القصة التى كان الناس يعرفونها . والتى عاشت هذه الأسرة بها ثمانى سنوات كاملة ، من سنة ١٩٥٢ الى سنة ١٩٦٠ ، دون ان يقلقها أحد !

المراقبـــــة !

ولكن فى تلك الشهور الأولى من سنة ١٩٦٠ ، كان هناك من يراقب ايخمان ، دون ان يشعر ..

لقد استأجرت مخابرات اسرائيل بيتا يقع على بعد ٢٠٠ متر تقريبا من بيت ايخمان . لا تفصله عنه إلا الحقول . وخلف نافذة مفتوحة لا تنسدل عليها إلا الستائر المعدنية ، كان يوجد « تليسكوب » قوى جدا ، يستطيع ان يرى كل شيء فى بيت ايخمان .. ويستطيع الناظر فيه ان يسجل كل حركة يقوم بها ايخمان من لحظة ان يستقيظ من النوم صباحا الى ان يركب الأوتوبيس الذى يحمله الى المصنع صباحا .. ومن لحظة نزوله من الأوتوبيس عصرا ، الى ان يأوى الى فراشه !

كان الذى يجلس وراء هذا التليسكوب يدعى « جاد » وهو ليس اسمه الحقيقى طبعا ، ولكنه اسمه المستعار . فإذا انطلق الأوتوبيس حاملا «ايخمان » الى المصنع . ترك « جاد » التليسكوب ليدق التليفون لرجل آخر من مخابرات اسرائيل اسمه « دوف » ليقول له كلمة واحدة هى « كاراجيل » وهى كلمة عبرية معناها « كالعادة » أما دوف هذا الذى يتلقى هذا التليفون فهو يقيم فى شقة أخرى استأجرتها مخابرات اسرائيل أمام المصنع الذى يعمل فيه ايخمان ، ومعنى ذلك ان يبدأ فى مراقبته من لحظة نزوله من الأوتوبيس أمام المصنع الى ان يدخل فيه .. ثم فى اثناء خروجه منه آخر النهار .

ولم يكن دوف يراقبه من تليسكوب .. إنما كان يأخذ فى يده حقيبة أوراق عادية وينزل الى الشارع ، ويقف على محطة الأوتوبيس التى سينزل

عندهـا ايخمان . وعندما ينـزل ايخمان يحاول دوف ان يتبعه دون ان يثير شكوكـه . ان فى حقيبة اليد التى يحملها دوف تـوجد كاميرا حساسـة جدا . عـدسـة الكاميرا هى زرار الحقيبـة . وبينما دوف يسير فى بـراءة ، يضغط دوف بأصبعه على زرارين فى يـد الحقيبة ، فتلتقط صورا متـوالية لايخمان من جميع الزوايا !!.

هــل هــو ايخمــان ؟

ولكن .. لماذا كانـوا يحاولون التقاط صـورة كل يوم .. ويرسلـون هذه الصور الى تل أبيب ؟

السبب هـو انهم لم يكونـوا متأكديـن مائة فى المائة ان هـذا الرجل هـو ايخمان بالفعل !!

فمنـذ سنـة ١٩٥٢ عندمـا اختفت زوجتـه وأولاده من النمسـا فجأة ، انقطع خيط المطاردة الاسرائيلية لايخمان . كانـوا لا يصدقون ان الرجل قد مات . ولكنهم لا يعثرون له على أثر..

ويقـول المؤلف : ان أهم عنـاصر المطـاردة فى هـذه المسـائل هم أفـراد الجاليات اليهودية فى شتى بلاد العالم .. ومعنى ذلك ان الجاليات اليهودية فى كل بلاد العـالم تتجسس مباشرة لحساب اسرائيل ، ولـو على البلاد التى تنتمى اليهـا طبعا . وفى سنـة ١٩٥٩ كان هنـاك تاجـر يهودى استطاع ان يـدخل المجتمـع الأرجنتينى دون ان يعـرف احـد انـه يهودى . وعلى هـذا الأسـاس اختلط بمجتمع الألمان الذين يعيشـون فى بوينس ايـريس . وعلى أساس هـذه الثقة سمع يومـا ان أرملة ايخمان تعيش فى أطـراف المدينة مع زوج جديـد اسمه ريكـاردو كليمنت . وأرسل اليهودى الأرجنتينـى المتنكر برقية سريعة بذلك الى مخابرات تل أبيب .. فبدأت المطاردة من جديد لمعرفة هل هذا الزوج حقا اسمه كليمنت ، أم انه ايخمان نفسه ؟.. ان ايخمان برغم خطورة مركـزه أيام هتلر فصوره قليلـة . الذين يعرفونـه شخصيا قليلون جدا . فقد كان حريصـا دائما على ان يبقى فى الظل . ومن هنا كانوا يلتقطون لـه ، سرا ، عشرات الصور من كل الـزوايـا ويرسلـونها الى تل أبيب ، حيث يجرى عرضها على كل من عرفه أو رآه أو لديه صور له .

وقد كان المرجح انه هو ايخمان .. ولكن الدليل القاطع لم يكن متوافرا .

بـاقـــة الـــورد !

ومضت مراقبـة ايخمان فى دقائق حيـاته يـوما بعد يـوم وأسبوعـا بعد أسبوع ، لتسجيل كل حـركة له . كان منتظما فى حياتـه جدا . لا شىء يتغير أبـدا . وفى يـوم من الأيام .. حـدث تغير بسيط .. لقـد اشترى ايخمان عنـد عودتـه من المصنع باقة فاخـرة من الورد ، حملها معه .. وعنـدما وصل الى البيت فتحت له زوجته .. واعطاها باقة الورد فى إعزاز كبير !

وأخذ الـذين يراقبونه يفكـرون فى السبب . ما هى المناسبـة التى تجعله يشـترى هذا الورد اليـوم ؟. وأخذوا يراجعون مـا لديهم من أوراق تضم كل المعلومات عن حياة ايخمان .. واكتشفوا السر !

ان اليوم هو يوم ٢١ مارس سنة ١٩٦٠ !..

وقد تزوج ايخمان من زوجته يوم ٢١ مارس سنة ١٩٣٥ !

اذن فلابد ان هذا الرجل هو ايخمان نفسه . من المستحيل إذا كان زوجاً ثانياً لأرملة ايخمان ـ ان يحضر لها باقة ورد فى ذكرى زواجها الأول ! ومن المستحيل ان يكون شراء الـورد يوم ٢١ مارس بالـذات ، بعد ٢٥ سنة على الزوواج ، مجرد مصادفة .

لقد ارسلوا تلك الليلة برقية الى تل أبيب نصها : « الرجل هو الرجل » .

وعلى الفور بدأ التفكير فى الخطوات التالية ..

الخـطـــف !

كيف يمكن ـــ أولا ـ ان يتم خطفـه ؟ واين ـــ ثانيـا ـ يـوضع ايخمان فى بوينس ايريس حتى يتم اخـراجه من البلاد ؟وكيف يمكن ـ ثالثـا ـ تهريبه من الأرجنتين الى اسرائيل ؟..

وكان لابد من حل المشكلتين الثانية والثالثة قبل تنفيذ عملية الخطف ..

أما عن المكان الذى يمكن ان يسجن فيـه ايخمان بعد خطفه ولو لبضعة أيام .. فكان هنـاك اقتراحان : الأول هو وضعه فى فيلا من الفيـلات المنعزلة التى يملكها احد يهود الأرجنتين وهم كثيرون وأغنياء . والاقتراح الثانى هو استئجار فيـلا تكون ملائمة لهذا الغـرض ، حتى لا يورطوا أحـداً من أفراد الجالية اليهودية فى مغامرات قد تنكشف ..

ويقـول المؤلف انهم اختـاروا الحل الثـانى واستأجـروا بـالفعل بيتـا

معزولا اعدوه لهذا الغرض . وقد لا يكون كلام المؤلف صحيحا . ولعلهم ، وهذا مرجح بسبب السرعة وضيق الوقت ، استخدموا بالفعل بيت احد يهود الأرجنتين ولكن المؤلف وهو مستشار بن جوريون للشئون العامة ، يريد ان يبعد عن جاليات اليهود فى شتى البلاد شبهة قيامهم بأعمال غير مشروعة لحساب دولة أجنبية .. هى إسرائيل !!

أما عن وسيلة نقله الى الخارج فهى أما البر أو البحر أو الجو ..

ان نقله بالبر سهل جدا .. ولكن الى دول أخرى فى امريكا اللاتينية وهذا لا يقترب به من اسرائيل ..

ان انسب طريقة هى البحر . بشرط ان تكون الباخرة اسرائيلية . لأن قبطان أى باخرة من جنسية أخرى لو ارتاب فى الأمر فسوف يطلق سراح ايخمان وينزله فى أول ميناء تمر به السفينة . كذلك يجب أن تكون الباخرة اسرائيلية . لأن قبطان أى باخرة من جنسية أخرى لو ارتاب فى الأمر فسوف يطلق سراح ايخمان وينزله فى أول ميناء تمر به السفينة . كذلك يجب ان تكون الباخرة الاسرائيلية باخرة بضاعة لا باخرة ركاب . لأن باخرة الركاب سيكون فيها ناس كثيرون من جميع الجنسيات وقد يكتشفون الأمر ويثورون .

ولاشك ان الباخرة اسلم من الطائرة لأن الطائرة لا يمكن ان تطير رأسا الى مطار اللد فى اسرائيل . بل انها ستتوقف فى عدة مطارات وأحيانا تجرى عمليات تفتيش الطائرات .. ولكن ميزة الطائرة انها تصل بايخمان بعد ٢٤ساعة فقط أما الباخرة فإنها تستغرق أسابيع وقد يذيع النبأ وتحدث ضجة قبل ان يصبح ايخمان فى اسرائيل فعلا . ثم ان حراسته خلال هذه الأسابيع فى الباخرة صعبة جدا فمن الممكن أن يقذف بنفسه الى البحر فى أى لحظة . وتقرر استخدام الطائرة رغم كل ما فيها من مخاطر . ولا يمكن طبعا ان تكون طائرة ركاب عادية أى تسير خط طيران عادى . لابد ان تكون طائرة خاصة .

الآن تم كل شيء .. تم استئجار طائرة لا يكشف المؤلف عن شركة الطيران التى قدمتها لهم .. وتم استئجار بيت واعداد غرفة فيه كزنزانة ليس فيها أى أثاث . وتم رسم خط الطيران . فالطائرة ستطير رأسا الى مطار

فى غرب افريقيا ، لايكشف المؤلف عن اسمه . ومن غرب افريقيا الى اسرائيل . وبقاء ايخمان فى البيت بعد خطفه لا يجب ان يزيد على ثلاثة ايام . لن تذهب زوجته خلالها الى البوليس وإلا فمعنى ذلك انها تعترف بأن زوجها هو ايخمان . وهى لن تفعل هذا إلا بعد أيام .. أى بعد ان تيأس .

وقصة الخطف نفسها عادية . وقفوا له بسيارة بالقرب من محطة الأوتوبيس التى ينزل فيها وتظاهروا بأن فى السيارة عطل حتى لا يثيروا شبهات العابرين . واختاروا ساعة عودته الى البيت لأنها ساعة ما بعد الغروب والنور باهت والطريق لا يمر به احد وعندما اقترب منهم ايخمان هجموا عليه مرة واحدة ، وقفزوا به الى حفرة على جانب الطريق الزراعى حيث أتموا ضربة وربط ايديه دون ان يكونوا عرضة لأن تراهم سيارة عابرة ، ثم صعدوا به الى السيارة .. التى انطلقت بسرعة .. و « اذا تحركت حركة واحدة فسوف تضرب بالرصاص ! » .. وكانوا قد عصبوا عينيه حتى لا يعرف مقر السجن الذاهب اليه ..

وعندما دخلوا به الى البيت .. وأغلقوا الأبواب .. اضاءوا الأنوار القوية ورفعوا العصابة عن عينيه .. وسأله واحد منهم : من أنت ؟

وكان قد أدرك كل شىء .. فقال أنا أدولف ايخمان .

وجعلوه يخلع ملابسه كلها .. ويقف تحت الضوء عاريا تماما .. وفتشوه وفتشوا ثيابه تفتيشا دقيقا .. خشية ان يكون معه أىْ شىء يمكن ان ينتحر به .

الوثيقة المزيفة !

وهنا يروى المؤلف قصة مضحكة ساذجة. انه يحاول ايهام العالم ان ايخمان ذهب الى اسرائيل طائعا مختارا فهذا ما قالته حكومة اسرائيل فى تبرير عملها الذى هزأ بكل قانون دولى أو قانون خاص . فالمؤلف يقول انهم قالوا له انهم سيأخذونه الى اسرائيل حيث تجرى له محاكمة عادلة فهل لديك اعتراض ، فقال : لا !!. ثم يقول المؤلف ان ايخمان رحب بالمحاكمة لكى يتخلص من العبء الذى يثقله ضميره !

ومن المضحك طبعا ان نتصور ان ايخمان كان مختارا ! وان اسرائيل بعد جهود وترتيبات ومغامرات ونفقات سنة كاملة ، كانت مستعدة ان تتركه لو قال انه يرفض المحاكمة !!

وبا المثل ـ يحاول المؤلف ان يوهمنا ان الوثيقة التى كتبها ايخمان تبرر ـ قانونا ـ عملية الخطف .. وثيقة قال فيها « انا الموقع ادناه ، أدولف ايخمان أعلن بملء حريتى (!!) حيث ان شخصيتى الحقيقية قد عرفت فلا أجد داعيا لمواصلة تجنب العدالة وأعلن رغبتى فى الذهاب الى اسرائيل لأواجه المحاكمة ! وانتى اكتب هذه الوثيقة بملء حريتى . دون تهديد أو ترغيب لأنتى أريد ان احصل اخيرا على سلام النفس ! »

وتحت ذلك توقيع ايخمان وتاريخ « بوينس ايريس فى مايو ١٩٦٠ ».

وغرض اسرائيل من ذلك واضح .. ان محاكمة ايخمان فى أساسها غير شرعية لأن أسلوب خطفه غير شرعى ولأن القانون الذى يحاكمونه به غير شرعى . انه عمل انتقامى سافر متجرد من كل تبرير شرعى . وقد حاولوا تغطية ذلك بإرغام ايخمان طبعا على كتابة هذا الاقرار . ومن المؤكد انه كتبه فى سجون تل أبيب .. ولكنهم أرخوه بتاريخ وجوده فى الأرجنتين ليقولوا انه سافر الى اسرائيل بإرادته وليس خطفا .

ولكن .. اذا كان الأمر كذلك .. ففيم اذن كان كل هذا لمحاولة نقله سرا ؟..

وجاء يوم نقله .. أعطوه فى الليل قهوة فيما مخدر قوى فنام على الفور ثم خلعوا ملابسه وألبسوه بيجام وروب دى شامبر وعلى الباب كانت تنتظره سيارة فارهة .. فقد قالوا انه رجل غنى مريض جدا ومسافر الى الخارج ليعرض نفسه على طبيب عالمى وهذا يفسر انه فاقد الوعى ، وانه فى ملابس النوم . وانه يستأجر طائرة خاصة ! فى المطار اجتازوا به الجمرك بأوراق مزيفة . ونقلوه فى « نقلة » الى الطائرة وهو مخدر تماما وغائب عن الوعى .. ومعه اثنان من مخابرات اسرائيل فى ثياب المرضين !.. ومعهم كميات من القهوة المزودة بالمخدر يسقونه منها كلما لاح انه على وشك أن يفيق !..

وقال ابن جوريون فى البرلمان الاسرائيلى ان ايخمان جاء بملء إرادته .

العمـــلاء !

شىء هام يلوح فى كل سطور القصة ..ولا يمكن تصورها بغيره . هو : العدد الهائل من العملاء الذين يساعدون مخابرات اسرائيل ويعملون لها .. كلهم يهود مواطنون فى بلاد أخرى .. يظهرون « الولاء للبلاد التى تطعمهم وتؤويهم .. ولا يبطنون إلا الولاء لاسرائيل !.



أمامنا فرصة كبيرة يجب أن نستغلها بسرعة .. هى الأزمة القائمة فى إسرائيل.

وليس المهم هنا هو الأزمة ذاتها .. ولكن المهم هو سبب هذه الأزمة . الأزمة سببها مايسمى « قضية لافون » .. أو قضية « الكارثة المتعلقة بالأمن » كما تسميها أحيانا صحافة إسرائيل ان الأجهزة السياسية والدعائية عندنا يجب أن تتحرك بسرعة وبشكل مدروس فى نفس الوقت لاستغلال هذه الأزمة .

لماذا ..

لأن سبب الأزمة هو أكبر نقطة سوداء يمكن أن تسود صفحة إسرائيل فى العالم الخارجى .. وفى الولايات المتحدة الأمريكية بالذات .

صحيح أن إسرائيل ارتكبت أعمالا وحشية ، كثيرة مازالت آثارها ماثلة فى مليون لاجىء ولكن القصة الجديدة ، المعاصرة لها دائماً وقع أعمق وأكبر على الرأى العام العالمى .

وإسرائيل تهتم جدا باسمها وسمعتها فى الخارج . انها تبنى دعايتها على أساس أنها تضم شعبا اضطهده وعذبه الطغاة لتمسكه بعقيدته وبكيانه .

القصة الكاملة لفضيحة لافون

أخبار اليوم .. فى

١٨ / ٣ / ٦١

وهى تهتم إلى أقصى حد بأن يكون لها رصيد معنوى كبير فى العالم الخارجى . وأكبر دليل على ذلك استغلالها لقضية ايخمان مثلا .ان إسرائيل لاتبغى مجرد الانتقام من ايخمان . انها تريد دائماً احياء قصص اضطهاد اليهود وابقاءها ماثلة فى مخيلة الناس ، ليجد الناس مبررا لتصرفات إسرائيل .

ونحن يجب ان نستغل قضية لافون كما تستخدم إسرائيل قضية ايخمان ان قضية لافون ، وقد انكشف الستار عن أسرارها ، يمكن أن تصيب سمعة إسرائيل فى الصميم ، وتنبه جانبا كبيرا من الرأى العام المخدوع إلى حقيقتها ..

بشرط أن نعرف النقط التى نركز عليها الضوء فى هذه القضية ، والاسلوب الذى تذيعها به ..

ولكن ما هى أولا قصة لافون كاملة .. بعد ان تواترت عنها الروايات فى المصادر العالمية المختلفة ؟

مؤامرة فى القاهرة

لقد تأكدت نهائيا حقيقة « الكارثة المتعلقة بالأمن » التى أدت إلى أزمة لافون فى إسرائيل ..

فبعد روايات كثيرة انتشرت هنا وهناك .. اتفقت المصادر العالمية كلها على أن « كارثة الأمن » هذه هى المؤامرة التخريبية التى قام بها بعض الجواسيس الصهيونيين فى القاهرة والاسكندرية . إذا حاولوا نسف السفارة الأمريكية وبعض المؤسسات الأمريكية الأخرى فى مصر ، سنة ١٩٥٤ .. ثم الصاق هذه التهمة بالمصريين . وذلك بقصد إساءة العلاقات بين بلادنا وبين الولايات المتحدة الأمريكية .

ولكن هؤلاء الجواسيس وقعوا فى أيدى السلطات المصرية ، وتحطمت المؤامرة الإسرائيلية . وقد كان هذا ضربة عنيفة للذين حركوا هذه العملية من مكاتبهم فى وزارة الدفاع الإسرائيلية .

.. وفى ذلك الوقت كان ابن جوريون مبعدا عن رئاسة الوزارة وعن وزارة الحربية . كان وزير الحربية هو بنحاس لافون وكان رئيس الوزارة هو موسى شاريت . ودهش لافون من إجراء هذه العملية الخطيرة دون أن

يحاط بها علما ، وأمر موسى شاريت بالتحقيق ، حين تبين له أنه ، وهو رئيس للوزراء ، لايسيطر فى الواقع على التصرفات الكبرى فى إسرائيل ، وأن هناك أيادى أخرى تحرك خيوط الدولة من وراء ظهره .

وقد قال لافون فى ذلك التحقيق أنه لايعرف عن هذه العملية شيئا ، ولكن الجهات التى أجرت التحقيق قالت أنها فحصت الوثائق وثبت لها أنه مسئول عنها . ولأن هذه الجهات تعرف أن هذه التهمة غير صحيحة ، فقد قالوا : ان فشل العملية هو سوء حظ وليس جريمة .. ولذلك أبعدوا لافون من منصب وزير الدفاع . ولكنهم أعطوه أكبر منصب فى الدولة كلها بعد منصب رئيس الوزراء وهو منصب رئيس الهستدروت ، أى اتحاد نقابات العمال الإسرائيلى .. الذى سيجىء الكلام عنه بعد قليل . المهم أن هذا كله تم فى سرية مطلقة . سرية كان مقدرا لها أن تستمر خمس سنوات كاملة !

وقد اقترن هذا الحادث بخلاف أعمق ..

ففى فترة تولى لافون وزارة الدفاع ، وموسى شاريت رياسة الوزارة ، اصطدم « المدنيون » بالعسكريين اصطداما عنيفا . اصطدم لافون بالذات بنجوم الجيش اللامعة موشى ديان قائد الجيش وشمعون بيريز سكرتير عام وزارة الدفاع ، والرجل المسئول عن المخابرات العسكرية والمؤامرات السرية ، فى جهاز الدولة ..

الحزب العسكرى القديم

والفئة العسكرية فى إسرائيل هى القوة الحقيقية الكامنة وراء الدولة . وفى الفئة التى تتزعم سياسة المغامرة ضد البلاد العربية ، وهى الفئة التى تؤمن بفرض الصلح على العرب عن طريق القوة . وهى أخيرا الفئة التى يمثلها ويتزعمها بن جوريون . ذلك أن بن جوريون — قبل مولد إسرائيل — كان الرجل الذى يؤمن بأن « الحل العسكرى » هو الذى سوف يوجد إسرائيل وليس الحل السياسى .. وبينما كان غيره من قادة الصهيونية يقومون بأدوارهم السياسية فى لندن وواشنطون ونيويورك ، كانت مهمة ابن جوريون تكوين جيش إسرائيل فى الداخل . ومنذ تلك الأيام ارتبط بن جوريون بزعماء العصابات المسلحة التى أصبحت جيش إسرائيل ، وارتبطوا به . عن طريقه كانوا يفرضون ارادتهم على البلاد خلف واجهة

من الديموقراطية والبرلمانية .. وعن طريقهم كان بن جوريون يفرض سلطته وسطوته على السياسة الصهيونية .

وقد تصدى لافون ، بسبب هذه الأزمة على الأقل ، لهذه الفئة التى يرأسها بن جوريون . وأراد وهو وزير الدفاع أن يعيد تنظيم الجيش ، بحيث يخضع للسلطة المدنية الشرعية فى البلاد وذهب الضباط إلى رجلهم بن جوريون .. وكادت إسرائيل تتعرض لانقلاب عسكرى . ولكن استغنى عنه بتولى بن جوريون وزارة الدفاع ، ثم بعد قليل بعودته إلى منصب رئيس الوزراء ووزير الدفاع معا . وانتصر الحزب العسكرى .. وأقصى شاريت ، وظل لافون فى قلعة الهستدروت ينتظر لحظة الثأر .

ثم جاءت اللحظة

وجاءت تلك اللحظة بعد خمس سنوات .. حين اعترف أحد الضباط بأنه اشترك مع آخرين فى تزوير وثائق تثبت ـ كذبا ـ ان العصابة الصهيونية التى قبض عليها فى القاهرة كانت تعمل بأمر لافون . ثم ذهب ضابط آخر ـ لسبب غامض ـ إلى لافون وسلمه وثيقة أخرى تثبت تزوير توقيعه لهذا الغرض .

وطلب لافون التحقيق . وعهد بالتحقيق إلى لجنة قضائية برياسة قاض اسمه كوهين . وانتهت اللجنة إلى قرار يبرىء لافون ولكنه يبرئه بلباقة لاتغضب أحدا . إذ قال التقرير انه لايوجد دليل كاف على أن لافون هو الذى أصدر الأمر بإجراء عمليات النسف فى القاهرة ، وإن كان المفروض بوجه عام أن أى وزير يعد مسئولا عن كل مايصدر عن وزارته من أعمال .

كان الظن أن هذا « الحل الوسط » سوف ينهى المشكلة . ولكن لافون لم يقبل ، فبعد أن أصبحت براءته مؤكدة .. صمم لافون على أن تعلن براءته الكاملة أولا من مسئولية « كارثة الأمن » هذه ، وأن يعاقب الذين ارتكبوا جريمة التزوير ثانيا .

وهنا برز بن جوريون شخصيا فى المعركة ، بعد أن حاول قبل ذلك أن يظهر بمظهر من لاشأن له بالأمر . برز شخصيا ليعارض بحث المسألة على هذا المستوى الواسع . أى انه خرج فى الواقع ليدافع عن ضباطه المغامرين ويحميهم من التحقيق .. لأنهم رجاله الذين يحكم بهم ويقدم على

مغامـراته بهم من جهــة .. ولأن هذا التحقيق ، فى أغلب الظـن ، ربما قاد إلى ادانتــه هو شـخصيــا .. إذ انه بــالتأكيـد كان لــه دور فى مثل هذه المؤامــرة الواسعــة النطاق . انها مؤامرة تستهـدف هدفا سياسيــا . فهى لاتتم بدون رأى رجل سياسى . والرجل السياسى فى هذه الملابسات كلها لايمكن الا أن يكون بن جوريون نفسه .

ولكن .. لافون بدأ يحرك قوى الهستدروت الهائلة والفئات اليسارية فى حـزب الماباى ليطــالب بإعادة التحقيق .. وبــالفعل أحرز النصر فى الجولـة الأولى حين تقرر تكـوين لجنـة سياسية عليــا للتحقيق ، بـرياســة بنحاس روزين وزيــر العدل وعضويــةليفى اشكــول وزير المالية وشيتريـت وزير البوليس وبن روزين وزيــر المواصلات وبــرازيلاى وزير الصحــة شاميرا وزيــر الــداخلية ، وهم وزراء ينتمــون إلى الأحزاب الثــلاثــة المشتركــة فى الوزارة. حزب ماباى وحزب مابام وحزب أحدوت أفودا .

وقررت اللجنــة براءة لافــون التامــة وهنا فقــد بن جـوريون أعصــابه تمامــا. وهاجم اللجنــة علنا مــوجهــا لها اتهامات قــاسية . وقــرر أن يخبر الحزب بينه وبين لافون وأن يطرد لافون من رياسة الهستدورت !

ثــورة غــريبة لايفسرهــا إلا ضيق بن جـوريــون البالغ لانفجــار هــذه الفضيحة السياسية الأخلاقيــة الكبرى . ورغبة القاتل من أن ينكشف تآمر أقذر . وخوفه البالغ من أن يظهر الحزب العسكرى على حقيقيته .

واجتمعت سكرتيريــة الحزب . لم يحضرها بن جوريــون ولم يحضرها لافون ، وقررت اللجنــة طرد لافون بأغلبية ٢٨ صوتــا ضد ١١ . وغاب عن الجلســة ٢٦ عضــوا لم يــوافقــا على طـرد لافــون ولكنهم لم يجرؤوا على معارضــة بن جوريون والجيش . وانضم ليفى اشكول ، إلى بن جــوريون ، بعد أن كان يمثل الموقف الوسط بينهما ..

ولم يقف بجوار لافــون من الساســة الكبار إلا موشــى شاريت رئيس الوزراء السابق . ثم اجتمعت اللجنة المركزية للحزب فى قاعة سينما ..

هذا هو ملخص لقصة لافون ..

وليس يهمنا طبعــا فريق بن جوريــون أو فريق لافون . ان الــذى يهمنا هو مغزى القضية ، وهو المغــزى الذى يجب أن نذيعه وننشره ونسلط عليه

الضوء ان بن جوريون .. وأصحاب أكبر الأسماء اللامعة فى إسرائيل .. قد ارتكبوا جريمتين أساسيتين .

المغـــــزى !

الأولى ـــ محاول نسف مبانٍ رسمية أمريكية فى القاهرة لإحداث أثر معين فى علاقاتنا بأمريكا . ولأحداث أثر معين فى الرأى العام الأمريكى .. فهو عمل سياسى يعد نموذجا فى قذارته .. هو لجوء إلى الجاسوسية والتخريب والقتل .. وتعريض أرواح الأمريكيين والمواطنين على السواء بشكل اجرامى من أجل احداث هذا الأثر السياسى المعين .. ومن أجل خداع الرأى العام الأمريكى ونحن حين نعادى أمريكا أو نخالفها لانتردد فى معاداتها أو مخالفتها علنا. ولاسباب نملكها . ولكن المهم هنا هو ان إسرائيل تزيف الحقائق بالنسبة للرأى العام الأمريكى بأساليب دنيئة وهذا أمر يجب أن يعرفه الرأى العام الأمريكى ، ليعرف حقيقة أولئك الذين يذهبون إليه فى ثياب الملائكة الذين يعملون على انقاذ شعب مضطهد !

الجريمة الثانية ـ أن أكبر الأسماء السياسية والعسكرية فى إسرائيل . لاتتورع عن ارتكاب جرائم التزوير حتى فى بلادها نفسها ، وعلى أعلى المستويات ، وضمن وزرائها أنفسهم ، كأسلوب من أساليب الصراع السياسى فهى جريمة ، مع زميلتها السابقة ، تكمل الصورة الأخلاقيةالسابقة وتكشف الحقيقة المتآمرة للحركة الصهيونية والدولة الصهيونية ..

هذه الفضيحة يجب ألا تمر بسرعة . بل يجب ان تدمغ بها إسرائيل علنا وفى كل مكان وبأعلى صوت ، فإنها فى الواقع أحط أخلاقيا من جريمة حرب السويس !

يجب أن يصدر على الفور كتاب بكل اللغات الأجنبية يضم كل الوثائق التى نستطيع أن نجمعها عن هذه الأزمة وكل التفاصيل التى يمكن أن تكمل القصة . ويجب أن يكون كتاب دراسة وتحليل جذاب فى نفس الوقت ويجب أن يصدر كتاب أو كتيب آخر نصور فيه كل مانشرته الصحف العالمية عن وقائع هذه الفضيحة .. لكيلا يكون القول على لساننا فقط . وإذا أمكن أن ندفع هذه المادة ، ولو عن طريق الإعلان ، إلى صفحات

الصحف الكبرى فيجب ألا نتردد . مثل هذا الكتاب يجب أن يوزع فى الجامعات الكبرى وفى أمريكا وغرب أوروبا بالذات . وعلى أعضاء الوفود إلى الأمم المتحدة . وعلى أعضاء المكاتب السياسية فى الأحزاب الكبرى . وعلى أعضاء البرلمانات . ويجب أن يكون موجودا فى دور النشر والمكتبات .

ان أزمة لافون الآن محل حديث الناس فى كل مكان . فما ينشر عنها أهم مائة مرة مما يمكن أن ينشر عنها بعد شهور أو سنوات ، حين يصبح الأمر ماضيا مرت عليه الأيام .. والفرصة أمامنا من موعد الانتخابات العامة المقبلة فى إسرائيل .. لأن جرح لافون سوف يظل ينزف دمه فى إسرائيل طول هذه المدة على الأقل ..

لقد نشرنا محاضرة « توينبى » عن إسرائيل ، وكان هذا عملا ناجحا بارعا . ومن المؤكد أن قضية لافون سوف تكون أعمق بكثير جدا من محاضرة الأستاذ توينبى .. يجب أن نعمل على ادخال قصة لافون فى الوجدان السياسى للعالم وللولايات المتحدة الأمريكية بالذات .

وبالمناسبة ! كنيدى والصهيونية

وبمناسبة إسرائيل .. والصهيونية . وأمريكا ..

قال لى أستاذ جامعى أمريكى ، مر بالقاهرة :

— ان الاحصاءات الانتخابية تدل على ان عدد اليهود الذين يعطون أصواتهم لمرشح الحزب الديموقرطى كان عادة سبعة أمثال عدد اليهود الذين يعطون أصواتهم لمرشح الحزب الجمهورى . أما فى المرة الأخيرة التى فاز فيها كنيدى ، فقد كان عدد اليهود الذين صوتوا له تسعة أمثال الذين صوتوا لنيكسون ! فإذا ذكرنا النسبة الضئيلة جدا التى فاز بها كنيدى أمكننا أن ندرك إلى أى حد كان هذا التأييد اليهودى هاما بالنسبة لكنيدى .. وإلى أى حد يتمتع اليهود الأمريكيون الآن بقوة ضغط كبيرة على كنيدى !

واستطرد محدثى قائلا :

— لا أخفى عنك أننى من الحزب الجمهورى .. ولكن ما أذكره لك هو الحقيقة ..

فى معركة الانتخابات الأخيرة نشر الحزب الجمهورى اعلانا صريحا فى

بعض الصحف يقول للناخبين اليهود : ان الحكومة فى عهد ايزنهاور أعطت إسرائيل من المساعدات مامجموعه ٤٦٨,٨٧٥,٠٠٠ دولار !

فإلى هذا الحد وصل الاعتراف بأن الحكومة تشترى الأصوات بولاء المواطنين لدولة أخرى !

ولكن ٩٠٪ من اليهود مع ذلك أعطوا أصواتهم لكنيدى ولنيكسون .

ومعنى ذلك انهم يرون ماأعطاه لهم إيزنهاور ليس كافيا ، وانهم يريدون المزيد ..

ثم استطرد محدثى قائلاً :

— وهنا نصل إلى أهم نقطة . وهى نقطة تتطلب منكم يقظة بالغة فى السنوات الأربع المقبلة بالذات !

أن الحزب الجمهورى فى الواقع ـ خلال مدة حكمه ـ لم يصنع لإسرائيل شيئا مما تطمع فيه ، باستثناء حكاية الفلوس ! انه لم يستطع أن يوسع حدود إسرائيل مثلا . ولم يستطع أن يفرض الصلح على العرب . ولم يستطع أن يشق لإسرائيل قناة السويس . ولذلك وضع اليهود أملهم على وعود كنيدى ، طامعين فيه طمعهم فى ترومات الذى خلق لهم دولتهم ..

فإذا فشل الحزب الديموقراطى بدوره فى أن يحقق لهم شيئاً من هذا لا بسبب عدم رغبته ولكن بسبب تغير الظروف ، وعدم قدرته على تعريض مصالح أمريكا لخطر أكبر.. أقول انه إذا عجز الحزب الديموقراطى بدوره خلال هذه السنوات الأربع عن شىء من هذا فقد يؤدى إلى انتهاء سطوة الناخبين اليهود من المعركةالسياسية الداخلية تماماً .. المهم هنا ليس أثر ذلك عليكم أو على إسرائيل بل على يهود أمريكا نفسها . انهم سوف يكتشفون أن الحزبين سواء . ولكن المشكلة فى تغير الظروف وتحول الموج . يومها سوف ينفرط كيان كتلة الأصوات اليهودية . ولن تصبح سلاحا خطيرا فى المعركة الانتخابية !

وأعـــود إلى إسرائيل

وأعود إلى إسرائيل نفسها .. ختام حديث أزمة لافون. والأزمة الوزارية القائمة هناك ..

ان هذه الأزمة ـ فوق كل ما سلف ـ قد، لمست أكثر من عصب حساس فى إسرائيل .. فجعلت كيانها كله يهتز .

أول عصب لمسته هو الجيش

والجيش فى إسرائيل ليس كالجيش فى أى بلد . الجيش فى إسرائيل تكون من زعماء العصابات المغامرين المستعدين لارتكاب أى شىء . والجيش فى إسرائيل يمن على الشعب بأنه هو الذى أوجد إسرائيل وبغيره لاتوجد . والجيش فى إسرائيل يستخدم كمدرسة عامة ينصهر فيها شتى أنواع المهاجرين المتباينين لغة ومزاجا ومصدرا . والجيش فى إسرائيل يضم نسبة كبرى من الناس ، حيث أن أغلب رجال ونساء إسرائيل يعتبرون مجندين تحت الطلب . فكلهم لهم علاقة بالجيش بصورة أو بأخرى ..

وثالث عصب لمسته .. هو الهستدورت

والهستدورت فى إسرائيل ليس مجرد اتحاد نقابات عمال . انه يسيطر على مكاتب المتوطنين التى تستقبل المهاجرين وتعمل على توطنيهم . ويسيطر على أموال التأمينات الاجتماعية ومشروعاتها ويسيطر على نظام التعاونيات فى البلاد كلها . ويسيطر بالذات على مؤسسات بيع المحاصيل الزراعية ، ومؤسسات المقاولات العامة ، ويملك شركات الملاحة الرئيسية فى البلاد !

وثالث عصب لمسته .. هو سياسة إسرائيل ازاء العرب

فعندما احتدمت أزمة إسرائيل .. انقسم كل شىء إلى فريقين ، فريق مع بن جوريون ضم الأحزاب اليمينية والعناصر اليمينية فى حزب الماباى وضباط الجيش الكبار وكلهم من أنصار فكرة فرض الصلح بالقوة على العرب وفكرة اتخاذ سياسة هجومية عنيفة ضد العرب على أساس أن إسرائيل . فى النهاية ، تحميها الدول الغربية ! بينما انضم إلى جانب لافون الأحزاب اليسارية والعناصر اليمينية فى حزب الماباى نفسه .. وهى التى تنادى بأن إسرائيل لن تكسب وجودها بقهر العرب بل باقناعهم . وانها يجب أن تسلك سياسية أقل مغامرة وأقل خشونة حتى تحتفظ بتأييد دول الغرب بل وأمريكا نفسها هذه الأعصاب الحساسة كلها اهتزت خلال أزمة لافون .. تماما كالمرض الذى يكشف عن كل نواحى الضعف فى الجسم .. ومازالت الأيام تحمل المزيد من التطورات ..

المؤسسات العامة عندنا.. كيف تدار ؟

أخبار اليوم .. فى :

٨ / ٤ / ٦١

ربما كان أكبر سؤال يواجه بلادنا الآن ـ فيما يتعلق بالنظام الاقتصادى فيها ـ هو : الطريقة التى يجب أن تدار بها المؤسسات العامة والهيئات العامة.

والاهمية التى يعلقها الناس على هذا السؤال لها أكثر من سبب .

منها. أن« القطاع العام» كما نسميه أصبح يسيطر بالفعل على الجانب الأكبر ـ والاقوى ـ من حياتنا الاقتصادية.. وبالتالى فإن حياة كل فرد منا تتأثر فى الواقع بمدى فشل أو نجاح هذه المؤسسات. أسعار الحاجات التى نشتريها، جودة السلع التى تستخدمها ، حسن الخدمة التى نحصل عليها.. كل هذا أصبح يتأثر بنشاط هذه المؤسسات التى تصنع لنا السلع، وتستوردها وتبيعها، وتساهم فى كل الخدمات التى نتلقاها .

ومنها.. اننا الآن فى فترة انتقال. فعهد الناس بسيادة المؤسسات الفردية، المملوكة للأفراد قريب، إلى جانب اننا نعيش فى ظل اقتصاد مختلط توجد فيه المؤسسات التى يملكها الأفراد إلى جانب المؤسسات المملوكة ملكية عامة. ومعنى ذلك أن هناك عملية مقارنة مستمرة فى أذهان الناس جميعا

بين النوعين من المؤسسات: المؤسسة العامة والمؤسسة الخاصة. الناس دائما يبحثون ويسألون ويقارنون: هل سيارات الاوتوبيس فى عهد الملكية الفردية أحسن أم هى الآن، وقد أصبحت مملوكة ملكية عامة، قد أصبحت أحسن ؟ هل مصنع كذا المملوك ملكية عامة ينتج أحسن أم مصنع كيت المملوك ملكية خاصة ؟

كل هذه المقارنات، لا تكف عن الدوران فى عقول الناس. ومهما كان التبرير العقائدى لهذا الوضع أو ذاك، فالناس آخر الأمر يتأثرون — قبل كل شىء وبعد كل شيء بالتجربة العملية وبالنتيجة المادية الملموسة المحسوبة بالارقام. ومن هنا نجد أن المؤمنين بضرورة وجود القطاع العام، يشعرون بلهفة زائدة على أن يوجد كل ما يثبت صدق نظرتهم.. وذلك بأن يزيد نجاح المؤسسات العامة - ولا يقل - عن المؤسسات الخاصة ، إن نجاح هذه المؤسسات فى الواقع هو الأساس فى «زرع» العقيدة الاشتراكية فى هذه الأرض.

يضاف إلى ذلك أن الناس يشعرون لا بأن حياتهم الحاضرة قد أصبحت فى يد المؤسسات العامة إلى حد بعيد فقط، بل يشعرون أيضا بأن جزءا من مستقبلهم أصبح وديعة فى يد هذه المؤسسات، فمستقبل التنمية، ومستقبل تحقيق العدالة ، وأشياء كثيرة أخرى، أصبحت فى الواقع رهن فشل أو نجاح هذه المؤسسات العامة .

وأخيرا، فإن الناس يحاسبون المؤسسة العامة فى العادة بأقسى مما يحاسبون المؤسسة الخاصة. فلو أن شركة فردية قامت وأفلست فى اليوم التالى لما اهتم بذلك أحد. أما إذا اهتزت مؤسسة عامة مجرد اهتزاز، فحساب الناس لا ينتهى.. وذلك لشعورهم بأن أموالهم هى التى تهتز، وليست أموال زيد أو عبيد..

سؤال خطير إذن.. هذا السؤال الخاص بالطريقة التى تدار بها المؤسسات العامة فى بلادنا.

والذى يضاعف من خطورة هذا السؤال.. هو أن فكرة «المؤسسة العامة» فى بلادنا تقترن فى ذهن الناس وتختلط بفكرة «الجهاز الحكومى». كثيرون يظنون أن ظهور المؤسسات العامة هو مجرد «تمدد حكومى». والجهاز الحكومى فى بلادنا يحظى، منذ مئات السنين، بسمعة لا يحسد

عليها. الجهاز الحكومى فى الذهن العادى معناه فى أحسن الحالات:البطء والزحلقة وعدم الكفاية وعدم الاهتمام. ومعناه فى أسوأ الحالات الرشوة والمحسوبية واساءة معاملة الجمهور. فى ذهن الناس أن موظف أو مدير المؤسسة الخاصة حريص على أن يكون نشيطا نزيها، لانه إذا أساء التصرف سوف يطرد من عمله ولأنه إذا تعب واجتهد سوف يتقدم بسرعة .إذ أن المصلحة الخاصة لصاحب العمل تملى عليه أن يتصرف على هذا النحو القاطع. فى حين أن فى ذهن الناس أن موظف أو مدير المؤسسة العامة ليس وراء هذا «الكرباج» من الدافع الشخصى. انه مهما أهمل لن يطرد، لأن الجهاز الحكومى كبير جدا لدرجة انه لا يلتفت إلى الاهمال. ومهما خسر الجهاز الذى يعمل فيه فلن يضار، لأن الحكومة لا تفلس ولا تغلق أبوابها وتسرح موظفيها. ومهما أجتهد أو تعب فلن يتقدم. لأن السكادر والدرجات، ان لم تكن المحسوبية والمعرفة، تقف عقبة فى طريقه. ومن هنا فلا بأس على موظف الحكومة إذا أهمل أو أخطأ أو عين أقاربه ومحاسيبه على حساب الكفاءة وعلى حساب الاخلاص. هذه هى الصورة القديمة فى ذهن الناس. وهى الصورة التى نعترف جميعا بأنها أثر اجتماعى لتاريخ طويل من الانحلال والاضمحلال، وبأنها لذلك لا يمكن أن تتغير بين يوم وليلة. ولكن الناس يشفقون دائما أن تنتقل هذه الأمراض كلها إلى المؤسسات الجديدة، بكل ما فى هذه المؤسسات العامة الجديدة من آمال كبيرة !

سؤال خطير إذن.. هذا السؤال الخاص بالطريقة التى تدار بها المؤسسات العامة فى بلادنا..

وموضع يستحق تلك اللهفة التى يشعر بها المؤمنون برسالة القطاع العام من أجل نجاح التجربة.. التى هى جزء من الخطوات الاساسية فى الطريق السليم نحو المجتمع الاشتراكى .

أما الذى يثير هذا السؤال فهو القرار الذى اتخذه الرئيس جمال عبدالناصر بفصل عدد من المؤسسات العامة عن ميزانية الدولة . على أن تعتمد هذه المؤسسات العامة على نفسها دون اية اعانة من ميزانية الدولة. فإذا أعوزها المال، فعليها أن تقترض من البنوك، تماما كأنه مؤسسة عامة أو فردية أخرى .

إن هذا القرار معناه أن هذه المؤسسات قد جاوزت مرحلة «الحضانة» انها تستطيع الآن أن تواجة الحياة بمفردها . ناهضة على قدميها !.

والواقع أن هذا القرار يضع هذه المؤسسات تحت ضوء أقوى وحساب أشد.. بعد أن أصبحت كل منها قائمة بمسئولية نفسها..

إن هذا النوع من المؤسسات العامة ـ فى مختلف بلاد العالم ـ يخضع لنوع من القواعد العامة المتعارف عليها.. وهى بالطبع ليست قواعد جامدة ولا تنطبق على جميع الظروف .

القاعدة الأولى:

أن المؤسسة العامة هى أداة فى يد السياسة العامة

فهى ليست مؤسسة من أجل الربح فقط.. أو كما قال «هربرت موريسون» عندما كان مسئولا عن سياسة التأميم فى حكومة حزب العمال البريطانى: «أن الجو النفسى لاجتماع مجلس إدارة المؤسسة العامة يختلف تماما عن الجو النفسى لاجتماع الجمعية العمومية لحملة الاسهم فى المؤسسة الخاصة »..

والمؤسسة العامة هى أداة فى يد السياسة العامة بمعنيين: المعنى الأول انها تسير وفق سياسة الدولة العامة فى توجيه الانتاج أو فى تحقيق العدالة أو فى إقامة نظام اجتماعى معين كالنظام الاشتراكى. والمعنى الثانى، انها ـ فى نطاقها ـ لا تهتم أساسا بالربح. ولكن بتوفير سلعة معينة أو خدمة معينة على أحسن نحو وبأحسن سعر ممكن بالنسبة للمستهلك .

ولكن.. هل معنى هذا أن بند«الإيراد» لا يهم إطلاقا فى المؤسسة العامة ؟

بالطبع لا . لأن المؤسسة العامة جزء من البناء الاقتصادى العام للبلاد. وحاصل جمع المؤسسات العامة التى تخسر هو: اقتصاد قومي يخسر.

ان بعض المؤسسات يفترض فيها ألا تغطى مصاريفها أبدا، فهى تعتمد بالتالى اعتمادا صريحا، ومستمرا، على الدولة، لأنها تقوم بأعباء خدمة لا يمكن أن تغطى مصاريفها، كمؤسسات الطيران مثلا، انها حتى فى بعض الدول الرأسمالية تعتمد على إعانة صريحة مباشرة من الخزانة العامة، لأن الطيران يخضع لمنافسة دولية، ولأنه يتأثر فى مشروعاته بالكبرياء القومية.. إلى آخره .

ولكن هذا ليس شأن كل المؤسسات طبعا، فبعض المؤسسات لا يواجه مثل هذه المنافسة الدولية كالطيران. ولا يواجه مسئولية انشائية ضخمة كتعمير الصحارى. ومثل هذه المؤسسات المفروض فيها أن «تغطى» مصروفاتها «فى المدى الطويل». قد تخسر سنة وتكسب سنة أخرى، بشرط أن يكون المنطق السائد فى مجموع سنواتها أن تغطى نفسها .

وقد تحقق هذه المؤسسة ربحا. والاقتصادى الانجليزى «وليام دويسون» فى بحثه الضخم عن « الصناعات المؤممة والملكية العامة» يقول انه يجب ألا نسمى ايراد المؤسسة العامة ربحا بل يجب أن نسميه «فائضا». والقاعدة أن هذا الفائض أو هذا الربح يخضع فى توجيهه للسياسة العامة للدولة. فقد تكون السياسة العامة للدولة هى تحسين الخدمة التى تقدمها المؤسسة وبالتالى يجب انفاق الربح على هذا التحسين.. كان يقال أن ربح مرفق الكهرباء يجب أن ينفق فى تخفيض سعر الكهرباء أو فى توسيع الشبكة الكهربائية. وقد تكون السياسة العامة للدولة هى التركيز على إقامة صناعات جديدة. فهنا يذهب الفائض إلى المساهمة فى هذه المشروعات الجديدة .

القاعدة الثانية فى المؤسسات العامة :
هى أن هذه المؤسسات وان كانت تابعة للدولة ألا أنها يجب أن تكون «مستقلة» عنها

والاقتصاديون يعتبرون هذه القاعدة أصعب القواعد تحديدا، وهى مع ذلك أخطر قاعدة فى حياة المؤسسة العامة .

ذلك أن المطلوب هنا هو التوفيق بين أمرين.

الأمر الأول هو التبعية للدولة والخضوع **لرقابتها .**

والأمر الثانى هو حرية الحركة **التى تجعلها أكثر كفاءة على أداء مهمتها** وأكثر بعدا عن شلل الأجهزة الحكومية **الضخمة .**

وأقرب صيغة يتفق عليها الاقتصاديون **هى التفريق بين «السياسة»** و «الإدارة».

السياسة.. بمعنى وضع **السياسة العامة للمؤسسة والخطوط** العريضة لها.. من حق الدولة.

والادارة.. بمعنى القرارات التنفيذية. من حق المؤسسة نفسها.

عبر هربرت موريسون عن ذلك بقوله: ان المطلوب من المؤسسة العامة «ملكية عامة، رقابة عامة، و«إدارة تجارية فى سبيل الغرض العام».

يقول الاقتصادى «وليام روبسون» فى البحث المشار إليه أنه إذا كانت الهيئة العامة تابعة لوزير أو وزارة مثلا.. فالوزير يرسم السياسة العامة لها. أما «الإدارة» ، فالوزير ليس خير من يقوم بها انما هى تترك للمؤسسة، لانها يجب أن تترك للخبراء . أن هذه المؤسسات التى ترتبط بخدمات معينة تكون الكلمة العليا فى نجاحها للخبرة والدراية الخاصة بالقطاع الذى تتخصص فيه. السياسة هنا «أولا» تحدد للخبرة الاتجاه الذى تنطق فيه.. و«ثانيا» تحاسب الخبرة فى آخر الشوط. أما تدخل السلطة الوزارية فى عمل الخبرة خلال ذلك فهو انما يربكها ويعرقل كفايتها، بادخال عوامل أخرى غير فنية حيث يجب أن يكون التقدير للعوامل الفنية .

القاعدة الثالثة بالنسة للمؤسسات العامة هى:

أن موظفيها ليسوا فى عداد موظفى الجهاز الحكومى

والفكرة فى هذه القاعدة التى يسجلها الاقتصاديون أيضا.. هى استكمال «حرية الحركة» الذى لابد منه للمؤسسة العامة.. خصوصا إذا كانت فى نظام «اقتصاد مختلط» تواجه فيه منافسة مؤسسات أخرى.

فمن عناصر حرية الحركة التى لابد منها للمؤسسة أن تقتنص ـ مثلا ـ الكفاية العالية ولو بأسعار عالية وأحيانا من شتى انحاء العالم.. إذا كانت هذه الكفاية ينعكس أثرها مباشرة على انتاج المؤسسة أو على نجاحها وأرباحها مثلا .

وقد كان هذا الموضوع محل دراسة فى بريطانيا أيضا عندما كانوا يفحصون وضع الذين يعملون فى محطة الإذاعة البريطانية B . B . C وقد انتهوا إلى أن المحطة يجب — من جهة ـ أن لا تبعد كثيرا عن قواعد الحكومة ولكنها من جهة أخرى يجب أن تكون مرنة ماليا بحيث تستطيع أن تحصل على أحسن المعلقين وأحسن الفنانين بما يكفل نهوضها برسالتها المحلية والعالمية وهى جذب اذان الناس، فى وجه المنافسة الصحفية والإذاعية من انحاء العالم.. القاعدة الرابعة بالنسبة للمؤسسات العامة هى : الرقابة .

القاعدة الرابعة
بالنسبة للمؤسسات العامة هى : الرقابة

ان المؤسسة الخاصة ـ كشركة مساهمة فردية ـ مسئولة أن تقدم حسابا عن عملها للجمعية العمومية لحملة الاسهم فقط. أما المؤسسة العامة فهى تقدم حسابا عن نفسها إلى «الحكومة، والبرلمان، وعمال وموظفى المؤسسة نفسها ، والزبائن، والرأى العام .»

والرقابة العامة على المؤسسة العامة جانب خطير من جوانب الديموقراطية الاقتصادية .

ان المؤسسة الخاصة لا يراقبها إلا اصحابها.. فردا واحدا كان أو آلاف الأفراد. والاقتصاد القومى الذى يقوم كله على المؤسسات الخاصة تراقبه بالتالى تلك الفئات الخاصة من حملة الاسهم فقط .

أما المؤسسة العامة، فالاقتصاديون والمفكرون السياسيون يتفقون على انها تقدم حسابها لكل هذه الجهات السالفة الذكر.. وهذا جزء أساسى من الديموقراطية الاقتصادية. لذلك كان أبرز كشف الحساب الخاص بكل مؤسسة عامة أمام الشعب مسألة جوهرية حقا، بل حاسمة فى علاقة الناس بالمؤسسات العامة، وفى شعور هذه المؤسسات العامة بمسئولياتها.

لكى يعرف الناس المخطىء والمصيب. والكاسب والخاسر، والاسباب الحقيقة فى جميع الأحوال .

ان الخطوة التى تتخذ الآن خطوة خطيرة. انهاتضع المؤسسات العامة فى مرحلة جديدة.. لابد لها أن تواجهها !!

جان بول سارتر ومشكلة اليهود

أخبار اليوم.. في:

٨ / ٤ / ٦١

لم أكن أعـــرف ـــ ولعل كثيرين لايعرفون ـــ ان جان بول سارتـر له مثل هـــــذا الكتـــاب الهام عن «اليهودى».

صحيح وجـــان بـــول ســـارتـر فيلســـوف وأديب وفنـــان اشتهـــر بـــاتخاذ مـــواقف سيـــاسيـــة كثيرة، تنطوى عـادة على الوقـوف إلى جانب الحق والعدالة والمسـاواة، والانتصار للمضطهدين.

ونضاله المشهـود من أجل حرية الجزائر واستقـلال الجزائر مـــازال مـــاثـلا. وصمـوده فى وجـه العسكـريـة الـرجعيـة الفـرنسية كـان رمـزا لبطـولة المثقـف الذى يشعـر بمسئوليته.

وصحيح أن جان بول سارتـر من الفنانين الذين صمدوا قبل ذلك فى وجه الطغيـان النازى. وانه طا لما هـاجم فى مؤلفـاته كل مـاتنطوى عليـه النازيـة من عنصريـة وتعصب قومى. وصحيح انـه من المنطقى أن يكون لسارتـر بعد ذلك موقف قـوى ضد «أعداء السامية» أى أصحاب دعوة التعصب العنصرى ضد اليهود.

من المنطقى أن يكون له هـذا الموقف وهو موقف

عادل بالتأكيد. لأن دعوة معـاداة السامية والتعصب العنصرى ضد اليهود هى دعوة رجعيـة مظلمة كدعوة معـاداة الزنوج وكنزعـة اضطهاد أى أقلية من أى نوع وكأى دعوة عنصرية أخرى.

ولكن هـذا كلـه لايبرر المبـالغـة . ولايبرر الخروج على المنطق السليم والجموح وراء الرغبة فى تبرير كل مـايصدر عن اليهود.. وكل ما هو يهودى ومن هو يهودى.. ولو أدى الأمر إلى اتهام العالم كله والتاريخ الانسانى كله بأقسى الاتهامات.

ولكن هذا هـو ماجمح إليه جان بـول سارتر بالضبط.. فى هـذا الكتاب الذى سوف أحـاول أن أعرض بعض ماجاء فيه بعـد استطراد قليل فى هذه المقدمة.

لماذا نهتم بكل كلام عن اليهود ؟

ونحن العرب قـد وجدنا أنفسنـا ـ من حيث لانريد ـ طرفا فى كل مـا له صلة باليهـود.. بما فى ذلك حكاية «معاداة السامية». ذلك أن اليهود، الذين واجهـوا على يد المجتمعـات الأوربية اضطهـادا طـويلا، وصل إلى قمتـه فى غرف الغاز التى أقامها هتلر لاعدام الجنس اليهودى .. هؤلاء اليهود وجدوا أن حل قضيتهم الوحيد هو فى أن ينشئـوا مدرسة التعصب العنصرى لاتقل عن الهتلريـة، هى الصهيونيـة، وأن تتبلور هـذه النزعـة العنصرية فى وطن ودولة لهم ينشئونها على أشلاء مليون عربى !

هكذا ـ من حيث لانريـد ـ وجدنـا أنفسنا طرفـا فى المسألة اليهـودية.. ووجدنـا أنفسنا محتاجين إلى أن نـرهف السمع لكل ما يقـال عن اليهود أو المسألة اليهودية !

لماذا ؟!..

هل لأننا نكره أن يدافع المدافعون عن اليهود فى المجتمعات التى ينتمون إليها.. فرنسية أو انجليزية أو أمريكية؟..

كـلا .. فإننا نـؤمن أن اليهـودى كالمسلـم والمسيحى له حق الحيـاة فى الوطن الذى ينتمى إليه. بل ان دعوتنـا الأسـاسية ضد إسرائيل تستند إلى أن اليهـودى يجب أن يبقى فى الـوطن الـذى ينتمى إليـه.. لا أن يهاجـر منـه لينشىء دولة عنصرية باغية فوق قطعة من أرضنا.

مصلحتنا فى زوال التعصب

نحن إذن نتمنى لليهودى طيب المقام حيث يكون. لا لأن هذه هى العقيدة الانسانية التى تؤمن بها فحسب. بل لأننا ــ أيضا ـ أصحاب مصلحة فى هذه العقيدة . نحن أصحاب مصلحة فى أن يندثر ـ فعلا ـ التعصب العنصرى بوجه عام، والتعصب العنصرى ضد اليهود بوجه خاص. لأن هذا التعصب العنصرى، ولو بطريق غير مباشر، هو الذى خلق إسرائيل. وهذا التعصب العنصرى هو الذى تعمد إسرائيل ــ الآن ــ إلى اذكائه، أو ايهام الناس بوجوده فى كل مكان، لابقاء الجذوة التى خلقت إسرائيل.

نحن إذن ـ لهذا كله ـ لانكره أن يدافع المدافعون عن اليهودى فى فرنسا أو بريطانيا أو بولندا أو أمريكا.

ولكننا نرهف السمع لهذا الدفاع، ونشك فى دوافعه أحيانا، لسبب هو : ان إسرائيل تحاول أن تتخذه سلاحا لها ضدنا وأن تصطنع منه دخانا يخفى جريمتها العنصرية فى فلسطين !

هنا فقط نتنبه ونشك وننتقد! لأنه يكون هنا ــ على أحسن الفروض ـ من ذلك النوع الذى يقال عنه انه «حق يراد به باطل!».

وإسرائيل الآن تقوم بحركة التفاف فكرية واسعة فى العالم أجمع!.. انها تحاول بالأفلام الملونة، وبمعدات السينما سكوب، وبالروايات والمسرحيات وبالكتب العلمية والتاريخية، وبالمحاكمات .. ان تثقل ضمير العالم كله بالذنب نحو اليهود ! أن تشعر كل فرد وكل دولة وكل دين وكل ملة أنه مسئول عن جزء مما حل باليهود! وفى غمرة هذا «الشعور بالذنب» الذى تغمر إسرائيل به العالم.. تحاول أن تستخلص الضمانات لإسرائيل، والأموال لاسرائيل، والأعداء للعرب بوصفهم الخصوم الجدد لليهود..! فى غمرة هذا الشعور بالذنب الذى تغمر به إسرائيل العالم تحاول أن تقنع هذا العالم بأن يغفر لها ذنبها.. وان يرد فى طرد مليون عربى نوعا من التعويض المعقول لها.

ويجب أن نعترف بأن إسرائيل قد نجحت ـ فى أماكن كثيرة من العالم ـ فى خلق هذا الشعور ! وجان بول سارتر نفسه ـ فى هذا الكتاب الذى أعرض

له ـ يقول ان بعض المتحررين لايرون فى اليهود إلا مجرد موضوع يثبتون به تحررهم ! فالواحد منهم يتحمس فى الدفاع عن اليهود لا لاحساس باطنى قوى بالحاجة إلى هذا الدفاع، ولكن ليقول للعالم انه متحرر !

واننى لأخشى، أن يكون جان بول سارتر نفسه، قد وقع فى هذه الغلطة، وفاق كل المتطرفين فى الدفاع عن اليهود لهذا السبب.. من حيث يدرى أو من حيث لايدرى !.

إن العنوان الكامل لهذا الكتاب ـــ ١٥٣ صفحة ـ هو «عدو السامية.. واليهودى!».

وسارتر فى هذا الكتاب يشرح لنا ـــ أولا ـ نظريته الفلسفية فى «الانسان» ليقيم على أساسها تبريره المطلق لكل مايصدر عن اليهود !.

ونظريته فى (الانسان) ـ فى محاولة للتبسيط الشديد ـ هى انه لايوجد شىء اسمه «الطبيعة الانسانية». أى أن الانسان لاتتحدد صفاته وأخلاقه ونزعاته بمجرد مولده.. ولكن يوجد شىء اسمه «انسان فى موقف».. بمعنى أن «الموقف» الذى يوجد فيه الانسان هو الذى يحدد ويصنع طبيعة الانسان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية.. إلى آخره. فالانسان لايمكن تمييزه أو فصله عن «الموقف» الذى يوجد فيه.

والناس المتشابهون لايتشابهون بحكم «طبيعة» واحدة ولدوا بها ولكنهم يتشابهون بحكم تشابه «الموقف» أو «الحال» التى يوجدون فيها. فما يجمع بين فئة من الناس هو وحدة «الموقف» ليس وحدة الطبيعة البشرية.

والنتيجة التى يرتبها سارتر على هذا هى : أنه لايوجد شىء اسمه «جنس يهودى واحد له «طبيعة» واحدة. فالواقع، كما يقول، ان هناك «أجناسا» يهودية متعددة، فالفرق بين اليهودى الروسى مثلا واليهودى اليمنى شاسع جدا كالفرق بين أى روسى وأى يمنى !

فوحدة الجنس إذن ليست هى التى تجمع بين يهود العالم.

هل هى وحدة التراث والتاريخ ؟

فى رأى سارتر : لا ! فتاريخ وطن إسرائيل القديم قد انقطع واندثر منذ ألفى سنة. فيهود العالم فى الواقع لايجمعهم تاريخ واحد ولا عاطفة قومية واحدة.

إذن .. هل تكون وحدة الدين ؟

كلا أيضا ! فـالناس من أديان كثيرة يعيشـون متفرقين فى أنحاء الأرض دون أن تكـون بينهم هـذه «الرابطـة» أو «الـوحدة» التـى نراهـا بين يهود العالم. ثـم ان اليهود المشتتين لهم نظرات مختلفـة إلى الديـن نفسه. وكثير منهم ملحدون فى حقيقـة الأمر ولكنهم مع ذلك يتمسكون «بطقـوس» الدين فقط، لأنـه يعطيهم احساسـا «بالانتماء» إلى فئـة معينة. فالـدين بـالنسبة لليهود لاقيمة له عندهم «كدين ولكن قيمته عندهم هى «كرمز» فقط.

ويخلص سـارتر من هـذا إلى أن الشىء الحقيقى الذى يـربط بين يهود العالم هو «موقفهم»! هو موقف كل المجتمعات منهم.. ونظرة العالم إليهم !

وأمضى خطوة أخـرى مع منطق جان بـول سارتر.. كى تكتمل فكـرته أمام القارىء.

المنبــــوذ !!

إن اليهودى ــ فى رأى سـارتـر ـ يـولد كما يـولد أى مخلـوق على سطح الأرض. ولكنه حين يشب يجد نفسه فى «موقف» مختلف عن الآخرين : يجد أن الناس ينظـرون إليه كيهـودى.. وان الدنيا تعـامله كيهـودى.. هو وكل يهودى مثله.

انه يولد وحوله جو من الاستبعاد والاشمئزاز والنفور والكراهية !

انه يـولد ليجـد نفسه فى مـوقف «الملعون». وإذا بـه يكتسب، بـالتالى، الصفات الماديـة والمعنوية والسيـاسية والاقتصاديـة التى تترتب على هذا «الموقف».

انه يولد ولديه القابلية الطبيعية لكى يكون مواطنا مندمجا فى الوطن .. فرنسيا فى فرنسا، وانجليزيـا فى بريطانيا.. ولكن المواطنين هم الذين يأبون عليه أن ينـدمج.. فلا يجد مفـرا من أن يظل «يهوديا».. وأن تظل اليهـودية صفة تميزه وتفصله عن الآخرين .. ويصبح بالتالى «غير قابل» للانتماء إلى الوطن ـ أى وطن ـ والاندماج فيه !

ولما كان اليهودى ـ أيا كان المكان الذى يولد فيه ـ يواجه هذا «الموقف».. فإن هـذا «الموقف».. الواحـد بـالتالى يـوحـد بين جميع اليهود فى العـالم.. ويخلق بينهم هذه الـرابطة التى نعرفهـا.. والتى مصدرها هـو هذا الموقف

«المنبوذ» وليس مصدرها لاوحدة الدين ولاوحدة الجنس ولاوحدة التاريخ!

وأقدم تهمة وضعت اليهود فى هذا الوضع المنبوذ من العالم المسيحى، هو اتهام المسيحيين لهم بأنهم قتلوا المسيح .. ولذلك فكل مسيحى أوربى يشب وهو ينظر إلى اليهود على أنهم قتلة أحفاد قتلة !..

والفكرة التى يبنى عليها سارتر نظريته ـ إلى الآن ـ معقولة إلى حد بعيد ان الذى يجمع اليهود ليس الأصل الواحد ولا الدين الواحد ولا التاريخ الواحد. وهذا أحد الأدلة التى نسوقها لنقول أنه لاحق لهم فى الوطن الذى اغتصبوه فى فلسطين. انما الذى يجمعهم هو وحدة «الموقف».. موقف «النبذ» و«الابعاد» الذى يواجهونه فى أوربا بالذات.

ولكن سارتر بالغ كثيرا فى ترتيب النتائج على هذه الفكرة. فذهب إلى أقصى الحدود فى إلقاء مسئولية هذا «النبذ» على المجتمعات التى ينشأ فيها اليهود، أى على العالم كله.. فى حين لم يفكر لحظة واحدة فى أن يكون اليهود أنفسهم مسئولين ـ ولو إلى حد ما ـ عن هذا النبذ الذى يعيشون فيه.

ومنذ ذلك الوقت والمجتمعات المسيحية فى أوربا ترفض أن ينتمى اليهود إليه أو يذوبوا فيها ـ قوميا أو اجتماعيا لقد اختارت أوربا لهم مركز «الملعون» فلم يكن أمامهم مفر من أن يسلكوا سلوك الملعون. كان محرما عليهم أن يمتلكوا الأرض أو أن يخدموا فى الجيش.. فلم يكن أمامهم مفر من أن يركزوا حياتهم فى النقود. وبتركيزهم المطلق على النقود تعززت اللعنة الأولى عليهم بلعنة جديدة اقتصادية.. واليوم يتهم العالم اليهود بأنهم لايعملون أبدا فى أعمال انتاجية كالزراعة أو الصناعة أو العمل اليدوى ولكنهم يعملون فى مهنة النقود.. فأن السبب فى رأى سارتر هو أن أوربا المسيحية أبت عليهم أن ينتموا إلى الوطن انتماء عاديا وأبت عليهم ممارسة أى مهنة أخرى.

الفلوس

ويستطرد سارتر استطرادا ذكيا فى تحليل حب اليهود المشهور للفلوس، وتفرغهم للعمل فى الأوراق المالية والبنوك والمضاربات وما إلى ذلك فيقول : ان الذى يجذب اليهودى إلى الفلوس ليس حب الفضة أو الذهب فى حد ذاته، ولكن الذى يجذبه فى الفلوس هو : قوتها الشرائية.. أو «قدرتها على

الشراء» الفلوس لاجنسية لها. ولا قومية ولاتراث. انها لغة عالمية.. قوتها مستقلة عن قوة القيم الأخرى التى يجد اليهودى نفسه محروما منها. «ثمن» أى شىء لايتوقف على شخصية ولاجنسية ولادين المشترى. المشترى هو الذى يملك الرقم المكتوب فى خانة السعر. فإذا دفع الثمن فأنه يصبح المالك القانونى للشىء. فالتملك بالشراء لغة عالمية لايحتاج إلا إلى الفلوس. فى الآداب المحلية نقرأ دائما أن هناك أشياء كثيرة ليس لها ثمن.. لاتباع ولاتشترى كالشرف والحب والفضيلة والذوق.. إلى آخره، وهذا فى رأى سارتر أسلوب لاستبعاد اليهودى وحرمانه من نيل هذه الأشياء.. ولكن هذا فى حد ذاته هو الذى يجعل اليهودى حريصا على أن يثبت أن كل هذه الأشياء يمكن شراؤها، وأن الفلوس بالتالى هى أهم شىء.. إنه لايؤمن بأن أى شىء له زقيمة» ولكن كل شىء له «ثمن». ان «القيمة» لها معايير كثيرة غير الفلوس.. ترجع إلى التراث مثلا أو الانتماء إلى أصل معين أو حضارة معينة.. أو أو .. إلى آخر هذه الأشياء التى يجد اليهودى نفسه محروما منها، فهو لذلك يحاول إلغاء فكرة «القيمة» التى لايستطيع أن يشارك فيها لتحل محلها فكرة «الثمن». أى الفلوس.. الشىء الذى يستطيع أن يمتلكه ويشارك فيه «القيمة» شىء اجتماعى. فما ليس له قيمة فى مجتمع قد تكون له قيمة كبيرة فى مجتمع آخر. واليهودى منبوذ من كل مجتمع، لذلك فهو بفضل إلغاء فكرة القيمة» التى لايستطيع أن يشارك فيها، ويحل محلها فكرة «الثمن».

فلهفة اليهودى على الفلوس.. وعدم اعترافه بأى قيمة إلا بالفلوس وبفكرة الثمن.. ليس مصدرهما خسة طبيعية فيه. ولكنهما «رد فعل» لحرمان المجتمع له من المشاركة فى القيم الخاصة بهذا المجتمع.

يضاف إلى ذلك أن اليهودى دائما قلق فى أعماقه. انه لا يطمئن أبدا إلى استمرار ملكيته لأى شىء. انه لايستطيع أن يثق فى أن مركزه أو ممتلكاته أو قوته فى المجتمع الذى يعيش فيه يمكن أن تستمر غدا.. وهو يشعر بالتحقير العميق الذى تكنه الجماهير له. تاريخه عبارة عن عشرين قرنا من التيه والتجوال.. انه مستعد فى أى لحظة لأن يحمل عصاه على كاهله

ويرحل. انه لايمكن أن يستشعر فعلا استقرار «الآرى» الذى لايمكن مناقشة التصاقه بأرضه وانتمائه لوطنه، وكل القيم الاجتماعية المعترف بها فى بلاده.

على هذا النحو يمضى سارتر فى سرد كثير من الصفات التى أصبحت لاصقة بشخصية «اليهودى» فى الذهن العام، مبررا لها جميعا بأنها رد فعل ونتيجة لمعاملة المسيحية الأوربية، والقوميات الأوربية لليهود خلال ٢٠٠٠ سنة مستمرة من الزمان حتى حين يقول الواحد «يهودية حسناء» يجد أن للكلمة وقعا يختلف عن وقع قوله «أمريكية حسناء» أو «يونانية حسناء» مثلا. ان كلمة «يهودية حسناء». فيها نوع من لذة الاستباحة والاغتصاب! اليهودية الحسناء هى تلك التى جرها فرسان القوزاق من شعرها فى شوارع القرى المحترقة اليهودية الحسناء فى الفولكلور - الأدب الشعبى - الأوربى هى المقهورة المغتصبة أو الذليلة فى حب أوروبى لايهتم لها كثيرا، وسوف يتزوج آخر الأمر من أوروبية مثله. وفى بعض القصص الشعبية حين تموت اليهودية فى سبيل حبها اليائس لاتقدم القصة موتها على انه استشهاد، بل على أنه نوع من العدل!».

«واليهودى فى فرنسا مثلاً قد يصل إلى أعلى الدرجات، ويحقق أكبر قدر من الثراء، ولكن المجتمع رغم ذلك يأبى عليه أن يلتحق به التحاقا حقيقيا حتى ولو «قبل وجوده» فى كل مكان أنه قد يصبح وزيرا، ولكن الناس لايذكرونه فيقولون انه وزير» بل انه «وزير يهودى»».

وكما يرسم جان بول سارتر صورة اليهودى التى خلقها المجتمع الأوربى.. بل صورة «عدو السامية».. وهو ليس المواطن الأوربى العادى، ولا حتى الذى يقف من اليهودى هذا الموقف، بل هو ذلك الذى يتميز بعداء خاص لليهود.

يقول سارتر ان أعداء السامية ودعاة التعصب العنصرى ليسوا عادة من الأذكياء أو المتفوقين بأى صورة من صور التفوق. أى ليسوا من «النخبة» فى أى مجتمع. ولكنهم من «العادين تماما» أو الأقل من العاديين!

وأغلب الندوات العنيفة ضد السامية نشأت وترعرعت بين أبناء الطبقة

المتوسطة الصغيرة التى لايملك أفرادها شيئا.. فبمجرد تعصبهم يشعرون فجأة بأنهم يمتلكون شيئا. فالطبقة المتوسطة الصغيرة التى لاتملك إلا قليلا فى ألمانيا كانت هى نواة دعوة معاداة السامية. انها عاجزة ازاء «اليونكرز» وكبار الصناعيين الذين يملكون كل شىء فى ألمانيا، وهى فى نفس الوقت لا تقبل الاعتراف بأنها لاتملك شيئا كالبروليتاريا، لهذا أقبلت على دعوة معاداة السامية.لأنها تعطيها احساسا بالامتلاك وبالتميز إزاء فئة أخرى ، هى اليهود تريد أن تسرق منها ما تملك.. وهو الوطن !

ويقول جان بول سارتر، فى تحليل طويل لامجال هنا لسرده. ان اليهودى .. ازاء هذا «الموقف» الذى يجد نفسه فيه.. يختار أحد موقفين.. فريق يحاول أن يتنصل من يهوديته وان يتهرب منها.. وأن يتستر عليها.. أى يحاول بوجه عام تخفيف وقع المقاطعة الموجهة ضده.. فهو إنسان فى حالة هرب دائما من نفسه ومن وضعه.

وفريق ثان .. يكون رد فعله عكسيا.. انه يقبل اتهام العالم كله، ويعامل العالم على هذا الاساس، ومن هذا الفريق الثانى خرج - فى رأى سارتر - أولئك الذين دعوا إلى إقامة وطن يهودى ودولة يهودية، على أساس أن تأكيد الذات اليهودية والوجود اليهودى، والرد على النفى الاجتماعى فى أنحاء العالم لايكون إلا بإقامة دولة تكون لها أرض وقومية ووجود ينتمى إليه.

ثم يقول : إن إقامة دولة يهودية قد تحل مشكلة اليهود الذين يسكنون فى تلك الدولة. ولكنها لاتحل مشكلة اليهود الذين يفضلون البقاء فى أوطانهم، بل انها تزيد من تعقيد موقفهم. ذلك أن قيام هذه الدولة هو دليل آخر يبرهن على مايقوله خصومهم من أنهم لايحبون الانتماء إلى الأوطان التى يعيشون فيها أصلا.

وهو يتنبأ بأزمة شديدة بين اليهود المهاجرين إلى إسرائيل من جهة.. واليهود الباقين فى أرض آبائهم وأجدادهم. فرنسا أو غير فرنسا من جهة أخرى!

إلى هنا .. وأعتقد أننى اعطيت وجهة نظر سارتر فى الموضوع فرصة كافية فى حدود هذه المساحة ، وقد آن أن نتأمل كلامه معا فى سطور قليلة.

ملاحظـــات

إن الملاحظة البارزة على هذا الكتاب هى أن سارتر كتبه بلهجة المحامى، فبالرغم من أن فيه أشياء كثيرة صحيحة، وعلى درجة كبيرة من ذكاء التحليل.. فأن الكتاب كله مكتوب بلهجة المحامى الموكل للدفاع عن قضية معينة. فهو يشعر أن من واجبه تبرير كل شىء. والدفاع عن كل شىء. ونفى كل مسئولية ـ صغيرة أو كبيرة ـ عن موكله !

ونحن ـ كما قلت فى مقدمة المقال ـ لسنا أعداء للسامية ولا أعداء لليهود كجنس أو كدين. بل ولا نختلف فى هذه الناحية عن أى رأى قال به سارتر ولكن المرء حين يفصل فى قضايا نفسية وتاريخية واجتماعية عمرها ٢٠٠٠ سنة، لايمكن أن يلقى كل المسئولية على طرف واحد دون طرف وهو مطمئن الضمير. ولقد بالغ سارتر فى نفى أى مسئولية عن اليهود إلى درجة انه كاد يكون «عنصريا» بمعنى آخر ! فكما أن كراهية عنصر معين هو اتجاه عنصرى، كذلك فإن نسبة فضيلة الصواب المطلق إلى عنصر معين هى أيضا نزعة عنصرية !

إن سارتر حين يعيد ويزيد ويؤكد أن اليهود يحاولون دائما الاندماج والذوبان فى كل مجتمع يعيشون فيه، ولكن المجتمعات العالمية هى التى ترفض ذلك، وهى التى تصر على إبقائهم منفصلين.. إنما يتجاهل فى الواقع محاولات كثيرة جرت لامتصاص اليهود فى مجتمعات كثيرة ويتجاهل أن اضطهاد اليهود إذا كان قد حدث فى مناسبات كثيرة إلا أنه لم يكن أبدا القاعدة المستمرة فى التاريخ.

وفى بلاد كالبلاد الشيوعية، تم فيها إلغاء الدين الغاء تاما، وانفتحت بذلك فرصة ضخمة لليهود لكى يصبحوا على الزمن جزءا لا يتجزأ من البلد الذى يعيشون فيه .. لم يغير هذا من الحقيقة فى شىء، وظلت المشكلة اليهودية قائمة بنحو أو بآخر .. بمعنى أنه ظلت الرابطة اليهودية المنفصلة عن الرابطة القومية العامة فى تلك البلاد قائمة.

وآية ذلك محاولات اليهود فى تلك البلاد من أجل الهجرة إلى إسرائيل. بالرغم من أن كثيرين جدا من هؤلاء الراغبين فى الهجرة هم فى الواقع ملحدون، كما يقول سارتر نفسه فى ملاحظته عن اليهود الأوربيين.

إنهم هنا يهربون من هذا «الذوبان» الذى يقول سارتر أنهم يطلبونه !

ولا يمكن القول بأنهم يهربون من نظام اقتصادى لايحبونه مثلا.. لأنه لايحدث أبدا أن تهرب «فئة بأكملها» من وطنها، إذا كانت تحس بالانتماء إلى هذا الوطن بالمعنى الذى يفهمه أى مواطن فى أى وطن لمجرد اعتراضها على النظام الاقتصادى.

وقد ركز سارتر حديثه خلال صفحات طوال عن اشتراك اليهود الفرنسيين فى المقاومة السرية ضد النازى وضد الاحتلال الألمانى. وأشاد طويلا ببطولتهم وقال ما معناه انهم بهذا دفعوا أعظم ضريبة يمكن أن يدفعها أى فرنسى.

ولكن هذا المثل لايصلح دليلا مطلقا على رغبتهم فى الذوبات والانتماء المطلق إلى المجتمع الذى يعيشون فيه. والسبب هو أن العدوان النازى لم يكن موجهاً ضد فرنسا وحدها إنما كان موجها أيضا ضد «اليهود» بالذات. كان هتلر يهدد اليهود أكثر مما يهدد فرنسا. فهم هنا أمام خصم للطائفة لامجرد خصم للوطن. ولهذا فهم قد حاربوا هتلر كيهود لا كفرنسيين. حاربوا حرب الدفاع عن بقاء اليهود لاحرب الدفاع عن عظمة فرنسا مثلا !

• والدليل على ذلك أن هناك أمثلة كثيرة تدل على أن اليهود فى هذا الوطن أو ذاك لم يكونوا يختارون دائما الانتماء إلى الوطن فى ساعات مجد الوطن وساعات ذله على السواء وهو الانتماء الحقيقى. إنما كانوا كثيرا ما يعتبرون أنفسهم كتلة خارج دائرة الوطن. لها حرية اختيار الوطن وتغييره وفق المصلحة التى يرونها.

سارتر نفسه يشير إلى الثورة الوطنية البولندية التى نشبت فى القرن التاسع عشر ضد الاحتلال الروسى. وكيف أن يهود وارسو برفضهم الانضمام إلى الثورة كانوا يهدفون إلى تحقيق مركز ممتاز لأنفسهم عن طريق موالاة المغتصب الروسى.

وسارتر يقول إن قيصر روسيا كان يضطهد يهود روسيا فى نفس الوقت الذى كان يمالىء فيه يهود بولندا ويمنحهم الامتيازات. وأن السبب هو أن القيصر اعتبرهم فئة منفصلة عن الوطن فى الحالتين. فالفئة المنفصلة

فى وطنه هى خطر على وطنه ولذلك يضطهدهم. والفئة المنفصلة فى وطن بولندا تفيد سياسته ضد بولندا فهو لهذا يمالئهم !

ولكن هل دفاع سارتر هذا يبرىء اليهود ـ تماما ـ من مسئولية الموقف.

وإذا فرضنا أن موقف الاضطهاد داخل روسيا كان «مفروضا» عليهم ولاحيلة فيه.. فهو موقف ممالأة المستعمر فى بولندا أيضا كان مفروضا عليهم ولاحيلة لهم فيه ؟!

بالطبع لا !

مثل آخر أضربه لا لأن له دلالة خاصة، ولكن لأنه كان محل جدل خلال الأسابيع الماضية بالذات هو : اليهود فى الجزائر !...

إن اليهود الجزائريين من سكان البلاد الأصليين. ومنذ الاحتلال الفرنسى للجزائر على الأقل يمكن القول أن حظهم وحظ أبناء سائر الأديان كان واحدا. فلا يعقل أن يضطهدهم الجزائريون وهم أنفسهم مضطهدون. ولكن اليهود هناك وجدوا الفرصة المناسبة بعد الاحتلال لكى يختاروا الجنسية الفرنسية وينضموا بكل كيانهم إلى الكيان الطارىء على الجزائر، صاحب الامتيازات ويتخلصوا من جلدهم الجزائرى القديم وكان هذا قبل أن تقرر فرنسا اعطاء الجنسية الفرنسية لكل سكان الجزائر بعشرات من السنين. واليوم، بعد مرور حقبة طويلة، وبعد اشتعال النار تحت بوتقة الثورة الجزائرية، أصبح اليهود الجزائريون من الأوروبيين ومن مشكلة الأوروبيين.

ليس صحيحا إذن هذا الموقف الذى يتخذه سارتر.. من طلب البراءة التامة لكل المجتمعات اليهودية فى كل زمان ومكان.. وطلب الادانة الكاملة لكل المجتمعات الانسانية الأخرى فى كل زمان ومكان !..

ولا كلمة عن الصهيونية !

وكما أن المحامى الذكى يعمد عادة إلى اخفاء واهمال نقط الضعف فى موقف موكله، كذلك فإن سارتر يمر مرور الكرام على نقط الضعف الأساسية فى موقف اليهود اليوم..

إن الكتاب ـ مثلا ـ مشحون بطاقة هائلة ضد أى اتجاه عنصرى. فماذا عن الدعوة العنصرية فى داخل المجتمع اليهودى.. وهى الدعوة الصهيونية؟

لا شيء !

بالرغم من أن سارتر أشبع كل شيء يتصل با لمسألة اليهودية عرضا وتحليلا فأنه لم يذكر الصهيونية إلا فى سطور تعد على أصابع اليد الواحدة!..

رغم أن الصهيونية كدعوة كان عمرها أكثر من نصف قرن عندما كتب هذا الكتاب !

رغم أن الصهيونية ـ كدعوة عنصرية ـ أقدم من النازية نفسها بعشرات من السنين !..

لأنه لو وضع الصهيونية فى مكانها المناسب من الأهمية، فكأنه وضع اليهود أو فئة كبيرة منهم تحت رحمة كل مدافعه الثقيلة التى يصوبها فى كتابه إلى النزاعات العنصرية و إلى كل أنواع التعصب.

ومن المؤكد أن أى دراسة للمسألة اليهودية الآن لاتهتم بالدعوة الصهيونية فكريا وسياسيا وتاريخيا.. تكون دراسة ناقصة إلى حد كبير !..

لا

يا شيخ ؟؟

أخبار اليوم .. في :

١٩ / ٨ / ٦١

كثيرا مايحار المرء كيف يعامل هؤلاء الناس.. وهؤلاء الناس هم بعض رجال الدين .. الذين يريدون أن يحتكروا تفسير الدين، وبالتالى يحتكروا تفسير الحياة. الذين يحسبون أن الآيات القرآنية عجينة فى أيديهم يكيفونها كيفما تشاء لهم عقولهم.. المتحجرة فى أغلب الأحيان.

أقول إن المرء يحار فى طريقة معاملة هؤلاء الناس ، فالواحد منا يحترم فيهم أحيانا سنهم الكبيرة.. ويعذرهم فيما بينه وبين نفسه إنهم عاشوا حياتهم العقلية أسرى بين جدران كتب معينة محدودة، لم يعرفوا سواها ولم يدركوا من التجارب الانسانية غيرها، ولهذا يؤثر الانسان حتى إذا ناقشهم ألا يخرج معهم عن حدود الأدب.

ولكن بعض رجال الدين هؤلاء.. يبرهنون من الوهلة الأولى على أن الدين لم يترك فيهم أول أثر من آثاره وهو الأدب والمناقشة المهذبة والمجادلة بالتى هى أحسن، ويحار المرء كيف يعاملهم، هل يكيل لهم بنفس الكيل أم يقدر أن التطور يحطم رءوسهم فتثور أعصابهم ويطير صوابهم على هذا النحو الذى نراه أحيانا.

النموذج الذى أثار فى الذهن هذه الخواطر هو الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة.

فقد خرجت مجلة «منبر الاسلام» تحمل مقالا للشيخ أبو زهرة يسبنى سبا مقذعا. ويستعدى على الله، ثم الدولة، وأصحاب المؤسسة التى أعمل فيها .. طالبا أن تطردنى المؤسسة من عملى وأن تضعنى الدولة فى سجونها، وأن يسوقنى الله إلى جهنم يوم القيامة !

والأستاذ أبو زهرة لم يذكر اسمى صريحا فى هذا المقام.. أغلب الظن لأنه خشى أن أنال على يديه شهرة لا أستحقها ! ولكنه اكتفى بأن يشير إلى بأوصاف مثل «هذا المنحرف».. الذى اشتهر «بانحراف التفكير وفساد الغايات، والتمرد على الحقائق الدينية». والذى ينادى بآراء هى آثام يحمل وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة !

لماذا ؟.

لأن الشيخ لم يعجبه بعض ماكتبت ، محاولا أن أشرح ما أفهمه من المبادىء الاشتراكية، والقيم الاشتراكية، والأخلاق الاشتراكية !

ما الذى لم يعجبه ؟

ما الذى جعله يلبس ثياب قضاة محاكم التفتيش ويطالب بالقائى إلى النار ؟

ما الذى أثاره وجعل الدم يغلى فى عروقه من هذه المحاولات فى الكتابة عن الاشتراكية والقيم الاشتراكية، والأخلاق الاشتراكية ؟

المرأة !

دائما المرأة !

فقرة عابرة كتبتها عن الأسرة وعلاقة الرجل بالمرأة ووضع المرأة فى المجتمع الاشتراكى !

المشايخ .. والنساء !

ألا تلاحظون معى أن هؤلاء المشايخ لايكاد يعنيهم شىء فى الوجود إلا المرأة ؟

ألا تلاحظون أنهم أكثر الناس تفكيرا فى المرأة ؟

أليس هذا غريبا حقا ؟

ألا يحتاج هذا إلى محلل نفسى.. أكثر مما يحتاج إلى جدل عقلى ؟

الأغرب من ذلك أن ما يعنى هؤلاء المشايخ من المرأة ليس «الانسانة» ولكن «العورة».

المرأة فى عقلهم الباطن مخلوقة حقيرة مستعدة أن تبيع عرضها لأول عابر سبيل.. إذا غفل الرجل لحظة واحدة عن حراستها !..

المرأة فى مفهومهم لا تصلح إلا لشىء واحد هو أن تسلم نفسها للرجال.. ولهذا يجب أن تقام حولها الأسوار، وتتفتح حولها العيون الحمراء.

حرية المرأة ليس لها معنى إلا الفساد..

مسئولية المرأة عن نفسها لا نتيجة لها إلا الانحلال !

خروج المرأة من بيتها لايؤدى إلا إلى أن ينقض عليها الرجال !

الجنس .. والجنس وحده يدوى فى عقولهم دائما وباستمرار !

التفسير الجنسى للتاريخ هو التفسير الوحيد الذى يفهمونه ويدورون حوله دون انقطاع !

قصة الحياة على الأرض هى قصة رجال يقومون بحراسة النساء من خطر الرجال الآخرين.

تفكير مكبوت محصور منحرف !

وإلا .. فبماذا يمكن أن نفسر هذا الذى يقوله الشيخ ؟

لقد تحدثت فى المقال الذى يهاجمه الشيخ عن المساواة بين الزوج والزوجة، والمساواة بين الأخ والأخت .. أى المساواة بين الرجل والمرأة !

فكيف فهم الشيخ هذا الكلام ؟

فهمه على اننى أقول بأن لها أن تخرج من البيت كما تشاء وفى أى وقت تشاء، كما أن للرجل أن يخرج من البيت فى أى وقت يشاء ثم قال عنى «ويكاد يقول أن لها أن تصاحب من تشاء».

هكذا وصل الشيخ فى فهم المساواة إلى أن معناها أن للمرأة أن تصاحب من تشاء من الرجال !..

وليس لهذا سوى معنى واحد هو أن الرجل فى رأى الشيخ من حقه أن يصاحب من يشاء من النساء !..

أليس معنى كلامك هـذا أن الرجل من حقه أن يصـاحب من النساء من يشاء ؟

لماذا ؟.

لأنه رجل !

لأنه سيد

لأنه فحل !

أما أنـا فأفهم المساواة على معنى آخر تمامـا ! لأننى لا أشارك الشيخ فى الرأى الذى تـورط فيه من حيث لايدرى.. الرأى القـائل بأن من حق الرجل أن «يخبص» كما يشاء !!

أنا لا أفهم المساواة على أن كلا من الرجل والمرأة يخرج على هواه وكيفما شاء.. ولكننى أفهمها على أن كلا منهما مقيد فى دخـوله وخروجه وتفاصيل حياته برأى الآخـر ومشورته واقتناعه ! وعلى أن الأخلاق الكـريمة مطلوبة من الرجل ومقيدة له كالمرأة سواء بسواء !

وبهذا يكون الـرجل والمرأة طبقة واحـدة ! ليس فيها سيـد غاشـم مطلق ومخلوقة خاضعة ذليلة ضائعة !

الشيخ لا يطيق حكاية الطبقة الواحدة !

ولكن الشيخ لا يطيق حكـاية الطبقة الـواحدة والمجتمع الـذى ليس فيه طبقـات ! ويقـول ان المسـاواة معنـاهـا أن تكـون المرأة «من غير عـاصم يعصمها ولا راع يرعاها ولا حام يحميها ولا بيت يؤويها !».

ألم أقل لكم ؟

ألم أقل لكم أن الشيخ يعتقد أن المرأة بغير القيـود والسدود.. لـو تركت لنفسهـا.. فهى ستتحول إلى بهيمـة سائبـة لا حامى يحميهـا من الرجـال الآخرين ولا عـاصـم يعصمها من أن تفرط فى نفسهـا ولا بيت يؤويها لأنها سوف تعرض نفسها فى الشوارع ؟..

ألم أقل لكم أن هـذا هـو رأى هذا النـوع من المشـايخ فى المرأة؟.. وانها تنتظر لحظـة انكسار القيد والخوف والبطش لكى تسلم نفسها لأول عـابر طريق ؟.

هذا هو المرض العميق الـذى يمنعهم من فهم المساواة. انهم لا يرون فى

المرأة مخلوقة إنسانية، يمكن أن تكون شريفة عفيفة متوازنة مرتبطة بالبيت باختيارها وبإرادتها !..

على أن هذا كله ـــ بكل بشاعته واهانته للمرأة ـ أقل أهمية وخطرا مما سيجىء.

الشيخ يفضح نفسه

لــو كــان الأمــر فى خــروج المرأة أن تــذهب إلى السينما مع زوجهــا وصــاحبــاتها، أو مــاشــابــه ذلك لهان الأمــر.. ولكن الشيخ يفضح نفســه ويكشف عن مكنــون سخطه.. حين يصل بحـديثه إلى مـربط الفرس وهــو عمل المرأة !..

هــذا الموضوع الــذى نحسب أحيانــا انــه انتهى وتقرر وأن الجدل فيــه تكرار ممل فات أوانه ! ..

ولا أظن أن كلام الشيخ ـــ فى هذا الموضــوع ـ سوف يمنع فتــاة واحدة من العمل. ولكنى أقف عند هــذا الكلام لأنه نموذج يكشف لنــا حقيقة الفكر الكــامن فى «تلافيف» مخ هــذا الشيخ وأمثالــه.. لا ما يقــولونــه باللســان، يدارون به أمورهم.

يقول الشيخ ان عمل الرجل خارج المنزل وعمل المرأة داخل المنزل فقط. وانه يجب منع المرأة من أن تخرج وتعمل إلا لضرورة ملحة لا مناص منها ، كأن تفقد العائل ، أو أن يعجــز الزوج عجزا مطلقا فأنــه فى هذه الحالة فقط لها أن تتــولى عمــلا لمصلحــة البيت ولســد الخلل فيــه ، وذلــك استثنــاء، والاستثناء لا يصح أن يكون قاعدة.

هذا هو نص كلام الشيخ بلا زيادة ولا نقصان !..

ومعنى ذلك أن الشيخ يريد لبلادنا أن تعود إلى الوراء بسرعة مخيفة!..

انهيار القوة العاملة

ما معنى ذلك ؟..

معناه أن القوة العاملة المستقبلة فى هذه البلاد يجب أن تهبط إلى النصف او إلى الثلث على الأقل ! وبينما كل بلاد الدنيا تعمل بقــوتها البشرية الكاملة، نعمل نحن بنصف قــوتنــا.. لأن نســاءنا فى رأى الشيخ إذا خــرجن ســوف ينقض عليهن الرجال ويفسد الأمر !

فمن المقرر المعروف أن عجلة الانتاج والتصنيع والتوسع الزراعى حين تندفع إلى الأمام، سوف تستوعب كل الرجال. سوف تمتصهم الأعمال الشاقة فى المصانع والمناجم والأراضى المستصلحة، فتخلو مئات الآلاف من الأعمال الأقل صعوبة. وتصبح فى حاجة ماسة إلى أن تشغلها النساء. وظائف السكرتارية وعاملات المهن الخفيفة كالنسيج وعاملات المحلات.. إلى آخره. هذه الطاقة الانتاجية الضخمة يريد الشيخ الغاءها والحكم عليها بالشلل، ولو أدى الأمر إلى استمرار بقاء الفقر والتخلف. فلا الفقر يهم ولا التخلف يهم ولاالجهل يهم. مادامت كل امرأة معصومة فى بيتها.. معصومة من الخروج.. إلى الخطيئة الحتمية التى تتربص بها فى الشارع والمكتب والمصنع.

ولكن الجنس والخطيئة لايستبدان بعقول آلاف الرجال والنساء كما يعتقد الشيخ.

إن لدينا الآن عشرات الآلاف من الموظفات والعاملات فى جميع المستويات دون أن تخرب بيوتهن أو يتمردن على أزواجهن. إنما اكتسبت كل منهن فى بيتها نفسه كرامة جديدة واحتراما جديدا.

عشرات الآلاف من الموظفات والعاملات .. وسوف يزيد عددهن بسرعة كبيرة ومن غير المتصور أن يكون انجاز مضاعفة الدخل ـ مثلا ـ ممكنا فى عشر سنوات لو اننا طبقنا موعظة الشيخ واستبدت بنا أفكار الخطيئة والجنس، ومنعنا عمل المرأة.

منطق القناعة وبمجيد الفقر!

هذا على المستوى الاجتماعى.. تعالوا ننظر إلى الأمر على مستوى الفرد والبيت والأسرة.

إن السبب الوحيد الذى يبيح عمل المرأة فى رأى الشيخ هو الضرورة الملحة كأن تفقد عائلتها أو يعجز الزوج عجزا مطلقا، مؤكدا أن «هذا استثناء، والاستثناء لايصح أن يكون قاعدة».

لابد أن يموت أبوها أو زوجها وأن تصبح مهددة بالجوع ، لكى تعمل.

أما إذا كان أبوها أو أخوها أو زوجها موجودا ، وإذا كانت تعيش على الكفاف، فلا يصح أن تعمل !

وليبق البيت كلـه فى مستوى الكفـاف ! لأنـه لا يصح لها أن تطمح إلى حياة أحسن لبيتها ، فتعمل لكى تضيف إلى دخل زوجها أو أبيها أو أخيها دخلا.

هذا المنطق فى القناعة بالكفاف وتمجيد الفقر وتبريره، هو الذى حكم على مجتمعنا بالتأخر مئات السنين المظلمة الطويلة.

المجتمع ينهزم من الداخل فقط

هذا المجتمع العربى والاسلامى لم يتأخر ولم ينحدر ولم يترد فى هوة الفاقة والذلة والمهانة بسبب حراب الانجليز أو الفرنسيين أو الأتراك أو التتار ! كلا .. إنما تأخر وتردى وانحدر مئات السنين المظلمة الطويلة بفعل هذه الأفكار المظلمة المتردية. المجتمع ينهزم من الداخل قبل أن ينهزم من الخارج. العفونة الداخلية التى نشرها هذا النوع من التفكير هى التى أوجدت الفراغ .. والفراغ هو الذى استدعى الأجنبى.

لا يلزم أن نتقدم.

لا يلزم أن يرتفع مستوى الفرد والبيت والمجتمع.

يجب ألا نترك سعادة الفقر والاملاق والتخلف.. مادامت النساء فى البيوت ومادام الرُجال يقومون بمهمتهم الكبرى وهى حراسة النساء حتى لا ينحرفن إلى الرذيلة الكامنة فى طبيعتهن والتمرد الذى ينتظر لحظة الانطلاق.

هذا هو منطق الشيخ وأمثاله..

ومنطق الشيخ يصل فى نتيجته الحتمية إلى عدم تعليم البنت.

سيقول لكم : كلا .. التعليم شيء آخر .

ولكن أذكروا أن بعض المشايخ أمثاله عارضوا تعليم المرأة فى بداياته. وفى تاريخ المشايخ أن الشيخ «القابسى» الفقيه القيراونى القديم أفتى بأن يقتصر تعليم البنت على «مايرجى له سلامة» ويؤمن«من عليها من فتنتة، وسلامتها من تعلم الخط انجى لها». فحتى تعلم المرأة الخط فيه خطر عليها.. فقد تجد معه طريقا إلى بيع نفسها.

وحتى إذا أباح الشيخ تعليم المرأة دون علمها فهو لن يكون منطقيا مع نفسه.

فالتعليم بقصد المعرفة فقط.. يكفى فيه أن تتعلم البنت القراءة والكتابة وبعض المعارف العامة. ولكنها إذا كانت لا تعمل فلا مبرر لأن تتعلم حرفة أو مهنة.. كالطب أو الهندسة أو التدريس أو المحاماة أو غيرها. إذ من غير المعقول أن تدرس فتاة الطب مثلا فى سبع سنوات مضنية. لمجرد الاستعداد للحظة التى قد يموت فيها زوجها أو أبوها وتحل بالبيت كارثة. فتفتح عيادة.

النشرة الجوية حرام والتخطيط حرام !

واننى استأذن القارىء لحظة، أترك فيها الشيخ أبو زهرة إلى شيخ آخر لايقل عنه طرافة.

ولا أريد أن أسمى الشيخ الآخر، إنه ليس طرفا فى هذا النزاع.. وإنما أردت أن أضرب به المثل وأقدم نموذجا فذا عجيبا.

هذا الشيخ أستاذ أزهرى ومن العلماء وعندما كنت مسئولا عن تحرير إحدى الصحف منذ سنوات قليلة ، ارسل شكوى ضدى إلى السلطات .. لأننى أنشر فى تلك الصحيفة الانحلال والالحاد والفسق.

وفى جلسة لا أنساها.. شهودها مازالوا أحياء.. ناقشنا الشيخ. الذى أؤمن باخلاصه وصدقه مع نفسه ـــ فى هذا الذى يراه الحادا وانحلالا وفسقا.

وكانت الحقيقة أغرب من الخيال وكانت قائمة الاتهامات لاتخطر على بال.

فى مقدمتها ـ مثلا ـ أن الجريدة تنشر النشرة الجوية كل يوم بجوار مواقيت الصلاة. والنشرة الجوية فى رأى الشيخ تنجيم ورجم بالغيب.. والتنجيم كفر. وقد كذب المنجمون ولو صدقوا.

تهمة أخطر ..

اننى كنت أكتب بحماسة أكثر من اللازم عن التخطيط وخطة مضاعفة الدخل وكانت فى أول عهدها. والتخطيط هو تدخل فى قدرة الله.. ولذلك فهو رجس من عمل الشيطان.

نعم التخطيط كفر.. هذا ماقاله أستاذ الأزهر بالحرف الواحد.. إذ كيف نقول إن الدولة تضع أساسا علميا للمستقبل. كيف نقول أن الفرد يستطيع

ـ بناء على ذلك ـ أن يحدد رزقه وزيادته خلال كذا سنة مقبلة. فى حين أن المستقبل علمه عند علام الغيوب والأرزاق من عند الله، يعطى من يشاء ويحرم من يشاء بغير حساب.

ولقد يظن القارىء أن هذا الذى أرويه قصة فكاهية. ولكنه حقيقة أليمة..

حقيقة أليمة أن يقف أستاذ شيخ يحمل لقب «عالم» إزاء الطقس كما يقف الانسان البدائى. لا يعرف أن هناك علوما حديثة وأجهزة حساسة وأساليب محددة لمعرفة تقلبات الجو ، وأن بهذه الأجهزة تطير الطائرات وتسترشد السفن.

حقيقة أليمة أن يقف أستاذ شيخ ذاهلا أمام كلمة «علام الغيوب» لا يفسرها فى حدودها المعقولة . بل يفسرها على إنها إلغاء لكل مجهود بشرى وكل عمل إنسانى وكل محاولة لتغيير الواقع المادى الذى يحيط بنا. ومرة أخرى.. بهذا الاستسلام الجاهل.. بل أقول استسلام الكافر الذى لم يقل به دين فقط.. عرفت الأمة العربية والشعوب الاسلامية قرونا طويلة من أتعس أيام الانحطاط والضعف.

ما رأيك فى هذه الحقائق ؟

وأعود مرة أخرى إلى الشيخ أبى زهرة اختتم به هذا الحديث ..

أعود لأقول له : إنها طريقة هزيلة أن تنتهز فرصة حديث عابر فى مقال كاتب مثلى ، لكى تنفجر هذا الانفجار، منفسا عن حقدك الدفين على إلغاء الطبقات ونشر المساواة ، وتحرير المرأة .

اننى أضعك هنا لا أمام مقال من المقالات .. ولكن أمام عدة حقائق مادية ضخمة فى حياة هذا البلد.. لتقول لنا موقفك منها على ضوء هذا الرأى الذى سجلته فى مقالك.. لأنها حقائق أولى بسخطك وغضبك وانتحالك صفة التحدث باسم الدين وسلطة تكفير الناس والحكم عليهم بدخول الجنة أو النار.

* إن هذه الدولة تبيح للمرأة حق الخروج والمشاركة فى الانتخاب والترشيح وعضوية الهيئات النيابية على جميع المستويات وان لك فى مجلس محافظة القاهرة زميلات أعضاء. فما رأيك فى هذا «الخروج» ؟

* إن التليفزيون الذى تتصدر فيه المجالس يذيع كل يوم ساعات طويلة من التمثيليات التى تشترك فيها النساء .. والبرامج التى تقدمها النساء، والأغانى التى تغنيها المطربات.. وصورهن ظاهرة للجميع.. فكم ساعة من ساعات الكفر فى رأيك يعرضها التليفزيون كل يوم ؟

* إن الدولة ترسل إلى الخارج، وفى جميع أنحاء العالم بعثات من البنات. البنت تذهب بمفردها إلى أوروبا أو أمريكا لتدرس العلوم أو الهندسة أو الذرة .. رغم أن عائلها لم يمت ولم يصب بكارثة. فما رأيك فى هذا الخروج ؟

* إن الأندية الرياضية والحفلات الرسمية فيها آلاف من الفتيات يقدمن التمرينات والألعاب والاستعراضات. فما رأيك فى هذا الالحاد ؟

* إن المعامل والمصانع والمتاجر والوزارات والمؤسسات فيها عشرات الآلاف من النساء العاملات.. وأغلبهن يمكنهن ترك العمل دون أن يمتن جوعا ولكنهن يعملن أما مساهمة فى الحياة العامة وأما بحثا عن تعبير إنسانى لوجودهن وأما لرفع مستوى معيشتهن إلى أحسن.. فهل ترى انسحاب الجميع من هذه الحياة أم أنهن جميعا ذاهبات إلى النار ؟

أترى أيها الشيخ إلى أى حد أنت معزول عن موج الحياة ؟.. أترى إلى أى حد تقف فى مكانك مطالبا بموت هذه الأمة لا بحياتها ؟ .. أيكون هذا هو ما يحرج صدرك ويثير حفيظتك فتنفجر هذه الانفجارات الطائشة.. منفسا عن كربك الشديد ؟

إن الذين يعملون على رقى بلادهم ، وتحرير مواطنيهم وتطوير مجتمعهم أعرف بروح دينهم من محترفى التلاعب بالنصوص وتلبيسها معانى مزورة تلائم عقدهم النفسية لا أكثر ولا أقل !

حول مقال صلاح دسوقى

الفرق بين الدين .. وبين أستاذ يدرس الدين !

كتب الصديق الكبير السيد صلاح دسوقى محافظ القاهرة ، مقالا فى الزميلة جريدة الجمهورية، تعليقا على المقال الذى كتبته فى أخبار اليوم بعنوان « لا يا شيخ؟» .. والذى كنت أرد فيه هجوما شنه ضدى الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة وأعارض فيه رأى الأستاذ الشيخ عن مكان المرأة فى

المجتمع.. إذا قال الشيخ أبو زهرة ان المرأة لا يجب أن تعمل إلا لضرورة قصوى كوفاة عائلها أو اصابة بعجز ، وان هذا الاستثناء لا يقاس عليه.. فى حين اننى أرى أن المرأة من حقها أن تعمل، وهى تعمل بالفعل.. وان المجتمع محتاج إلى عملها فى داخل البيت وفى خارجه على السواء.

ولست أخالف معنى واحدا من المعانى العامة التى أراد السيد صلاح دسوقى أن يسجلها فى مقاله الأخير فى زميلتنا «الجمهورية» تعليقا على مقالى. هذه المعانى العامة التى تقول ان التهجم على الدين باسم التحرر خطأ، كما أن معاندة التطور باسم الدين خطأ ، وانه يجب علينا أن نحفظ لرجال الدين كرامتهم. وان من بين رجال الدين من كان لهم فضل على الحركات التحريرية فى تاريخنا القومى.

هذه المعانى العامة التى أراد السيد صلاح دسوقى أن يبرزها فى مقاله ، أؤيدها تماما ، وأعتقد أن السيد صلاح دسوقى يعزف عنى شخصيا أننى أؤيدها بقلب مخلص صادق.

على اننى أريد أن أوضح بعض ما جاء فى مقاله خاصا بموقفى بالذات، أو بمقالى عن الشيخ أبى زهرة بالذات .. اننى حتى فى هذه النقطة الخاصة أشعر أن السيد صلاح دسوقى قد أنصفنى فى الجزء الهام من الموضوع، إذ قال انه يعتقد مخلصا أننى لم أقصد بمقالى هذا أن أهاجم الدين فى ذاته ، ولكنه آخذنى على أن الروح العامة لمقالى كانت قاسية ، وأنها فى رأيه قد تعدت المباح فى حالة الدفاع الشرعى عن النفس.

من الذى يقحم الدين ؟

ولست أنكر أن المقال الذى كتبته كان عنيفا ، قاسيا ، ثائرا .. ولكننى أعتقد أنه من الانصاف أن نضع فى الميزان ما قاله الأستاذ أبو زهرة عنى.

لقد علق الأستاذ الشيخ أبو زهرة على مقال لى لم أشر فيه إلى الدين بكلمة واحدة . مقالى تحدثت فيه عن موضوع قديم أشبعه الكتاب تحليلا وتعليقا فى كل مناسبة وهو مساواة المرأة بالرجل. وقد كان من الممكن أن يخالفنى الأستاذ أبو زهرة فى رأيى . وأن يقول ان الدين ـ فى اعتقاده ـ يخالف ما أذهب إليه.. إلى آخر ما يمكن أن يقال فى حدود الجدل المهذب.

ولكن الأستاذ أبو زهرة صنع شيئا آخر. لقد استخدم ضدى أقسى

الكلمات والألفاظ. وجمع كل التهم التى رأى أنها تعرضنى لحكم الأخلاق أو القوانين فالقاها على رأسى فى خفة غريبة ، من الكفر والالحاد إلى الشيوعية والانحراف.. إلى آخره.. فى لهجة ازدراء وتشهير واستعداء غريبة !.

فلماذا لا يكون الجزاء من جنس العمل ؟

لماذا لا يلام الشيخ أبو زهرة أولا على انه بدأ الجدل بهذا الأسلوب. والمفروض أن الناس لهم حق واحد متساوين فى الكرامة ، سواء كان هؤلاء الناس شبابا أو شيوخا ، صحفيين أو مدرسين للشريعة.

أهكذا بهذه السهولة نتهم الناس علنا وعلى صفحات الصحف بالكفر والالحاد ؟

أيكون من أدب المناقشة الموضوعية أن يستعدى الشيخ على الله ثم الدولة والمؤسسة التى أعمل فيها ، طالبا أن تطردنى المؤسسة من عملى ، وأن تضعنى الدولة فى سجونها وأن يسوقنى الله إلى جهنم يوم القيامة ؟ هل من أدب المناقشة ألا يشير إلى إلا بكلمة «هذا المنحرف» وأن يقول اننى اشتهرت بانحراف التفكير وفساد الغايات والتمرد على الحقائق الدينية ؟

ماذا يمكن أن يقال فى إنسان أكثر تشهيرا واندفاعا واساءة من هذا الكلام ؟

وإذا كان الهجوم على أحد رجال الدين له أثر خاص فى الناس.. أليس من الانصاف أيضا أن نقول أن قيام أحد رجال الدين بالذات بتوجيه تهمة الكفر والالحاد والانحراف له أثر خاص على الناس ؟

ومن الذى يقحم الدين هنا فى المهاترات ؟ .. الكاتب الذى يقول رأيه فى حياتنا الاجتماعية ، صوابا كان هذا الرأى أم خطأ أو الأستاذ الذى يريد أن يكون رأيه الخاص، هو الدين واجتهاده الخاص هو الإسلام ومن يجرح رأيه الخاص هذا فهو إنما يجرح الدين نفسه ؟!

اننى أوافق السيد صلاح دسوقى تماما على أنه يجب علينا جميعا أن نحفظ لرجال الدين كرامتهم، ولكننى أعتقد أن الواجب الأول فى هذا يقع على رجال الدين أنفسهم !..

أما أن الشيخ أبو زهرة قد هاجمنى فى مجلة محدودة التوزيع هى مجلة

«منبر الاسلام» وأن «الهجوم المضاد» منى كان فى جريدة واسعة الانتشار. هى أخبار اليوم ، فهذا أمر لا حيلة لى فيه . لقد كتب الأستاذ أبو زهرة حيث يكتب عادة . وكتبت أنا حيث أكتب عادة. والمسألة على أى حال مسألة مبدأ ، قبل أن تكون مسألة عدد النسخ التى توزعها هذه الجريدة أو تلك.

قواعد أساسية للمناقشة !

على أننى أحب أن انتهز هذه الفرصة ، لكى أسجل هنا بعض المبادىء الأساسية ، التى أعتقد أن تسجيلها أصبح ضروريا ولازما.

إن رجال الدين — وهذا طبيعى - يشتركون فى مناقشات ومجادلات كثيرة حول أغلب القضايا الاجتماعية والسياسة والاقتصادية التى تشغل الأذهان ولابد أن نسجل بعض القواعد الأساسية المتصلة باشتراك رجال الدين فى هذه المناقشات. لأنه بغير هذه القواعد يصبح من المستحيل على أى مخلوق أن يناقش أى رجل من رجال الدين .. ويصبح علينا جميعا بالتالى - كتابا وساسة ومفكرين - أن نختفى من الميدان .

ما هى هذه القواعد ؟

أولا - إن معارضة آراء بعض رجال الدين ليس معناها معارضة الدين ذاته. فهذا الكهنوت لا يعرفه الاسلام بالذات . وعصمة الدين نفسه لا تؤدى إلى عصمة كل أستاذ يقوم بتدريس الدين أو تلقى علوم الدين . أنه قد يكون له فضل التخصص فى مادته. ولكنه بعد ذلك بشر قد يخطىء فى فهم الدين وقد يصيب. وآراؤه وتفسيراته ليست منزلة.

ومعنى ذلك أن هذا السيف المصلت على الرقاب يجب أن يختفى ، وهو سيف الاتهام بالالحاد والمروق عن الدين. أو على الأقل لا يجب استخدامه بهذه الخفة وهذا التسرع.

ثانيا - ان مهاجمة واحد بالذات من رجال الدين - حين يستحق الهجوم - ليس معناها مهاجمة كل رجال الدين . فحين هاجم الشيخ أبو زهرة كاتب هذه السطور لم يقل أحد أن هذا هجوم على كل الكتاب والصحفيين فلماذا يقول البعض أن الهجوم على الشيخ أبو زهرة هو هجوم على كل رجال الدين ، فضلا عن القول بأنه هجوم على الدين فى ذاته ؟!

إن كل فرد يحمل مسئولية آرائه وتفسيراته وتأويلاته ، والمناقشة

المفيدة لا يمكن أن تستقيم مع هذه الطائفية التى لا أساس لها.

ورجال الدين أنفسهم يتناقشون ويختلفون فى آرائهم ومواقفهم اختلافا شديدا فى شتى العصور. وجمال الدين الافغانى ومحمد عبده اللذان ضرب بهما السيد صلاح دسوقى المثل على رجال الدين الذين كانوا من رواد الحرية.. كان بعض رجال الدين فى عصرهما يتهمونهما بالكفر والخروج على الدين !

ثالثا ـ إن الناس جميعا ـ كما قلت منذ قليل ـ لهم كرامة متساوية.. ولهم حق واحد فى ألا يتعرضوا للاهانة والتجنى فليس هناك طبقة أو فئة تعلو فى الكرامة على غيرها من الفئات. انما لكل فرد من الكرامة ما يتساوى مع عمله وجهده وخلقه وإخلاصه ومع كونه إنسانا شريفا.

وبعد ...

فأننى أضم صوتى مخلصا ، وفى غير تحفظ ، إلى صوت السيد صلاح دسوقى فى قوله أن الدين علاقة بين الانسان وربه.. وفى مطالبته بأن يعمل الجميع على أن يرتفع الدين فوق مستوى المناقشات والمعارك السياسية والاجتماعية.

باريس: ولكنك يا سيدتي فرنسية!

أخبار اليوم.. في:

١٧ / ٢ / ٦٢

ظهر في باريس — بين القنابل والمتفجرات - كتاب اسمه (جميلة بو باشا).

وعلى الكاب لوحة بريشة الرسام العالمي بيكاسو لفتاة الجزائر الشابة التي تعيش الآن في سجن قريب من باريس...

والكتاب بقلم سيدتين فرنسيتين.. الأولى هي المؤلفة العالمية سيمون دي بوفوار زوجة جان بول سارتر ورفيقته والثانية سيدة شابة، جيزيل حليمي، عرفتها في القاهرة منذ شهور، كمحامية فرنسية جاءت إلى القاهرة لأعمال قضائية وهي في نفس الوقت محامية جميلة بوباشا... والكتاب نفسه لم يصل إلى القاهرة بعد. ولكن الصحف الفرنسية المختلفة نشرت مقتطفات طويلة منه وتعليقات كثيرة عليه..

ولن أضيف إلى معلومات القارئ جديدا حيث أسرد له بعض ما جاء في الكتاب من قصص تعذيب الضباط الفرنسيين لجميلة بوباشا.. وقصص المحاكمة.. وانهيار القضاء والعدالة... ولكنني أسرد له لقطة خاطفة.. حين ذهبت سيمون دي بوفوار وجيزيل حليمي وسيدة فرنسية ثالثة، عرفتها أيضا

فى القـاهــرة، هى جرمين تيللون سيدة فى حوالى الخمسين لها عدة مؤلفات ممتازة عن الجزائر.. ذهبت السيدات الثـلاث إلى أحد كبار الدولـة فى فرنسا لمناقشته فى موضوع جميلة بـوباشا.. والتفت الفرنسى الكبير إلى سيمون دى بوفوار وقال لها:

— لقد رأيت الضباط الذين تهاجمينهم... لقـد كانوا متألمين جدا.. انهم جميعا مهـذبون جدا.. ومن عـائلات كبيرة! ودهشت سيمون دى بـوفوار من هذا المنطق. وقالت له: ان كونهم من عائلات كبيرة ومهذبين فى حياتهم العادية لا يمنع من أن يكونوا فى الحرب من مرتكبى جرائم التعذيب..

قال لها الرسمى الكبير:

— لقـد رأيت جميلة بـوباشـا «بتـاعتك» انها ليست ظريفـة أبدا! لقـد تحدثت معها.. وتحدثت مع أهلها أيضا.

ثم سكت لحظة وقال كأنه يلقى بالحجة الكامنة:

— انهم لا يحبون فرنسا!

وردت عليه سيمون دى بوفوار..

— بعد مـا رأوه من فرنسا.. وبعـد ما يصنعـه أبناء فرنسـا من ادخال الزجاجات الفارغة فى بطون البنات.. أيدهشك ألا يحبوا فرنسا؟

وهز الفرنسى الكبير رأسه من جديد فى عدم إهتمام وقال:

— إنها لا تستحق كل هذا الاهتمام.. هذه الفتاة!

وقـالت سيمون دى بـوفوار.. إن المهم هـو موضـوع التعذيب فى حـد ذاته.. فقال لها: وهنا كانت قد ثـارت أعصاب «جرمين تيللونو، فهبت واقفة لتنصرف صائحة فيه:

— كل بنت فينـا كـانت تحلم بأنها جـان دارك حين كـانت فى الثـانيـة والعشرين مثل جميلة!

ورد عليها الرجل الرد القاطع:

—ولكنك، يا سيدتى، فرنسية!!

وخرجت السيـدات الثلاث ـ كما تـروى المؤلفة ـ مسرعـات.. دون كلمة واحدة! لأنك فـرنسية.. فمن حقك أن تحلمى بأنـك جان دارك.. وأن تحلمى بحريـة بلدك.. أمـا جميلة.. فهى جـزائرية!.. ليست فرنسية، فكيف تحلم بأنها جان دارك؟.. وبأن بلادها ستتحرر؟!

هـذا الحديث أقـرب إلى أن يكـون «دردشة صيام»..

اخترت لـه أربع قصص عـاشهـا العـالم في أماكن مختلفـة : موسكـو وواشنطن وعمان وقـريـة «سـان هيبوليت» في فرنسا !

ومع ذلك فهى وثيقـة الصلـة بما يدور في عالمنا هذا من أحداث كبيرة !

القصة الأولى

القصة الأولى ــ السياسيـة ـ من قـريـة فرنسيـة صغيرة ، غـارقـة في حقــول العنب ، على سفح جبـال البيرينيه الجنـوبية .. قريـة لم تعرف السياسة قط ، لم تعرف سوى زراعة العنب وصنع النبيذ ، اسمها : سانت هيبوليت !

ولكن السياسة قلبت حيـاة القرية ، حين دخلتها في أعقـاب شـاب هـادىء ، وسيم ، رقيق ، جـاء إلى القرية ليعمل مدرسا في مـدرستها الابتدائية ، واسمه «سانشين».

ولم تمض أيام على اشتغال سانشين في المدرسة، حتى كـان قـد أصبح معبـود التـلاميـذ الصغـار ، وأصبح كل أهـالى القـريــة يتحـدثـون عن ذكـائه، ووداعته ، وحب أبنائهم وبناتهم له.

ثلاث قصص قصيرة

أخبار اليوم .. في :

٣ / ٣ / ٦٢

وفجأة ، عرف أن نقابة المعلمين قد فصلت سانشيز من عضويتها. وان بعض الشبان المشتغلين بالسياسة فى المنطقة يطالبون بطرده من المدرسة.

لماذا .. ؟

لقد كان سانشيز مجندا فى الجيش الفرنسى فى الجزائر، ثم جاء إلى القرية بعد أن قضى مدة الخدمة العسكرية فى ساحة القتال. وقد اتهم سانشيز فى حوادث تعذيب الجزائريين. واقترن اسمه هناك بحادثة معينة ، قام فيها بتعذيب فتاة جزائرية ، تعذيبا مروعا بالكهرباء وبغير الكهرباء ، حتى ماتت.

وقد اشتهر هذا الحادث حتى اضطرت السلطات الفرنسية إلى تقديم سانشيز إلى المحاكمة العسكرية. ولكن من هم القضاة ؟ انهم طبعا من الضباط الذين يأمرون بالتعذيب.. ومن القضاة الفرنسيين المتحيزين ضد الجزائر. أو الخائفين من غضب الجيش.. فحكم ببراءته.

وعندما أنهى سانشيز مدة الخدمة العسكرية ، وعاد إلى فرنسا ، واشتغل بالتدريس فى قرية (سانت هيبوليت) تحرك بعض اليساريين فى نقابة المعلمين وطالبوا بفصله.

قالوا : كيف نأتمن على أبنائنا وبناتنا هذا الرجل، الذى قام بتعذيب فتاة جزائرية شابة حتى الموت ..؟

إن التدريس ليس تلقين معلومات فحسب. التدريس تربية وتأثير. وهذا الرجل الذى سمحت له أخلاقياته ومبادئه ، أن يمارس أبشع ما يمكن أن يمارسه إنسان ، وهو التعذيب ، ولا يمكن أن يصلح مربيا ومعلما. ان القاتل يحرم من العمل. وسانشيز أكثر من قاتل. فالتعذيب يحتاج إلى نفس أكثر اجراما من نفس القاتل.

ولكن التلميذات والتلاميذ أضربوا عن الدراسة بمجرد فصل سانشيز. وامتلأت جدران القرية بعبارات مكتوبة بالطباشير تقول : (أعيدوا سانشيز..!) وكان هذا كله بتحريض من أمهات وآباء التلاميذ.

ما هى وجهة نظر أهالى القرية .. ؟

قال بعض الفلاحين والفلاحات : ان هذه سياسة . وامهم لا شأن لهم بالسياسة. كل ما يعرفونه هو أن سانشيز هو أحسن مدرس جاء إلى

القرية ، ولذلك يجب أن يبقى.

وقال آخرون : إن سانشيز كمجند عادى فى الحرب لم يكن يفعل سوى تنفيذ الأوامر.. وكل المجندين فى كل الحروب ينفذون الأوامر.. وإذا كان ثمة من يجب أن يعاقب، فهم الكبار من الساسة والقواد ، لا سانشيز وأمثاله !

وقال سانشيز نفسه :

— إن مهمتى فى هذه الحياة هى التدريس. ولكنهم جندونى وأرسلونى إلى هناك. وهكذا انتهى الأمر هناك لا أستطيع أن اختار لا أستطيع أن أرفض .. اننى مجرد مخلب قط.

— ولكنهم استطاعوا حمايتك وبرأوك فى المحكمة.

— لو كانت حمايتى تهمهم.. لما قدمت إلى المحاكمة فط.. ولكننى المسكين فى اللعبة كلها.

وكان معنى كلام سانشيز : ان الضابط المجرمين الحقيقيين ، يعرضون للمسئولية مجندين بسطاء من أمثاله يستترون خلفهم.. لو كانت حمايتى تهمهم.. لقاموا بحمايتى حقا.. كما يفعلون مع الآخرين .. !

وقال سانشيز أيضا : إن الحرب بالنسبة لى قد انتهت. ولا أريد أن أعود إليها قط.. ولا بالكلام عنها !

وقال آخرون : صحيح أن الجندى مضطر.. وانه لا يستطيع أن يعصى فى الحرب أمرا.. ولكن هناك خيطا رفيعا بين الحرب ذاتها وبين جرائم الحرب..خيط رفيع بين المحارب وبين مجرم الحرب.. مثل سانشيز !

وتعدت هذه المناقشة حدود قرية سانت هيبوليت التى لم تعرف السياسة قبل ذلك قط.. إلى سائر أنحاء فرنسا.. فى الصحف.. ومقاهى الشباب.. والندوات الأدبية .. ولم تحسم بعد.

تذكرت ـ وأنا أتابع هذه القصة ـ ما نشر فى بعض الصحف الأوربية من أن ديجول اشترط فى مباحثات الجزائر : ألا تقوم حكومة الجزائر المستقلة بإقامة محاكمات لمجرمى الحرب على طراز محاكمات نومبرج بعد انهيار النازية فى ألمانيا ، وإلا نطبع كتبا تسجل فيها فظائع الفرنسيين فى الحرب..!

ذلك أن فرنسا بدأت تعرف أن جرائمها فى الجزائر لم تعد جرائم فردية

تلوث أصحابها وحدهم.. بل أصبحت تلوث الأمة بأسرها.. وقد بدأت فرنسا تنظر فى اشفاق ، إلى احتمال أن يحمل أبناؤها عارا تاريخيا كعار النازية ومعسكرات التعذيب وغرف الغاز..

ولكنها .. كيف تفلت ..؟

القصة الثانية

القصة الثانية، قصة بوليسية، من واشنطون ، عن المخابرات الأمريكية.

لقد كانت الجاسوسية دائما حقيقة من حقائق الصراع الدولى منذ نشأت دول متصارعة على هذه الأرض. ولكن هذه الحقيقة قد انتشرت وتأكدت فى الزمن الحديث حتى لم يعد ممكنا أن تعيش دولة تحترم مسئوليتها نحو نفسها دون أن يكون لها جهاز يتجسس على خصومها ، وجهاز يقاوم جاسوسية خصومها عليها.

وقد كانت القاعدة دائما أن أى دولة لا يصح أن (تعرف) بأنها تتجسس. حتى إذا ضبط جواسيسها متلبسون معترفون ، فهى تقول ان هذا تلفيق وتزوير.. ولكن ايزنهاور فتح صفحة جديدة فى حياة الجاسوسية يوم قال عقب اسقاط طائرة التجسس الأمريكية الشهيرة فوق الاتحاد السوفيتى : نعم نحن نتجسس على الاتحاد السوفيتى وقد تم التجسس بناء على تعليمات منى .. وسوف نظل نتجسس..

ولا شك أنه من قبيل (الفتح الأمريكى الجديد) فى هذه الناحية أيضا ، أن يصدر كتاب يدافع عن كفاءة مخابرات أمريكا ، فينشر أخطر أسرار واعترافات يمكن أن تنشرها دولة عن نفسها.

* يقول مثلا : ان ما قاله دالاس من أنه لم يكن يعرف مقدما بالهجوم الانجليزى الفرنسى والاسرائيلى على مصر كان صحيحا من الناحية الرسمية فقط. أى بمعنى أن سفراء هذه الدول لم يخطروه بالهجوم رسميا قبل أن يبدأ.. ولكن دالاس كان يعرف تماما ما سيحدث عن طريق المخابرات. فقد أكدت له المخابرات مقدما أن إسرائيل لن تهاجم الأردن ولكنها ستهاجم مصر بالاشتراك مع فرنسا وانجلترا، وقبل الغزو بيوم واحد أنبأته المخابرات بأن الهجوم على وشك الوقوع. ولكن دالاس هو الذى فضل أن (تغمض أمريكا عينيها ولا ترى شيئا..!).

* ويروى الكتاب أيضا بصراحة ، كيف استطاعت المخابرات الأمريكية أن تسقط مصدق وتعيد الشاه إلى عرشه فى إيران.

فقد رفض أيزنهاور فى ذلك الوقت أن يقدم إلى مصدق المساعدة التى طلبها. وتقرر اسقاط مصدق لمنع نفوذ الاتحاد السوفيتى من التسلل إلى المنطقة.

وفى يوم ١٠ أغسطس طار «آلن دالاس» مدير المخابرات الأمريكية إلى سويسرا فى رحلة بريئة مع زوجته على جبال الالب. وفى نفس الوقت شعر لوى هندرسون سفير أمريكا فى طهران، برغم خطورة الموقف هناك. بحاجة إلى اجازة للراحة فى سويسرا، وفوق نفس جبال الالب. ولاشك أن المخابرات السوفيتية قد لاحظت فى ذلك الوقت أن الأميرة أشرق شقيقة الشاه، أيضا قد طارت فجأة إلى نفس المصيف على جبال الالب.. أما الرابع الذى وصل إلى نفس المصيف فهو رجل اسمه «نورمان شوارتزكوف» ضابط البوليس الأمريكى القديم ، والرجل الذى نظم وقاد بوليس شاه إيران من سنة ١٩٤٢ إلى سنة ١٩٤٨ عاش خلالها فى طهران، ممسكا فى الخفاء بكل أجهزة الأمن هناك.

وطار شوارتزكوف بعد لقائه بالثلاثة الآخرين إلى طهران. وهناك عثر على زميله القديم الجنرال زاهدى، واتصل بالشاه فى الخفاء ، وبعدها وجد الشاه الشجاعة الكافية لكى يعلن إقالة مصدق وتعيين زاهدى رئيسا للوزارة.

وعندما قاوم مصدق وثار الشعب مؤيدا له ، اضطر شواتزكوف أن ينفق عشرة ملايين دولار من أموال المخابرات لكى (يذيب) بعض مؤيدى مصدق، ثم لكى يحرك مظاهرات غريبة تهتف بحياة الشاه وبسقوط مصدق. وفى وسط الفوضى ذهب جنود إلى مصدق الراقد بالبيجاما فى فراشه واعتقلوه. ثم اتصل بعضهم بالشاه وزوجته فى روما ليعودوا إلى طهران. فالايرانيون (لم يسقطوا مصدق بأنفسهم، ولكنها كانت عملية أمريكية من الألف إلى الياء، عملية رأت أمريكا أنه من الضرورى تنفيذها لحماية العالم الحر..!).

* ومن أعجب القصص ، قصة الشماعة.

ففى مطار فيينا ، كان يوجد بين الموظفين من يعمل لحساب المخابرات الأمريكية. وكان هذا الموظف مختصا فى استلام كل (صناديق الزبالة) ، والمخلفات التى تتخلص منها الطائرات السوفيتية التى تهبط فى المطار.. وفى أحد صناديق الزبالة وجد يوما (شماعة) ثياب ، من التى تستعمل فى الطائرات ، طار بها فرحا ، وأرسلها على الفور إلى مقر المخابرات الأمريكية فى واشنطون.

كانت المخابرات الأمريكية تبحث وراء طائرة حديثة ، قاذفة قنابل بعيدة المدى ، انتجها السوفييت. وقد عرفت المخابرات بعض المعلومات عنها ولكنها لم تتمكن من أن تعرف شيئا عن حمولتها من القنابل أو مداها فى الطيران. ولكنهم عرفوا أن (الخردة) المختلفة من صنع أجنحة الطائرة ، تستخدم فى صنع شماعات الملابس فى الطائرات.

وبتحليل هذه الشماعة كيميائيا، أمكن معرفة نوع المعدن المصنوعة منه أجنحة الطائرة السرية ، وبالتالى أمكن تحديد حمولتها ومدى طيرانها.

* على أن أعجب تلك القصص جميعا ، هى قصة ذلك النفق الذى حفرته المخابرات الأمريكية تحت الأرض ، من برلين الغربية إلى برلين الشرقية. وهناك ، فى نقطة معينة تحت برلين الشرقية ، أقيمت محطة كاملة تم توصيلها بخطوط التليفون التى تصل بين برلين الشرقية وبين موسكو ، وبذلك أمكن التقاط وتسجيل كل الاتصالات التليفونية السرية بين برلين وموسكو خلال فترة طويلة من الزمن.

وعندما تم اكتشاف هذا النفق بالمصادفة وبدأ الشيوعيون يحفرون الأرض ليصلوا إلى المحطة الكامنة تحت أقدامهم ، دقت أجراس التحذير المركبة فى النفق ، وأسرع الرجال الذين يعملون بالفرار إلى خارج النفق ولكنهم تركوا الأجهزة والآلات.. وقد دهش السوفييت من دقة المحطة إلى درجة تزويدها بأجهزة تكييف الهواء وحولوها إلى منطقة يزورها السياح.

الكتاب الذى روى هذه الحقائق بالتفصيل عنوانه (القصة الداخلية لإدارة المخابرات المركزية) ومؤلفه اسمه اندرو تالى..والكتاب لم يصل إلى مصر بعد.. ولكن الصحف الخارجية نشرت منه هذه المقتطفات التى كانت أهم قصة بوليسية قرأها العالم فى السنوات العشر الماضية على الأقل ..!

القصـــة الثالثـــة

القصـــة العاطفيـــة ، من روسيـــا ، أو بالـــذات من «ســـوتشى» ، المضيف الروسى البديع ، الـــواقع على شاطىء البحر الاسود الذى تعـــود خروشوف أن يقضى اجازته فيه.

فقد وقعت «فيرا» الفتاة ذات الستة عشر ربيعا ، فى حب «أناتولى» الشاب الذى درس الموسيقى !..

قصة تحدث فى حدائق سوتشى وعلى شواطئها ألف مرة كل يوم.. ولكن الفتاة أبوها يعمل قائدا لبوليس المدينة !

وأترك مـــراسل الجريدة الأدبية الـــروسية فى المدينة يروى القصـــة. انه يصف الفتاة بأنها جميلة ، جـــذابة ، مرحة ، مـــازالت تلبس الجوارب الملونة الطويلـــة. وقد بـــدأت المتاعب الحقيقية تـــواجهها حين اعتـــدى بعض الناس بالضرب على أناتولى وهو واقف يحدثها فى أحد شوارع البلدة.

«كانا واقفين يتحدثان ، حين اقترب أحد الأغراب وأخذ يهين الفتاة ، فلما تعرض له أناتولى ، تلقى لكمة قاسية على فكه. وتدفق الدم من وجه أناتولى، وقبل أن يرد الضربـــة للرجل المجهـــول. كان أربعـــة من رجال البـــوليس قد أحاطوا به ، واقتـــاده إلى قسم البوليس. وفى قسم البوليس إنهال عليه بعض رجال البوليس ضربا، ثم تركـــوه.. بينما انصرف الرجل الآخر الذى اعترضه فى الطريق وبدأه بالضرب ، دون أن يتعرض له أحد.

«وبعد خمسة عشر يومـــا فوجىء أناتولى بالبوليس يقـــدمه إلى المحاكمة بتهمة أنه قـــاوم رجال البوليس وحاول الاعتداء عليهم. وبـــاسم هذه التهمة وضـــع أناتولى فى السجن ثلاثة شهور ينتظر المحاكمة.

كان واضحا أن مـــدير البوليس يريد أن يدين الشـــاب الذى يحب ابنته. وتقدمت امـــرأة للشهادة فى المحاكمـــة وقالت انها كـــانت مارة وقت الحادث وأن رجـــلا مجهولا هـــاجم أناتـــولى وضربـــه وأنها هى شـــخصيا حـــاولت أن تتدخل ولكنهـــا عجزت. على أن أهم مـــاحدث فى المحاكمـــة أن فيرا استدعيت للشهـــادة وإذا بها تدلى بشهـــادة باسلـــة تـــدافع فيها عن أنـــاتولى، وتـــروى التفاصيل الكاملة للحادث فاضطرت المحكمة إلى تأجيل نظر القضية لاجراء التحقيق من جديد.

وثـار مـدير البـوليس على ابنتـه ثـورة عـارمة بسبب شهـادتها أمـام المحكمة. فقد هدمت التهمة التى يريـد أن يلفقها لصديقها. وقرر أن يمنعها بأى وسيلة من حضور الجلسات المقبلة للمحاكمة.

وضرب مدير البوليس ابنتـه ضربا مبرحا أياما طويلـة متوالية. ولكنه فى النهاية أرسلها إلى مصحة الأمراض العصبيـة فى البلدة بالاكراه، بحجة أنها مريضة بمرض عصبى، حتى لاتستطيع الادلاء بأى شهادة جديدة.

وفى هذه الاثناء كـانت قصة فيرا قد انتشرت فى المدينة. وثـار كل الشبان والشابـات فى مجتمع المدينة الصغير. وتجمعوا فى حلقـات كثيرة وذهبوا إلى سلطات المدينة المحلية وطالبوا بأن يذهب المدعى العام إلى المستشفى ليرى فيرا ويحقق الموضوع.

وبعد أن زارها المدعى العام ، أمـر بتوقيع الكشف الطبى عليها. وسجل التقرير الطبى أن فيرا قد تعرضت للضرب المبرح أكثر من مرة.

ولكن مديـر البوليس لم تنفد حيله .. فقـد ظهر على المسرح فجأة طبيب نفسـانى قال ان الفتاة مصابة بالشيزوفرانيا ونقلها إلى عيادته لتكون تحت اشرافـه. ومن مستشفى الطبيب النفسى كتبت فيرا إلى صـديقهـا أنـاتـولى تقـول «عزيـزى أنـاتـولى». ها أنت تـرى أن مـاتوقعتـه قـد تحقق. وانهم استطـاعـوا أن ينفـذوا إرادتهم. ان أبى يملك سلطـات واسعـة يستطيع أن يصنع بها مايشاء . ولكننى مازلت أؤمن أن العدالـة فى هذه الدنيا لم تندثر. واننا لابد أن ننتصر فى نهاية الأمر».

«وخرجت فيرا من المصحـة بعد أسبـوعين .. ورغم كل محاولات أبيها ، فقد استطـاعت أن تذهب إلى المحكمـة وتشهد فى القضية مـرة أخرى. ومع ذلك فقد أصدرت المحكمة حكمها على أناتولى بأن يقضى سنة كاملة فى أحد معسكرات العمل البعيدة. ولكن أحـد أعضاء المحكمة لم يعجبه الحكم. ولم تعجبـه الطريقـة التى عـرضت بها أقـوال الشهود، فكتـب إلى خروشـوف مباشرة».

ويستطرد مـراسل الجريدة الأدبية قـائلا : إن خروشوف، شعـر انه فى هذه الفترة بالذات، وبعد كل ما تعرض له الشعب خلال الفترة التى انعدمت فيها الشرعية القـانونية والتى هاجمهـا الحزب ، لا يمكن أن يسمح لمثل هذا

الظلم أن يحدث من جديد. وهكذا أحيلت الشكوى من موسكو إلى المحكمة العليا الاقليمية فى كراستودار.

«ولكن هناك أيضا، كان لمدير بوليس سوتشى أصدقاء. وقال أحد كبار موظفى القسم الجنائى فى كراستودار للمراسل : انه لا ينصح له بأن يدافع عن أناتولى ، وفهم منه أنه صديق شخصى لمدير البوليس..

وختمت الجريدة رسالتها قائلة : إن فيرا مازالت فى بيت أبيها ، تعيش فى جحيم من الاضطهاد ، وتنتظر ساعة الخلاص!».

طوبى للخائفين رواية «خطيرة» جديدة تؤلفها بنت موشى ديان

أخبار اليوم .. في :

١٤ / ٤ / ٦٢

هذه رواية «خطيرة» ألفتها فتاة فى الثالثة والعشرين من عمرها . الفتاة إسرائيلية صهيونية ، اسمها «يائيل دايان» بنت موشى دايان القائد العسكرى الصهيونى المعروف ، والارهابى العريق ، وأقرب المقربين إلى بن جوريون ، ووزير الزراعة فى وزارته والمرشح الأول لأن يكون خليفته.

وقد ألفت «يائيل دايان» وهى فى التاسعة عشرة من العمر رواية اسمها «وجه جديد فى المرآة» ، كانت محل تعليقات شتى ، ولكنها لم تستوقفنى كثيرا..

أما هذه الرواية فقد استوقفتنى بشدة لا لأنها رواية مكتوبة باتقان فنى كبير فحسب ، ولكن لأنها أشبه أن تكون تحقيقا نفسيا عن مجتمع إسرائيل ودولة إسرائيل .. وهو الشىء الذى يجب أن نتابعه باستمرار.

وقد كنت جالسا فى شرفة فندق «سان جورج» فى بيروت حين دخل الشرفة صحفى هندى تعرفت به فى القاهرة منذ سنوات.. حاملا حقائبه ، أتى من سفر.

وسألته : من أين أنت قادم ؟

فقال لى : من إسرائيل !

وقبل أن تقفز الدهشة إلى وجهى قال : ليس مباشرة ! فأنا قادم الآن من قبرص . لكننى قبل قبرص كنت فى تل أبيب.

ورأى اننى سوف أنهال عليه بالأسئلة فبادرنى مرة أخرى يقول :

— سنتحدث فيما بعد . فأن على أن أنجز هنا أشياء كثيرة قبل أن أسافر غدا إلى دمشق . ولكنى سأترك لك هذه الرواية التى صدرت منذ أسابيع.. اقرأها.. وسوف تجد فيها الرد على كثير من الأسئلة .. وليكن حديثنا بعد أن تفرغ من قراءتها.

وقال لى وهو يحمل حقائبه من جديد :

إن كل بلد فيه الآن أكثر من بنت تحاول أن تكون «فرانسواز ساجان».. وهذه هى «فرانسواز ساجان إسرائيل»...

وترك لى الصحفى الهندى رواية اسمها «طوبى للخائفين».

القصة تبدأ فى قرية صهيونية قرب الحدود السورية اسمها «بيت عون».. وفلسطين مازالت فلسطين .. أى قبل إنشاء دولة إسرائيل بقليل.

ومحور القصة فى صفحاتها الأولى صبى صغير اسمه «نيمرود» أبواه «ايفرى» و«مريام» مهاجران جاءا من روسيا قبل سنوات. الصراع فى هذه الصفحات الأولى يدور حول تربية الصبى الصغير والعوامل التى تتنازعه. وهى فى نفس الوقت العوامل التى تتنازع المجتمع اليهودى فى تلك القرية.

إن الأولاد الصغار فى القرية يهربون من أهليهم إلى منطقة غير مطروقة. بالقرب من المقابر ، يلعبون فيها لعبتهم المفضلة وهى «من هو القوى؟». وفيها يحاول كل صبى أن يثبت أنه أقوى من الآخر بأى طريقة يختارها .. بأن يتسلق مثلا شجرة أعلى من الشجرة التى يتسلقها سواه أو بأن يسبح عبر نهر الأردن فى الماء البارد مدة أطول من سواه.. أو أن يضع يده على النار المشتعلة ويتحمل لسعها أكثر من سواه.

وفى القرية رجل اسمه «جيديون» يسميه أهل القرية «الصخرة».. فهو نموذج القوة العضلية.. والشجاعة البدنية .. والاستهانة بالخطر.. وهو كما

يتهامس أهل القرية مشترك فى إحدى العصابات الصهيونية السرية..

ويشترك فى أعمال إرهابية مجهولة.. ويعود إلى القرية سالما متكبرا.

إن كل أب فى القرية يريد أن يشب ابنه مثل «جيديون» هذا. وأن يحمل بدوره يوما لقب «الصخرة».. هذا مايريده أيضا «إيفرى» لابنه الصبى «نيمورد» رغم معارضة أمه المسالمة التى لاتبرح المطبخ «ميريام».

ولكن الصبى تربطة علاقة روحية باسكاف عجوز فى القرية اسمه «لاميش» فهو يذهب إلى دكانه حيث يتفرج عليه وهو يصنع الأحذية ويستمع منه إلى قصص وحكايات عجيبة.

إن الأب لا يحب تأثير لاميش على ابنه .. ان لاميش يحدثه أحاديث يهودية قديمة عن الله. والدين . والكتاب المقدس .. إلى أن كان يوم ، رأى فيه جيديون «الصخرة» الصبى نيمرود يدخل مع العجوز لاميش إلى المعبد اليهودى.. أو الكنيسة اليهودية .. ودهش جيديون وغضب. ورأى فى هذا افساد للطفل، فأسرع ونقل الخبر إلى أبيه.

وعندما عاد الصبى من المعبد الذى لايذهب إليه إلا القليلون ثار أبوه فى وجهه بحديث له مغزى عميق :

— أيام زمان ، حين كنا يهودا فى روسيا وغيرها ، كان من الضرورى بالنسبة لنا أن نطيع التعليمات.. ونحافظ على ديننا. أما الآن فقد أصبح لدينا شيء أهم! الأرض! انت الآن إسرائيلى، ولست مجرد يهودى! أتعرف ماذا كان اسمى الحقيقى فى روسيا ؟.

كان اسمى «موتل». هل تتصور ذلك ؟! نعم كان اسمى «موتل» ولكننى غيرته حين جئت إلى هنا وسميت نفسى «ايفرى» . لقد تركت هناك ملابسى ومتاعى وأقاربى.. وعثرت هنا على رب جديد. هذا الرب الجديد هو خصب الأرض وزهر البرتقال. ألا تحس ذلك ؟

وأخذ ايفرى حفنة من تراب الأرض وسكبها فى كف الصبى وقال له : أمسك هذا التراب .. اقبض عليه .. تحسسه .. تذوقه .. هذا هو ربك الوحيد.. إذا أردت أن تصلى للسماء فلا تصلى لها لكى تسكب الفضيلة فى أرواحنا.. ولكن قل لها أن تنزل المطر على ارضنا. هذا هو المهم ! إياك أن تذهب مرة

أخرى إلى المعبد.. إذا أردت أن تسلى نفسك وتتعلم شيئا فأذهب وتعلم حليب البقر !

وتحاول الأم أن تخفف من غلواء الأب، تحاول أن تقول له أن الماضى لا يمكن أن يمحى بأكمله حتى بعد الهجرة. ولكن الأب لا يقبل هذا الكلام. ويستطرد قائلا لها ولابنه : هناك.. كنت أخاف من القسيس.. من أبى وأمى.. من عسكرى البوليس .. من الطبيعة.. ومن نفسى.. هناك لم يكن من حق الطفل اليهودى أن يكون قويا أو يتسلق شجرة.. كان عليه فقط أن يبقى فى دكان أبيه لا يبرحه.

ولكن الصبى نيمرود يحتفظ بعلاقته «السرية» مع الاسكاف العجوز لاميش الذى يحدثه عن الله.. وعن عواطف الحب والشفقة.. وعن ذكريات أيام قديمة فى قرية روسية بعيدة..

حتى يجىء يوم يحتفل فيه أهل نيمرود بعيد ميلاد ابنهم.. ويدعون له كل الأولاد والبنات.

وفى غمرة الضجة والصخب أثناء حفلة عيد الميلاد يظهر الاسكاف العجوز لاميش.. لقد جاء يحمل لفافة فى يده قال انها هدية أحضرها لنيمرود فى عيد ميلاده. ويفرح نيمرود بحضور لاميش بينما يستقبله أبوه فى فتور مهذب ويدعوه لتناول الشاى. ثم يفتح نيمرود الهدية : إنها أرنب من الجلد.. صنعه لاميش من بقايا الجلد التى تملأ دكانه.. وقد ركب للأرنب زرارين صغيرين فى مكان العينين. وتصايح الأطفال وضحكوا من نيمرود وبدأوا يقولون أن نيمرود نفسه أرنب لأنه لا يشترك فى لعبة «من هو القوى». وانفجر سخط ايفرى فأخذه لاميش إلى حجرة بعيدة عن الأولاد وانفجر فيه مهددا متوعدا إذا ظل يتصل بابنه ويثبت فيه المشاعر التى يبثها فيه.

قال له :

— انك لم تتغير عما كنت عليه فى قريتنا الروسية منذ سنوات بعيدة.. الهجرة لم تغير فيك أى شىء.. فأنت لا تهتم بالأرض .. وجلدك مازال أصفر اللون ! لم يكتسب أى سمرة بعد.. انك .. يهودى جدا !

ويرتجف الاسكاف العجوز بالغضب والأسى ، ويقول له :

— كيف تجرؤ ياايفرى على أن توجه لى هذا الكلام؟.. بل كيف تجرؤ يا «موتل» يا ابن القسيس «نمخاس»؟ أن تغيير اسمك لا يغير حقيقتك ! انك فى قرارة نفسك خائف.. خائف مثل موتل ابن القسيس نمخاس تماما ! ان الله رزقك ابنا بديعا ، ولكن ماذا أنت صانع به ؟.

— ليس هذا شأنك. انك تريد أن تراه يشب مثل أى يهودى آخر فى قرية أوربية . ولكن ابنى لن يكون هكذا. انه سيكون نوعا جديدا.

— الانسان ليس له نوع جديد وابنك كائن إنسانى حساس. خذ أى قطعة من الجلد الطرى.. انك تستطيع أن تظل تطرقها وتدبغها حتى تصبح فى صلابة الحديد.. ولكن .. آه.. ان أى شىء فى هذه الحالة يمكن أن يكسرها .. انك تخسر الجلد.. ولا تحصل على الحديد !

— اننى أريد أن يكون نيمرود شجاعا ـ الشجاعة صفة حميدة .. أما عدم الخوف فهو صفة بشعة ذميمة.. انك تمارس تأثيرك عليه ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم.. تريد أن تقتلع منه كل خوف.. ولكن يبقى له خوف رهيب ـ خوفه من أن يخاف ! هذا مايسيطر عليه الآن . انه لن يكون شجاعا إذا مضيت فى تربيته على هذا النحو. ولكنه سيشب عاجزا عن أن يخاف، وسوف يكرهك لهذا السبب يوما ما !

من لا يخاف لا يحب !

— وما العيب فى ألا يخاف ؟

— من لا يخاف لا يستطيع أن يحب . والله يريد منا أن نحب . ابنك سيتمنى أن يحب. ولكن عدم الخوف سوف يجعله وحيدا.. معزولا.. عزلة قاتلة .. انك تريد أن تتخلص من ذاتك القديمة.. ولكنك لست واثقا من ذاتك الجديدة .. ولهذا تحاول أن تصب ابنك فى هذا القالب الذى تتخيله أنت.

وحين ينصرف لاميش والضيوف، يترقب الصبى المهموم الهدية التى أعدها له أبوه.. وفض الأب لفافته بعناية وحرص كبيرين ، فبدأ فصل لامع حاد ـ خنجر مرهف !

وقال ايفرى : هيه .. ما رأيك ؟ خنجر حقيقى ! تستطيع أن تقطع به أى شىء !

وقال الصبى لنفسه انه لا يعرف ما إذا كان يريد أن يقطع أى شىء على الاطلاق .. لقد رأى مثل هذا الخنجر مع الأولاد الذين من سنه. إن هذا الخنجر حلم كل صبى فى القرية. أما هو ..

وقال الأب ساخرا : نعم .. تستطيع أن تقطع به أى شىء.. حتى ذيل الأرنب الجلدى.

وسأل الصبى وكأنه قد تذكر فجأة :

— أين أرنبى ؟

— فى حجرتك .. على الرف .. انك طبعا لاتريد أن تلعب بمثل هذه اللعب التافهة.

ودخل الصبى حجرته الصغيرة لينام .. حاول أن يضع الأرنب معه فى الفراش ولكنه كان ضيقا، فوضعه على مقعد مواجه له.. ووضع بجواره السكين.

إن غرفته مليئة بألعاب اشتراها له أبوه.. مدافع ودبابات وبنادق.. ثم تذكر البندقية الحقيقية التى يحتفظ بها أبوه.. وكيف أن أباه يعلمه كل يوم جمعة كيف يستعملها وينظفها.. وتذكر كيف أن أمه لا تستطيع الآن أن تضىء الشموع كل يوم جمعة. لقد قال لها أبوه انه لم تعد هناك حاجة إلى مثل هذا. إن الرب القديم لم يعد موجودا .. وتتردد عيناه بين الأرنب الجلدى بعينيه المصنوعتين من الأزرار وبين السكين المرهف .. حتى ينام.

الجسد والقلب

وفى لمحات سريعة تجتاز المؤلفة فترة الحرب العالمية الثانية ، واشتراك العصابات الصهيونية إلى جانب انجلترا، ثم مابعد الحرب ، ثم حرب فلسطين ، وأخيرا إعلان دولة إسرائيل.

كيف نجد الصبى الصغير «نيمرود» وقرية«بيت عون» بعد هذه الخطوب ؟

لقد مات العجوز «لاميش». مات حزينا لأنه رأى تعاليمه تذبل ، ورأى المجتمع من حوله يتجه إلى عبادة القوة وعدم الايمان بالله ، وعدم الاعتراف بالحب والخوف.

أما «جيديـو ن» أو «الصـخرة» كما كان يسميه أهل القريـة ، ورمز القوة والإلحاد والثأر من كل الحياة القـديمة التى قاسـاها اليهود ، فقـد عاد من إحدى «مهماتــه السرية» حطاما. انفجـر فيه لغم فمزق له ذراعيـه وإحدى ساقيه. عاد جسدا مشوها عاجزا عن الحركة.

وقد حاولـوا أول الأمر أن يمنعوا نيمرود من زيارته. ولكنــه تسلل يوما إليه. وقد دهش حين دخل البيت فوجد «الصـخـرة» يبكى. لقد كان جيديو ن يمثل كل مـــا هـــو نقيض لاميش. ولكن مـــا أشبههما الآن : «لاميش ميت ومدفـو ن تحت قطعة من الحجر، وجيـديو ن ميت حى، مربوط إلى سريره، عاجز عن عمل أى شىء.. لا يستطيع أن يسير .. لا يستطيع أن يضم امرأة.

— ولكنك تستطيع أن تقرأ .. وتستطيع أن تفكر.. وتستطيع أن تتكلم.

— كلا. ان الصـخـرة لا عقل لها. اننى لم أكن أخاف حين كـان لى جسد قوى يستطيع أن يمارس أى شىء، وعضلات أستطيع أن آمـرها ، وأطراف تطيعنى. أما الآن، وقد فقدت كل هذا». فماذا بقى لى ..

ودهش نيمرود أكثر حين قـال له جيديو ن : انــه الآن يحسد لاميش بعد أن كان يكرهه ويحتقره !!

— أتذكر يوم غضبت منك حين أخـذك إلى المعبد ؟ لقد كنت غيورا . ذلك اننى لم أذهب إلى المعبد قط. وطـا لما اجتاحتنى رغبـة خفية كى أصلى. ولكن المجتمع هنـا لم يكن يقبل من «الصخرة» أن يصلى ، أو يكـون له رب. كـان على «الصخرة» أن يكـون رمز النموذج الجديد ، القـوى الذى لا يخاف، ولا يحتاج إلى اله !

على أنه من خـلال هذا كله لم يكـن هناك مفر من أن ينمـو «نيمرود» فى القـالب الذى «يـريده لـه الجو السائد فى «بيت عـون»»، وأن تهمل أحلامـه الأرنب الجلدى وتتعلق بالسكين ذى النصل المرهف الحاد !

«أصبحت الحياة بالنسبة لنيمرود حياة جسـد. ومادة . أفراحه جسدية وآمالـه جسدية. هـدفه هو الاثبـات المستمر لقـوته الجسديـة. أما الجانب الآخر من نيمرود فقـد اختفى تماما.. فى حالات قليلة كـان يبدو هذا الجانب الآخر كأنــه طيف شاحب بعيد ، فيقوم نيمـرود برحلة على قدميـه فى أنحاء

البلاد ، وقد يقوى على أن يحب منظرا جميلا من مناظر الطبيعية ، بل وتصل به الحساسية أحيانا إلى درجة أن يقطف بعض الأزهار ، وينسى للحظة أنه يجب أن يكون قويا فحسب.. ولكن تلك كانت حالات عابرة سرعان ما تختفي، وبينما كان جيديون الصخرة يتضاءل فى فراشه إلى «صخرة صغيرة» ثم إلى «لاميش جديد» كان نيمرود يتحول إلى «صخرة» . كل ما فى الأمر انه لم يثبت صفاته تلك فى الحرب إذ انه كان صغيرا جدا حين قامت الحرب وانتهت. ولكن لا بأس ، فأن أباه يؤكد له دائما أنه لا مفر من الحرب يوما ، لا مفر من الحرب !

المهاجرة الشقراء

ويطرق باب نيمرود شيء جديد.. قصة حب.

فقد نزل فى قرية «بيت عون» مجموعة من البنات المهاجرات القادمات من بودابست فى المجر. ومن بين المجموعة التقت عينا الفتاة الشقراء «ايللى» بعينى الشاب القوى «الصخرة» نيمرود.

هل يتزوج نيمرود من فتاة المهجر مختلفة عنه فى عاداتها وتقاليدها وأفكارها ؟ سؤال تثيره الأم ، ثم تزيحه جانبا .. ولا تعترض.

ولكن السؤال الأساسى يبقى بين نيمرود والفتاة. انه يحبها. يحبها نوعا خاصا من الحب وكأنها مجرد امتداد لجسده أو لقدراته الجسدية المادية البحتة. والفتاة تلاحظ هذا وتتحمله ، وترجعه أول الأمر إلى أنه يمارس تجربته الأولى مع النساء.ولكنها تكتشف فى القرية أشياء غريبة .. تكتشف ذات ليلة اللعبة التى يمارسها الأولاد الصغار «من هو القوى» وتصرخ حين ترى صبيا يضع يده فى النار لكى يثبت أنه قوى. وتعود إليها كل بشاعات الحرب فى أوربا. وتجرى باكية إلى جيديون ، الصخرة سابقا ، الراقد فى فراشه أبدا ، يقول شعرا حزينا يائسا !..

إنها لا تتحمل هذا الذى رأته . لأن معناه أنها لو تزوجت فسوف يشب أولادها على نفس التعاليم.

ويقول لها جيديون «تسألينى عن تفسير لهذا ؟ انظرى إلى جيدا! أنا التفسير ! أنا الاجابة على سؤالك ! سخافة شجاعة زائفة! ثم أشار إلى ساقيه المقطوعتين وقال :

« لا عقل ! لا حكمة ! نتائج عظيمة وخطر عظيم !».

وقال فيما قال انه يصاب بغثيان من «نموذج الانسان الجديد» الذى يصنعونه فى البلاد.. وقال لها إن نيمرود يريد أن يكون صخرة والصخرة لا يمكن أن تتحول إلى نبات حى قادر على التنفس.. «وكان جيديون يلهث» وقلبه يدق فى صوت أشبه بدقات عصا فى يد رجل أعمى، يسير متعثرا، مترددا، فى ظلام مطبق بدون هدف !».

وفى تلك المرحلة تعبر القصة شخصيات أخرى ثانوية وصور جانبية ولكنها ذات دلالة. فهناك اليهودى اليمنى «زكى» الذى ترسم القصة فيه نموذجا لعلاقة اليهود الشرقيين باليهود الأوربيين داخل إسرائيل . فهم تابعون ضعفاء ، يعترفون ـ كما تقول المؤلفة عن زكى ـ بضعفهم وعجزهم وحاجتهم إلى قيادة وحماية اليهودى الأوربى.. وهناك «رينا» بنت المزرعة التى يمكن أن تعد صورة من «النموذج الجديد» الذى تحاول إسرائيل أن تصنعه فى عالم المرأة. وهناك «يوراو» الشاب ابن المدينة ـ تل أبيب ـ الذى جاء مع فرق التدريب العسكرى إلى القرية. وهناك الحديث المتواصل عن حوادث الحدود. والمؤلفة تزعم بالطبع ، بشكل غير مباشر ، أن العرب دائما هم المعتدون ، وأن اليهود يتحدثون دائما عن «الرد» مقابلة العدوان بالعدوان، تلقين العدو درسا. يقولون هذا كله فى لهجة أقرب إلى الغيظ منها إلى الحقد ، وأقرب إلى التعب منها إلى التحفز!».

الشباب فى تل بيب

ويذهب نيمرود وايلى وبعض الأصحاب يوما إلى المدينة ، إلى تل أبيب. وهنا ترسم المؤلفة صورة غريبة للتناقض بين المزارع وبين المدن فى إسرائيل. فهى تقول ان أبناء «بيت عون» شعروا كأنهم سافروا إلى دولة أخرى ، وعندما جلس نيمرود ، ابن المزرعة ، فى المقهى واستمع إلى مناقشات الناس من حوله ، دهش وذعر . انهم يقولون عن اصطدامات الحدود انها وحشية وبشعة بدلا من أن يمجدوها ويتحدثون عن السلم ، بل ويقترحون إيقاف الهجرة إلى إسرائيل والموافقة على عودة بعض

اللاجئين العرب إلى ديارهم ! وعندما دخل نيمرود فى حديث مع بعض الناس سألوه من أين هو فقال «من بيت عون» فسألوه «أين تقع بالضبط؟» فجرح جرحا عميقا حين وجد أن الناس فى تل أبيب لم يسمعوا عن اسم بيت عون قط. ولكن الذى أثاره إلى أقصى حد هو أن «رينا» نموذج «الانسان الجديد» بين البنات. آثرت أن تترك القرية وخطيبها السابق لتتزوج شابا وسيما ناعما من تل أبيب !

وعندما عاد إلى بيت عون سأله أبوه «هل صحيح اننا سنقوم باجراء عسكرى بمناسبة تبادل إطلاق النار على حدود سوريا» فقال نيمرود مستهزئا « لا أظن .. فالناس فى تل أبيب يتحدثون عن السلام! كأننا نحن.. نريد الحرب!». وتستطرد المؤلفة قائلة «ولكنه كان يكذب. انه يريد الصدام والآن أكثر من أى وقت مضى. انه يريد أن يقفز إلى القتال أو فليعد إلى رحم أمه وكأنه لم يولد قط !

إن الصخرة تنمو فى باطنه حتى أوشكت أن تقتل أى شىء رقيق فيه. إن «الصبار» نبات ضخم وقوى وملىء بالعصير ولكنه ينكمش فى بعض المواسم ويفقد ما فيه من عصير ولا يبقى منه إلا الشوك الحاد. والشوك فى نيمرود بدأ يتجه إلى الداخل ويقتل فيه أى شىء يمكن أن يكون عذبا. ولهذا فعندما نظر الى الأرنب الجلدى فجأة سخر من نفسه وقرر أن يهديه إلى «ايلى».. ليتخلص منه.

وقد قرر نيمرود أن يحل مشكلة قلقه وأزمته النفسية منذ عاد من تل أبيب بمشروع غريب .. فهناك وراء حدود إسرائيل، فى أرض البلاد العربية ، يشرف جبل شامخ اسمه «جبل الثلج» حيث تلتقى حدود إسرائيل وسوريا ولبنان.

وتسجل المؤلفة ماتسميه «يوميات نيمرود» فى رحلته الغريبة. ارتدى ثيابا عربية للتنكر وأخفى خنجره بين طيات ثيابه وعبر الحدود ليلا ، صاعدا إلى الجبل.

رحلة غريبة مملوءة بالرمز ، جياشة بالكلمات والعبارات التى تحمل أكثر من معناها المباشر. ان فيها حلم الاسرائيلى بالتوسع خارج حدوده

الحالية وأن هذه الجبال عبر الحدود هى ملـك له. وفيها احساس الاسرائيلى بالغرور العميق منذ أقام دولتـه «اننى لا أطلب معركة ، ولكننى أطلب شيئا اتحداه وأتغلب عليه. وداعـا يا بيت عون. ابنك خـارج لكى يغتصب الجبال العذراء!» ثم يتحدث عن شعوره المعقـد نحو العربى «اننى لست مسالما ولا باحثا عن التهـدئة. ولكننى أيضا لا أهتم بالحرب . لا أستطيع أن أقتنع بأن هؤلاء الناس أعدائى. ربما لأنهم قريبـون جدا ، يمكن لمسهم بأصابع اليد ، لـو أننى أستطيع أن أتجنب رؤية (العـربى) وأتصوره نـوعا من الـوحش ، فلربما استطعت أن أكرهـه وأن أقاتله وأحاربـه. ولكن هذه ليست الحقيقة . اننى أعبر حدوده لمجرد انه يملك شيئا جميلا أريد أن ألمسه!».

وحين يصعد الجبل يعاود تحديه :

«هأنـذا على قمة جبل الثلج أصبـح كما كنت أفعل وأنا صغير «من هـو القوى؟» ولكن أصداء صـوتى هذه المرة تتردد فى الأردن ، وعلى ضفاف نهر الليطانى ، وعلى الطريق الصاعد إلى دمشق ، وفى السما!».

هل أقتله أو يقتلنى ؟

ولا نرى «العـربى» فى الروايـة كلها إلا ونيمـرود عائد ، متلصص ، من رحلته الرمزية الغريبة إلى جبل الثلج فيلمح ظهر عربى عجوز يحمل بندقية ويكتب فى رمز آخـر «كنت أفكر فى بنـدقيته، ويـدى على خنجرى. هل يطلق على النار إذا رآنى»؟ أسهل شىء أن أهاجمه من الظهر وأطعنه وأجهز عليه ! ولكن هذه ليست لعبة عادلة . ولكنه ـ أيضا ـ إذا اكتشف وجودى فستكون هذه نهاية أشياء كثيرة. لو رآنى فأننى ضائع لا محالة.

ويتـزوج نيمـرود من ايللى . ويبنيـان بيتا جـديـدا فى المزرعـة. ويشن الاسرائيليون هجـوما ليليا على قـرية سـورية. وتبرر المؤلفة الهجـوم طبعا بتحرش السـوريين بحدود إسرائيل. ويشترك نيمرود أخيرا فى القتـال الذى كان يتحرق إليه. ويعود وفى ذراعه جـرح خفيف. وتقول له زوجته ايللى أنه يفضل أن يتخلل رصاص العدو شعر رأسه على أن تتخلله أصابع زوجته.

وايللى تعيش فى حياتها مـع نيمرود لكل الأسباب والصفـات التى سبق سردها. وهى حامل ولا تريد أن يشـب ابنها مثله. ولكن الحدث الذى جعلها

تنفجر وتثور وتهرب من البيت هو مرض أم نيمرود ثم وفاتها.. لقد ذعرت ايللى وهى ترى نيمرود يعبر هذه المرحلة بلا انفعال. لم يجد فى وفاة أمه أكثر من حادث بديهى وطبيعى لامفر منه ولا يحتاج إلى حزن ولا حتى إلى أن يذهب إلى فراش موتها ! وكأن هذه المرأة العجوز ليست أمه ولا تمت إليه بأى شىء !

وهربت ايللى إلى بيت صاحبتها التى تزوجت فى تل أبيب «افتحوا النوافذ! افتحوا النوافذ والأبواب والأرحام وإلا اختنقنا جميعا! لقد تزوجت صخرة ـ شجرة ميتة.. واديا أجرد لاينبت فيه شىء!.. هل تستطيع الصخرة أن تحب ؟ لا أريد طفلا ! لا أريد أن أنجب منه!».

وحين يذهب نيمرود إلى أصحابها ليعيدوها إليه يقولون له «ان المسكينة تحبك! تحب ما فيك من قوة تبعث على الغثيان. هذه أرض طيبة. انها لا تأكلنا . ولكننا نحن نأكل أنفسنا».

وبعد أن تهدأ أعصاب ايللى يصالحها زوجها ، وتعود لتلد طفلها فى بيت عون.

ماذا بقى فى القصة من أحداث ؟

بقى حادثان أساسيان.

الصخرة ينتحر !

الأول هو موت «جيديون». فقد مات منتحرا برصاصة أفرغها فى جوفه بعد أن ترك رسالة طويلة لنيمرود، خليفته فى حمل لقب الصخرة.. رسالة قال له فيها : «اننى أحس بالذنب نحوك. فقد قتلت الجانب الطيب فيك ـ وهو الخوف. لقد كنت نموذجا سيئا لك. لقد قتلتك لأننى نفسى قتلت بنفس الطريقة من قبل.

«لقد كنت فاسدا وقويا فى البداية وهأنذا انتهى فاسدا وضعيفا.. أن المرء يحتاج إلى شجاعة لكى يخاف.. ولم تكن لدى هذه الشجاعة. ولا أنت فأنت مهدد بمصيرى ـ سوف تجن وتدمر كل ماحولك ، وتدمر نفسك قبل كل شىء. نصيحتى لك أن تترك أولادك يلعبون كالأطفال. لا تدعهم يشبون على هذا الطراز الجديد الذى يزعمون .. لا تصنع منهم صخورا ..

اننى أترك الأرض لالحق ممن هم أحسن منى مثل لاميش!».

الحادث الثانى : أو المشهد الأخير الذى تختتم بـه (يائيل دايان) قصتها هو أن ابن نيمرود قد أصبح صبيا.

وقد ذهب بدوره إلى حيث يلتقى الأولاد ويلعبون لعبة «من هـو القوى» وقد أراد أن يثبت قوته فقفز فى نهر الأردن ليعبره. ولكنه يشرف على الغرق. وفى تلك اللحظة يمـر نيمرود صـدفة بـا لمكان فيرى ابنـه على وشك الغرق «وفجأة تحطم كل شىء. لقد وقف الصخـرة يرتعد. كان نيمـرود النموذج الجديـد، الصخـرة» ويـرتجف ذعرا. كـان الخوف السّاحق يمـزقـه. كل مخاوفه القديمـة التى أخفاها.. وأغرقهـا.. وقتلها.. قفزت فجأة على السطح تسخر منـه وتغزو قلبه وأعصابـه .. وقفز بلا وعى فى الماء لينقـذ ابنه. فلما أنقذه فوجىء الأولاد بالصخرة يبكى كالأطفال.

وعنـدما عـاد إلى البيت وهو مـازال يبكى قال لـه أبوه «ايفـرى» : «ابك يـابنى.. لا تخجل ! ابك ! ضع ابنك فى فـراشـه وحـدثه بحكـايـات لاميش القديمة، وحاول أن تصلى !».

وفى الفـراش ، أخرج نيمـرود من الدولاب أرنبـا مضحكـا من الجلد لـه عينان من الأزرار.. أعطاه للطفل!

هكذا قـدمت (يائيـل دايان) صورة لمجتمع إسرائيـل من وجهة نظـرها التى تمثل بغير شك وجهة نظر واسعة الانتشار داخل إسرائيل.. كما قال لى الصحفى الهندى الذى أعارنى الرواية.

ومن سطور هـذه الرواية وما فيهـا من خلجات نفهم فى سرعة شـديدة وقد امتلأت الصفحة كلاما :

* إن إسرائيل دولة أقامها ناس لا علاقة لهم بالدين ولا يعترفون به. بل انهم هـاربون من دينهم قبل أى شىء آخـر. رغم أن إسرائيل أقامت دعايتها وحجتها فى احتـلال فلسطين على أساس الدين. انهم ناس يثـارون لاحتقار المجتمع الأوربى واضطهاده لهم.

* إن إسرائيل أقامت ضجة كبيرة حول فكرة انها تخلـق نوعا جديدا من الناس. اطلقت عليهم اسم نبـات «الصبار» ليكون جنسا ممتـازا على سائر

البشر فهذه الدعوة ـــ العنصرية فى أساسها ـ تمزقها المؤلفـة تمزيقا شديدا وتدفعها بالفشل الذريع. وبأنها تشويه للانسان لا غير.

* اننـا إذا تأملنا فى هـذه الفكـرة وآثارهـا ونظـرتها فسوف نجـد أنها «نـازية» مـائة فى المائة!.. لها نظرة النـازيـة الباردة الـوحشـية إلى الصفـة العنصرية، وإلى الانسان كجسد وإداة لا شفقة فى استخدامها أو تدميرها.

* وان فكـرة القـوة.. والغـزو والتـوسع.. والعـدوان.. عمليـة راسخـة الجذور فى بناء مجتمع إسرائيل.

* وان الجيل الجديد ينتقـد كل هذا .. ولكنه مصـاب إلى حد كبير بنفس الأمراض.. فهو حائر.. يكاد يرى أن إنشاء دولة إسرائيل بالنسبة له لم يكن حلا للمشكلة ولكنه كان بداية مشكلة هائلة..

مشكلة تتلخص فى عبارة : إلى أين ؟!

الفهـــــرس

رقم الايداع ٢١٣٠ / ٩٧
الترقيم الدولى I. S. B. N
977 - 08 - 0589 - 0



هـــذا الـكـتــاب

الكتـــاب أنواع .. هناك كـــاتب يســتطيع أن يقنعك بأفكاره وآرائه .. وهو قـادر على أن يصل إلى عـقلك بسـهولة ويسر .. وان يعيد تشكيل فكرك ومعتقداتك ورأيك .

وهناك كاتب يسحرك بأسلوبه وطريقة عرضه لموضوعاته التى تفتح عينيك على نواحى فى الحياة لا تعرفها .. وهو قادر على التسلل إلى روحك ووجدانك .

وهناك نوع ثالث من الكتـــاب وهو الكاتب الجاد الذى يناقش قضايا ساخنة تجعلك تمعن الفكر وتجهد عقلك أثناء قراءة مقالاته .. فهو لا يريحك بأن يطرح إجابات جاهزة .. بل يثير أسئلة وعلامات استفهام تصل أنت إلى إجابات شافية ..

وأحمد بهاء الدين من الكتاب القلائل جدا الذى يجـمع بين كل هذه الأنواع .. ولذلك استطاع أن يعيد تشكيل عقل وفكر ويصيغ وجدان جيل كامل من خلال مقالاته خصوصا فى فترة التحولات الكبيرة فى المجتمع المصرى بعد الثورة أواخر الخمسينات وأوائل الستينات .

وقد اخترنا بعض المقالات التى كتبها أحمد بهاء الدين فى أخبار اليوم خلال تلك
ونعيد نشرها بنفس العنوان الذى نشـ
وهو « هذه الدنيا » لعل الشباب يستفيد
استفاد به الأجيال السابقة .

نبيل أبـ

عدد خاص

• جنيهات

طبعت بمطابع أخـ